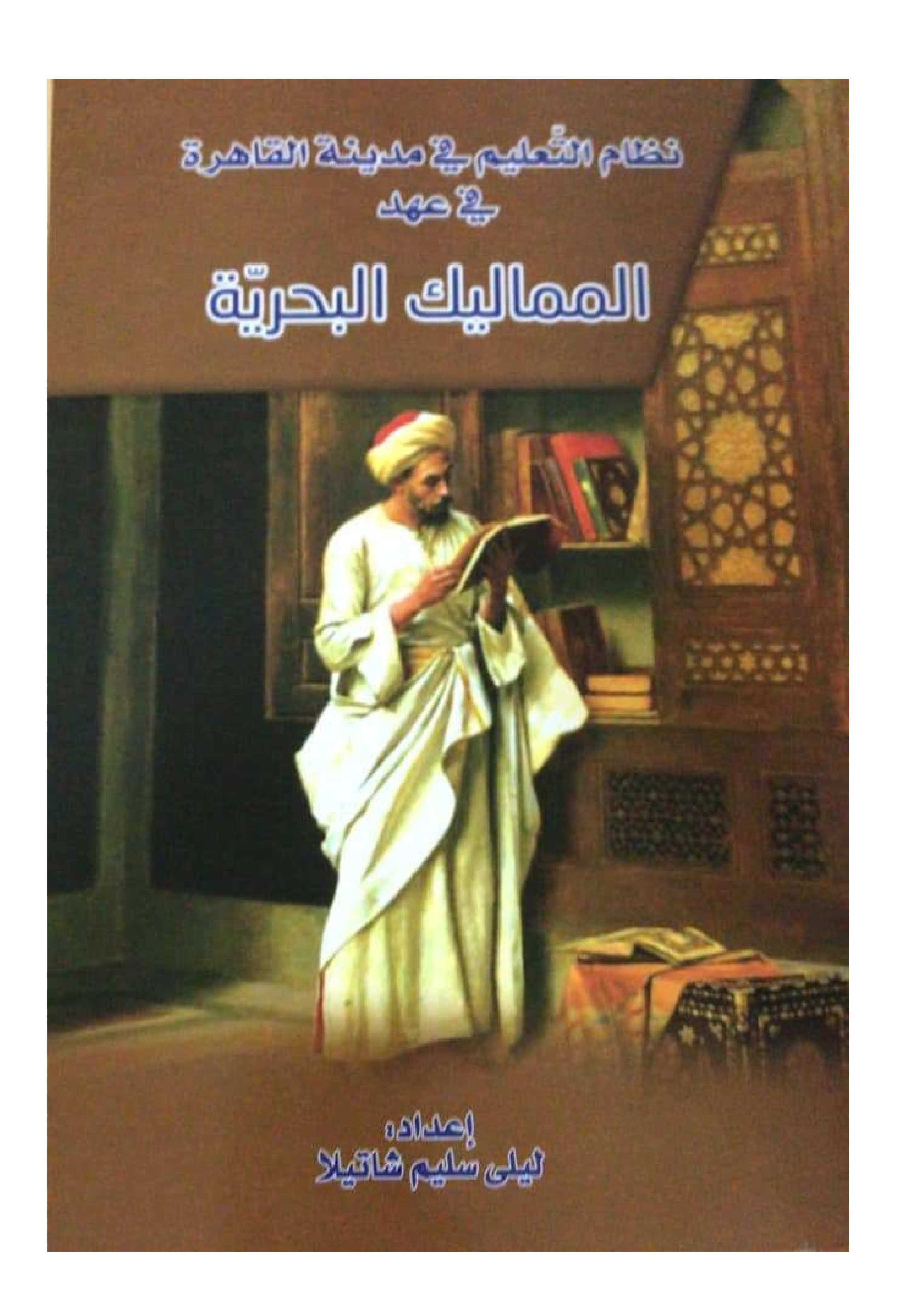

نظام التّعليم في مدينة القاهرة
في عهد
المماليك البحريّة
إعداد:
ليلى سليم شاتيلا

كلمة شكر وتقدير

إلى جميع أفراد عائلتي، وخاصة زوجي عبد العزيز، و ولداي عمر ولين، الذين ساندوني وشاركوني الكثير من التعب والمعاناة التي واكبت هذا البحث، مما خفّف من وطأته علي.

إلى كل من آزرني وشجّعني من الزملاء والأصدقاء، على القيام بهذا البحث، وهم كثر.

إلى أعضاء لجنة القرّاء الكرام، الدكتورة جوليات الراسي، والدكتور عبد اللطيف الحارس،

إلى أستاذي الدكتور أحمد حطيط، الذي اقترح عليّ موضوع البحث، وأشرف على إعداده وتنفيذه برحابة صدر، فكانت لتوجيهاته وإرشاداته فضل كبير في انجاز هذا البحث

إليكم جميعاً ألف شكر وتقدير

ليلى

مقدمة

أهمية الموضوع ومبررات اختياره

اعتبر العلم من أهم الرّكائز التي قام عليها الدّين الإسلامي، ما ربط النشاط التعليمي ارتباطاً وثيقاً بالدين وحصر مفهومه بالتعليم الديني الذي انتشر في كل نواحي الدولة الإسلامية، وخاصة في مصر التي أضحت منذ أن فتحها عمرو بن العاص سنة 23هـ/642م، قاعدة أساسية لنشر العلوم الإسلامية، خاصة بعد أن انتقل إليها عدد من الصحابة وآل البيت، ووضعوا أسس المدرسة الدينية فيها. واستمر الأمر على هذا الحال في العصور العباسية المتعاقبة وبخاصة في زمن الدولتين الطولونية والإخشيدية، وفي العهدين الفاطمي والأيوبي.

أما في العصر المملوكي، فقد انتشرت دور العلم، ليس في مدينة القاهرة فحسب، بل في كافة أنحاء الدولة الإسلامية، وأصبح تقليداً يقوم به السلاطين، والأمراء، وأصحاب المال والوجاهة، لأسباب عديدة ومختلفة، من أهمها تحسين صورة المماليك في نظر الناس، وتثبيت دعائم حكمهم، وإعادة إحياء الروح الجهادية عند المسلمين في مواجهة الصليبيين والمغول، مما أسهم في الإكثار من إقامة دور العلم وأعاد إحياء التراث والفكر الإسلامي بعد اجتياح المغول لمدينة بغداد. وقد تنوعت هذه الدور لتشمل المدارس الفقهية الدينية ودور الحديث والقرآن، ودور العبادة والتصوف بما تضم من خوانق وزوايا وربط، بالإضافة إلى مدارس التعليم الدنيوي التي شملت مختلف أنواع علوم العقل من طب وصيدلة، وهندسة، وتقويم، وفلك وعلم الحيوان، والرياضيات وغيرها، وفي ذلك تكمن أهمية هذا البحث.

ويعود اختياري لهذا الموضوع، إلى أنه في ما وصل إليه اطلاعي، ليس ثمة دراسة علمية متكاملة حول نظام التعليم في مدينة القاهرة في عصر المماليك. فالدارسون الذين أرّخوا لدولة المماليك في مصر، اهتموا في أبحاثهم بدراسة جوانب عامة من التعليم في مصر، ومن بين هؤلاء باحثون عرب منهم: سعيد عبد الفتاح عاشور، والسيد الباز العريني، وفؤاد الصياد، وعبد المنعم ماجد، وآخرون أجانب منهم : Claude Cahen, Dominique Sourdel, et Jean Sauvaget ما دفعني بعد التشاور مع أستاذي الدكتور أحمد

حطيط، أن أعقد بحثاً حول نظام التعليم في مدينة القاهرة في عصر المماليك البحرية (648هـ - 1250م / 784هـ - 1382م).

قسّمت الدراسة إلى ستة فصول فضلاً عن مدخل وخاتمة، سأدرس في **الفصل الأول** بنية نظام التعليم الإسلامي في مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول، حيث ازدهرت الحركة العلمية والثقافية فيها، ساعد على ذلك اهتمام السلاطين الكبير بالتقرب إلى الرعية واستمالتهم ليسكتوا عن أصولهم كأرقّاء وعن حقيقة اغتصابهم للسلطة من أسيادهم الأيوبيين. كما سأتناول في هذا الفصل الأسباب التي أدت إلى رواج حركة التعليم في تلك المدينة، والتي كانت من بينها "الأوقاف" التي رصدها السلاطين والأمراء والأغنياء قربة لله تعالى الأهم والأبرز، لأنها شكّلت المورد الأساسي في تمويل هذه الحركة، مما عكس الثراء الفاحش والترف الذي تميز به ذلك العصر.

أما **الفصل الثاني**، فسأخصصه لدراسة المؤسسات الأساسية للتعليم الديني المتمثلة بـ "الكتّاب" للمرحلة الابتدائية وبـ"المدرسة" للتعليم العالي، مفصّلة دور كل منهما في حركة التعليم، مع تركيز كامل على نشأة المدرسة وانتشارها في مدينة القاهرة، وأنواع المدارس ووظائفها وتعيين المدرسين فيها واختصاصاتها ومستوياتها والقائمين عليها من مذاهب السنة الأربعة وعلاقاتها ببعض، وسآخذ مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون نموذجاً للدراسة من حيث الهندسة والتوصيف.

وسأتناول في **الفصل الثالث**، مؤسسات التعليم الأخرى التي انتشرت بكثرة في مدينة القاهرة المملوكية كالمكتبات والجوامع والخوانق والزوايا، والربط، والقبب، والمشاهد، والقرافة والحوانيت، مع شرح واف لدور كل منها.

وفي **الفصل الرابع**، سأعرض لتعليم العلوم العقلية الدنيوية في مدينة القاهرة، مع عرض لمدارس وأمكنة تعليمها مركزة على نوعين منها: مدارس الطب أو "البيمارستانات"، ومدارس "الطباق" العسكرية.

وسأشرح في **الفصل الخامس** نظام التعليم في مدارس القاهرة المملوكية، معددة مراحل التعليم، ومبيّنة المناهج التعليميّة وطرائق التدريس في ذلك العصر، مع استعراضٍ وافٍ لأنواع الإجازات، ومستوياتها وشروط منحها، وكيفية عقد الحلقات التعليمية وآدابها، إضافة إلى تفنيد الأعمال الإدارية والأنظمة التي قامت عليها المدارس والأعراف التي سادتها وتوقيت الدروس والعطل.

وفي **الفصل السادس،** سأتحدث عن كيفية تعيين المدرسين واختصاصاتهم ومستوياتهم العلمية وأوضاعهم الاجتماعية والمعيشية، إضافة إلى درس كل ما يتعلق بالطلاب وشروط انتسابهم للمدرسة وإقامتهم فيها وشروط نجاحهم ورسوبهم، مع لمحة موجزة عن موظفي المدرسة.

وسأعتمد في دراستي على المصادر المملوكية وأمهات الكتب من دوائر المعارف، وبخاصة دائرة المعارف الإسلامية والدوريات، بالإضافة إلى الدراسات الحديثة التي سأستفيد بموجبها من مناهج الدارسين ومقارباتهم، وملاحظاتهم، وتحليلاتهم واستنتاجاتهم، دون الأخذ بالمعلومات التي وردت في دراساتهم، فهذه سأستقيها من المصادر.

أما منهج الدراسة، فيقوم على استعراض المعلومات وفق المنهج السردي ليصار بعد ذلك إلى دراستها وتحليلها وفق المنهج التحليلي النقدي وصولاً إلى توليف المعلومات وفق مقتضيات المنهج التركيبي لإعادة ترتيب الموضوع، مع الإلتزام بالموضوعية دونما انحياز أو إصدار أحكام مبنية على الشيوع.

وفي الختام ، فإني إذ أشكر الله تعالى أن أعانني على انجاز هذا العمل، آمل أن تسفر دراستي هذه عن إضاءة جوانب جديدة تتصل بنظام التعليم في مدينة القاهرة في عصر المماليك البحرية.

نظرة في بعض المصادر والمراجع

عاشت مدينة القاهرة في عصر المماليك البحرية حالة من الاستقرار السياسي والعسكري، رافقها رخاء اقتصادي ورواج حضاري وفكري، جعل منها حاضرة الدولة الإسلامية، ومركز قرارها وبيدها الحل والربط في جميع شؤون المسلمين، خاصة بعد أن أحيا المماليك الخلافة العباسية فيها إثر سقوط مدينة بغداد. لهذا كله، استحوذت مدينة القاهرة منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، على اهتمام المؤرخين، نتج عنه وفرة في المصادر والمراجع التي أرّخت لهذه المدينة، والتي اعتمدت الكثير منها في دراستي وأهمها:

أولاً: المصادر العربية

1- **المصادر العامة**

-كتاب "**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**"، المعروف بـ"**الخطط المقريزية**" لمؤلفه تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت854هـ /1450م). تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه من المصادر التاريخية التي يرجع إليها الباحثون لدراسة التاريخ الحضاري والاجتماعي لمدينة القاهرة في العصرين الأيوبي والمملوكي. فقد خصصه المؤرخ للحديث عما كان في هذه المدينة في ذلك الوقت من مظاهر حضارية وعمرانية، كالحارات، والدروب، والمحاريب، والقياسر والأسواق، والدكاكين، والفنادق وغيرها من المنشآت، من أهمها دور العلم والعبادة، لاسيّما المدارس والجوامع، والبيمارستانات، والقبب والخوانق، والمشاهد والقرافات وغير ذلك من العمائر التي ازدهر فيها التعليم الإسلامي. كمالم يغفل المؤرخ عن ذكر من قام ببناء هذه الدور والأوقاف التي خصصت لها، معدداً أسماء العلماء الذين درّسوا فيها، متحدثاً عما اندثر منها وما بقي إلى زمنه. ولذلك، فقد شكّل هذا الكتاب مصدراً أساسياً أفدت منه بمعلومات كثيرة وقيّمة تتعلق بمختلف نقاط البحث.

-كتاب "**السلوك لمعرفة الدول والملوك**"، للمقريزي، وهو أيضاً من المصادر القيّمة التي أرّخت لتاريخ مصر في العصور الإسلامية، اعتمد فيه المؤرخ منهج التأريخ الحولي، وضمّنه سلسلة من الأحداث والقضايا السياسية والاجتماعية التي وقعت ما بين سنتي 577هـ- 845هـ /1118م-1441م، وذيّل حوادث كل سنة بتراجم للأعلام المتوفين فيها. استقيت من هذا الكتاب معلومات كثيرة من أهمها ما ورد فيه من تفاصيل عن مدرسة السلطان حسن وعن شكل بنائها وهندستها.

– مقدمة كتاب " **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" للمؤرخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808هـ/1405م). وضع ابن خلدون هذه المقدمة سنة 779هـ/ 1377م، فجاءت بقالب موسوعي، احتوى على عصارة فكره وفلسفته التي تجلّت فيما أسماه "العمران"، تناول فيها مختلف ميادين المعرفة من الشريعة والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والاجتماع والسياسة والطب، واستعرض أحوال البشر واختلافات طبائعهم والبيئة وأثرها على الإنسان. كما درس المؤرخ تطوّر الشعوب و الأمم ونشوء الدولة وأسباب انهيارها. وبذلك، يكون ابن خلدون قد سبق غيره من المفكرين إلى العديد من الآراء والأفكار، حتى اعتبره الكثيرون المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع.

شكّلت المقدمة مؤلفاً منفصلاً عن الكتاب الأم، قسّمها ابن خلدون إلى ستة فصول، مخصصاً الفصل الأخير للعلوم وأصنافها (علوم دينية أو نقلية وعلوم دنيوية أو عقلية)، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، متناولاً كل علم على حدة مستعرضاً تاريخه وشروطه ودوره في " العمران". وقد استعنت بهذه المقدمة التي شكّلت مصدراً هاماً من مصادر هذا البحث، خاصة فيما يتعلق بأصناف العلوم وأنواعها وطرق تعليمها.

–كتاب "**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**"، لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت874هـ /1469م). أرّخ المؤلف في "النجوم" لدولة مصر وسلاطينها في العصور الإسلامية المتعاقبة، متناولاً معظم الأحداث السياسية، والإدارية، والإقتصادية، وبعض الوقائع الاجتماعية ما يجعله مفيداً لمن يروم دراسة التاريخ الإسلامي لمصر على الرغم من أسلوبه المختصر واكتفائه بإيراد نهايات الأحداث دون تفصيل الأسباب والحيثيات إلا نادراً.

–كتاب "**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**"، لأحمد بن علي أبو العباس القلقشندي (ت821هـ /1418م)، الذي استطاع من خلال وظيفته الرسمية كرئيس لديوان الإنشاء في العصر المملوكي، أن يطّلع على كافة المعلومات والمعاملات الإدارية والمراسلات الرسمية وكيفية صياغتها، إضافة إلى ما يتعلق بديوان الإنشاء من وظائف وتعيينات وتدوينها في كتاب شامل. ومن هذا الكتاب، استقيت المعلومات الإدارية وكتب التعيينات التي احتجت إليها في دراستي.

–كتاب "**المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها**"، لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري المعروف بابن الحاج (ت737هـ/ 1336 م). عالج المؤلف في هذا الكتاب مواضيع عامة شملت الآداب التي يجب أن يتحلى بها المسلم و الواجبات التي تحكم أعماله وحياته اليومية، وخاصة العلماء ومؤدبي الصبيان وعلاقتهم مع طلابهم، كما تطرّق إلى طرائق التعليم

في الكتاتيب والمدارس وقد أفدت منها في هذا المجال، على الرغم من أصولية الكاتب المتشددة التي تظهر واضحة في كتابه.

-كتاب "**حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**"، لعبد الرحمن بن محمد بن عثمان السيوطي (ت911هـ/1505م). يتحدث هذا الكتاب عمن دخل مصر من الصحابة والتابعين ومن عاش فيها من الرواة، والمحدثين، والفقهاء، والعلماء من الفتح حتى العصر المملوكي مما يعطي معلومات مهمة عن سير الحركة الفكرية والعلمية في مصر. أما فيما يتعلق بدور العلم، فقد ذكر المؤرخ لمحات سريعة عن بعض ما كان فيها من جوامع، ومدارس، وخانقات لم يزد فيها عما قدمه عنها المقريزي في "الخطط".

-كتاب "**نهاية الأرب في فنون الأدب**" لأحمد بن عبد الوهاب النويري (ت733هـ/1333م). هو كتاب من طراز الموسوعات العلمية والأدبية الشاملة التي انتشرت في العصر المملوكي الأول. وقد بانت في هذا الكتاب ثقافة المؤلف الواسعة التي جمعت بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والدين والسياسة والعلوم والتراجم وغيرها من الفنون التي جعلت منه كتاباً شاملاً واسع الإفادة، وقد أفدت منه بما يتعلق بأمور الوقف والشروط الواجب توافرها في الناظر فيه، وبرواتب المعلمين وتعيينهم في المدارس، إضافة إلى الهيئة الإدارية وموظفي المدرسة و وظائفهم.

- كتاب "**تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم**" لمحمد بن إبراهيم ابن جماعة (ت733هـ/1333م). وهذا الكتاب غني بالمعلومات المتصلة بالتربية والتعليم في عصر المماليك البحرية، رتبها المؤلف على خمسة أبوب، جعل الباب الأول في فضل العلم وأهله، والباب الثاني في آداب العالم في نفسه ومع طلابه ودرسه، وخصص الثالث لأدب المتعلم في نفسه ومع شيخه ورفقته ودرسه، وأفرد الباب الرابع لكل ما يتعلق بالكتب وقراءتها وكيفية التعامل معها وحفظها وشروط إعارتها، وأما الباب الخامس فتناول فيه آداب السكن وشروطه في المدارس. ولما كنت قد تناولت موضوعات الأبواب الانفة الذكر في دراستي، فقد شكّل هذا الكتاب أحد أهم المصادر التي استعنت بها، وخاصة فيما يتعلق بآداب العالم والمتعلم.

2-كتب التراجم

-كتاب "**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**"، لمؤلفه أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت853هـ/1449م)، ويعتبر من أهم الكتب التي ترجمت للعلماء والملوك والفقهاء والكتّاب والأدباء المسلمين الذين عاشوا في القرن الثامن. وقد استقيت منه تراجم عدة لعلماء مصر و فقهائها في عصر المماليك.

-كتاب "**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**"، تأليف الطبيب أحمد ابن القاسم السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت668هـ/1269م). يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي أرّخت لعلم الطب وأشهر الأطباء المسلمين في العصور الإسلامية، وفيه معلومات قيّمة عن الطب الهندي واليوناني، إضافة إلى تفاصيل عن الحياة الاجتماعية والعلمية في ذلك الوقت. من أهم ما شمله هذا الكتاب حوالى أربعمائة ترجمة لأطباء وصيادلة مسلمين من مختلف العصور، ما يعطينا فكرة مفيدة عن المستوى العلمي والتقدم الذي حققه هؤلاء في علم الطب، وقد أفادني كثيراً في هذا المجال.

-كتاب "**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**"، لمؤلفه محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخّاوي (ت902هـ/1497م)، وفيه تراجم لأهم الأعلام المسلمين وغير المسلمين الذين برزوا في المائة التاسعة من سلاطين وأمراء وأدباء وكتّاب وقضاة وعلماء وفقهاء. رتب السّخاوي كتابه على حروف المعجم، مبتدئاً من الرجال بالأسماء ثم بالكنى ثم بالأنساب والألقاب، منتقداً بشدة كل من يخالفه الرأي. استقيت من هذا الكتاب معلومات كثيرة عن رجال العلم الذين عاشوا في العصر المملوكي، إضافة إلى معلومات مهمة عن المرأة المسلمة ودورها في الحركة العلمية من خلال بعض الأسماء لسيدات مارسن التعليم وبرعن فيه.

ثانياً: **المراجع العربية والمعرّبة**

قدمت المراجع عوناًُ كبيراً لي، حيث شكّلت نقطة بداية انطلقت منها لتحديد أطر البحث، مستفيدة من ملاحظات المؤلفين ومن مقارباتهم للمسائل التي درسوها وتساؤلاتهم حولها، فضلاً عن تحليلاتهم والنتائج التي توصلوا إليها. كما أنها وجهتني نحو المصادر الأساسية التي أفادتني في دراستي.

1- المراجع العربية

- كتاب "**عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي والعلمي**" للمؤرخ محمود رزق سليم. تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه تناول بأجزائه الثلاثة الحركة العلمية والأدبية التي شهدتها مصر في العصر المملوكي، فعالج أسباب رواجها، معدداً أشهر رجالها ومستعرضاً لأهم نتاجها الفكري والأدبي. ولذلك، فقد شكّل هذا الكتاب مرجعاً أساسياً لهذا العمل.

- كتاب " **قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري**" للدكتور أحمد حطيط، وقد خصّص فيه فصلاً كاملاً للحركة العلمية في مدينة دمشق في عهد المماليك. وقد أفدت منه في وضع تصور أولي لأهم نقاط البحث ومراحله وأقسامه، مستعينة بأسلوبه بمعالجة الموضوع بمنهج علمي واضح ومفيد.

- كتاب" **المماليك**" للسيد الباز العريني، وفيه بحث المؤلف في أصل المماليك وأسباب وكيفية تكوين طبقتهم في المجتمع الإسلامي وتطورهم فيه حتى أصبحوا عماد الجيش الإسلامي، ما ساعدهم على امتلاك زمام الأمور واستحواذهم على السلطة. أفدت من هذا الكتاب كثيراً، وخاصة فيما يتعلق بمدارس الطباق العسكرية الخاصة بالمماليك، حيث كانوا يعيشون حياة صارمة في قلعة الجبل التي كانت أشبه بمدرسة عسكرية داخلية يعيش فيها المماليك ويتلقون تعليمهم الديني والعسكري.

- كتاب "**موسوعة النظم والحضارة الإسلامية**" في عشرة أجزاء، للدكتور أحمد شلبي. شكّل هذا الكتاب دراسة تحليلية تبرز الاتجاهات الحضارية للإسلام في مجالات الفكر، والسياسة، والاقتصاد، وفي الحياة الاجتماعية، والتربوية، والعسكرية، والتشريعية القضائية. وقد خصّص المؤرخ الجزء الخامس من هذه الموسوعة، لدراسة شاملة لفلسفة التربية عند المسلمين، ولمناهج التعليم وأماكنه، ولحالة المدرّسين المالية والاجتماعية، والإجازات العلمية، والعقوبات، والجوائز والحوافز التي تقدم للطلبة، وغير ذلك من الموضوعات التي رجعت إليها واستفدت منها كثيراً.

2- المراجع المعرّبة

- كتاب "**مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي**" لروزنتال فرانس. وفيه يبيّن المؤلف "الروح العلمية" التي تمتع بها العلماء العرب، بإتباعهم منهجاً علمياً واضحاً، يقوم على احترام الرواية، والدقة في النقل، والأمانة العلمية، والنقد الداخلي والخارجي للنصوص، مع شرح مستفيض للأساليب النقدية التي كانوا يتبعونها وحدود ذلك النقد، وتبيان لطبيعة البحث العلمي، وتردده بين التخصص والتبسط، وقيام جانب منه على التجربة، كما يبيّن مدى تطور البحث العلمي وتقدم أساليبه على مر العصور.

ثالثاً: المراجع بالفرنسية والإنكليزية

1- المراجع بالفرنسية

كما رجعت في دراستي إلى الطبعة الثانية من "الموسوعة الإسلامية" " Encyclopedie De L'Islam"، وهي موسوعة أكاديمية تعنى بكل ما يتّصل بالحضارة الإسلامية، سواء من الناحية الدينية أو الثقافية أو العلمية أو الأدبية أو السياسية أو الجغرافية على امتداد العصور الإسلامية. شكّلت بعض مقالات هذه الموسوعة كمقالة " المدرسة" و" المسجد" لـ J. Pederson ، و مقالة "القاهرة" لـ J. Jomier ، ومقالة "الخانقاه" لـ J. Chabbi ، و مقالة "دار الحديث" لـ F. Sezgin، وغيرها، مراجع أساسية رجعت إليها في البحث والتدقيق، خاصة وأنها استقت معلوماتها من أمهات الكتب والمصادر العربية الموثوقة.

ومن المراجع التي أفادتني كتاب La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman، وهو كتاب لعدة مؤلفين، يتناول في قسم منه أساليب وطرائق التعليم الإسلامي، وكتاب لـ Youssef Eche بعنوان: Les Bibliothèques Arabes, publiques et Semi- publiques En Mesopotamie, En Syrie Et En Egypt Au Moyen Age، خصّصه للحديث عن أشهر المكتبات العربية الإسلامية وأنواعها وكيفية تأسيسها وما آلت إليه. وقد أفدت من هذا الكتاب بإلقاء الضوء على المكتبات الإسلامية في عصر المماليك. وكتاب لعدة مؤلفين أشرف على جمعه Hassan El boudrari ، وهو بعنوان : Modes De Transmission De La Culture Religieuse En Islam ، وقد أفدت منه في مواضع متعددة من هذه الدراسة.

2- المراجع بالإنكليزية

من المراجع الأجنبية أيضاً كتاب History Of Arabs للمؤلف Philip Hitti، الذي استقى مادته من مصادر كثيرة متعددة اللغات، فأحاط بكل ما يتصل بالتاريخ الإسلامي العام، خاصة فيما يتعلق بالحياة السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية، التي أفدت منها ببعض المعلومات في دراستي.

تمهيد: تطور التعليم في مدينة القاهرة في العصور الإسلامية المتعاقبة حتى عشية عصر المماليك البحرية

تعرضت مصر، في القرنين الأول والثاني للهجرة، لصدمة حضارية أدت إلى ركود حضاري نتيجة انقطاعها عن الدول الأخرى، خاصة عن الدولة البيزنطية التي كانت تمدها بالعلماء والمتعلمين، والحاقها مباشرة بالخلافة الراشدة[1]. فحين فتح عمرو بن العاص مصر سنة 21هـ/642م[2]، دخلها الإسلام حاملاً معه جملة متغيرات، ليس أهمها حلول اللغة العربية محل اللغتين المحلّيتين الإغريقية والقبطية. وبسبب ذلك تأخرت مصر لتأخذ دورها الإيجابي الفعّال في حياة الدولة الإسلامية. ولم يتم لها ذلك إلا في القرن الثالث للهجرة، حين استقلَّ بالحكم فيها الأمير أحمد ابن طولون[3]، مؤسس الدولة الطولونية.

ففي ذلك العهد ، بدأت مصر تستعيد دورها الثقافي والحضاري الذي عرفته عبر التاريخ، ولكن هذه المرة بمضمون عربي إسلامي. فقد كان للأمراء الطولونيين، وعلى رأسهم الأمير أحمد[4]، دوراً بارزاً في بث الحضارة الإسلامية في الديار المصرية، وكان بلاطهم صالوناً أدبياً، يلتقي فيه الأدباء والشعراء، وتحتدم فيه المناقشات العلمية والمناظرات الفقهية، وتدور الحوارات والندوات الدينية والثقافية[5].

---

[1]- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب العربية، ص202؛ ماجد، عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية، ص211-224.

[2]- البلاذري: فتوح البلدان، ص ص 214-225؛ الخوند، مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية،ج18، ص 205؛ السيوطي: حسن المحاضرة ،ج1،ص ص 88-100؛ ماجد، عبد المنعم: المرجع نفسه، ص ص211-224؛ Hitti, Philip : History Of Arabs, P P 160-168

[3]- هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون التركي، ولد في سنة220هـ، وقيل214هـ،في سرّ من رأى، وتوفى سنة 270هـ.ولي مصر في شهر رمضان من سنة 254هـ، وكان عمره أربع وثلاثين سنة، بعد عزل أرخو بن أولوغ طرخان. السيوطي: المصدر نفسه،ج2، ص ص16-17؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج3، ص6؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج2، ص53.

[4]- نشأ أحمد بن طولون على حفظ القرآن الكريم وإتقانه مع كثرة سماع الحديث والدرس وطلب العلم على المذهب الحنيف . ابن تغري يردي: المصدر نفسه،ج3، ص 19؛ المقريزي: الخطط، ج2، ص120؛ Hitti,Philip: Ibid, P452

[5]- محمود، حسن: مصر في عهد الطولونيين، ص119.

أما خارج البلاط، فقد كان انطلاق الحركة العلمية الإسلامية في مصر عبر حدثين علميين بارزين أولهما مجيء الإمام محمد بن إدريس الشافعي[6] إلى مصر سنة 195هـ/811م[7]، وقيل سنة 200هـ/816م[8]، واستقراره في الزاوية الشرقية[9] من الجامع العتيق، حيث عكف على مزاولة التعليم والإفادة في مختلف العلوم إلى أن مات سنة 204هـ/820م[10]، ثم توالى على التدريس فيها من بعده تلامذته ومن بعدهم تلامذتهم[11].

أما الحدث العلمي الثاني، فكان بناء الأمير أحمد بن طولون سنة 266هـ/879م[12]، جامعه المعروف باسم جامع ابن طولون، ونقل أهل العلم من الفقهاء والمحدثين إليه منهم القاضي بكار بن قتيبة إماماً ومدرساً للفقه، والربيع بن سليمان وهو تلميذ الإمام الشافعي، وابنه محمد، لإملاء الحديث وتدريس الأولاد وتكتيبهم العلم بعد أن يصلّوا فرض الجمعة. وقد عيّن ابن طولون لكل مدرّس معيداً وورّاقاً وعدداً من الطلاب[13]. وممن وصف هذا الجامع الرحالة ابن جبير بقوله:"... جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون[14] فيه..."[15].

6- هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن الشافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف، جد النبي (ص)، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب الشافعية. ولد في غزة بفلسطين سنة 150هـ، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها. برع بالأدب والعربية والشعر، روى عن مالك ابن أنس ومسلم بن خالد الزنجي. قصد مصر سنة 199هـ، وتوفي بها سنة 204هـ. له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب"الأم" في الفقه بسبع مجلدات، و" المسند" في الحديث و" السنن" و "الرسالة" وغير ذلك. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، مج1، ص ص 100-103؛ الحسيني: طبقات الشافعية، ص ص 11-12؛ السيوطي: المصدر السابق، ج1، ص264؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص532.

7- السيوطي: حسن المحاضرة، ج1،ص264.

8- ابن النديم: الفهرست، ص353.

9- وقد عرفت هذه الزاوية باسم الزاوية الخشابية أو زاوية الإمام الشافعي، حدد موقعها من المسجد ابن بطوطة الذي قال:" وبشرق المسجد تقع الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي". رحلة ابن بطوطة، ص93.

10- المقريزي: الخطط، ج4،ص22؛ السيوطي: المصدر السابق،ج1، ص264؛ Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2 T5, p1120.

11- ابن النديم: المصدر السابق، ص354-361؛ ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص ص100-101.

12- السيوطي: المصدر السابق،ج2، ص218؛ المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص39. وقيل سنة 259هـ/873م. القلقشندي: صبح الأعشى، ج3،ص386.

13- السيوطي: المصدر نفسه،ج2،ص219؛ المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص39؛ Pedersen, Josh, ibid, ,T5, P1120

14- أي يقيمون حلقات التعليم.

15- ابن جبير: الرحلة، ص20.

وكان العصر الإخشيدي كسابقه الطولوني، متميزاً بنشاط فقهائه وعلمائه، ما أكسبه حياة عقلية ممتازة خاصة في علوم الشريعة والعبادات. وكان أهل العلم، والثقافة، والشعر يلتقون في مجالس الأمراء الإخشيديين وبلاطهم حيث يحظون بكل عناية ورعاية[16].

وعندما استولى الفاطميون على مصر، أحدثوا فيها تغييراً ثقافياً و عقائدياً[17]، معتمدين فيه على حنكتهم في استمالة أهل مصر إليهم – وأكثريتهم من أهل السّنة– وتشجيعهم على الدخول في العقيدة الشيعية– الإسماعيلية إما عن طريق الإغراء والترغيب[18]، أو عن طريق العنف والترهيب[19].

لقد أبدى الفاطميون اهتماماً كبيراً بالتعليم، فأقاموا في بلاطهم سنة 358هـ/969م، دروساً فقهية ووضعية واسعة، فكان القاضي محمد بن النعمان، يجلس على كرسيّ بالقصر الفاطمي لقراءة مجالس الحكمة وعلوم آل البيت على جمهور المؤمنين من الرجال والنساء، على غرار ما كان يفعله أخوه و والده من قبله، كما كان علماء دار العلم يقيمون فيه حلقات دراسية في مختلف العلوم العقلية، مثل علم الطب، والفلك، والفلسفة، والمنطق، والرياضة وغيرها[20].

أما على صعيد تعليم الأولاد، فقد أقام الفاطميون في قصورهم مدارس خاصة يلتحق بها الأمراء وأبناء علية القوم حيث يقوم المؤدبون[21]في تثقيف هؤلاء الصبية على منهاج خاص يعتمد على مفاهيم الدعوة الإسماعيلية – وكانت علماً من العلوم المدوَّنة[22]– لإعداد الأمراء فيما بعد لشغل المناصب المهمة في الدولة، وأوّلها منصب الخلافة.

---

[16]– كاشف، سيّدة: مصر في العهد الإخشيدي، ص ص245–247.

[17]– قال المقدسي:" وأما الولايات فللفاطمي وهم في عدل وأمن لأنه سلطان قوي وغني والرعية في راحة وثمّ سياسة ونفاذ أمر وكلّ سامع مطيع من الأركان سراً وعلانية لا يخطب إلا لأمير المؤمنين. أحسن التقاسيم، ص176.

[18]– ذكر المقريزي أن الخليفة العبيدي الظاهر أمر الدّعاة أن يحفّظوا الناس المؤلفات الإسماعيلية وجعل لمن يحفظها جوائز مالية. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص274 ؛ سرور، محمد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ص161–173.

[19]– ذكر المقريزي أنه في سنة 372هـ، ضرب رجل في مصر وطيف به في المدينة بسبب حيازته على كتاب الموطأ لمالك بن أنس. الخطط، ج2، ص163؛ Bosworth,C.E: The Islamic Dynasties,P127-128

[20]– المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص259؛ سرور، محمد: المرجع السابق، ص ص174–181؛ Eche, Youssef: Les Biblio theques Arabes, P90

[21]– كان الفاطميون يطلقون على المؤدب اسم "الجليس" كالجليس ابن الحباب الذي علّم الظافر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم والأدب. الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص332.

[22]– المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص268.

ومن أهم ما اشتهر به قصر الخلافة الفاطمي، خزانة الكتب التي أولاها الخلفاء الفاطميون عناية كبرى. قيل إن عدد كتب هذه الخزانة قد بلغ حوالى ألف وستمائة ألف كتاب ومخطوط[23]، وقيل مائة ألف مجلد في سائر العلوم[24]، وقيل أكثر[25]، شملت علوم المنطق، والفلسفة، والرياضة، والفلك، ووصف الأرض، والطبيعة، والكيمياء، والطب، والنجامة وغيرها[26].

ولم يكن الوزراء الفاطميون أقل اهتماماً بالعلم من الخلفاء، فقد أقام الوزير يعقوب بن كلّس[27]، مجلسين في داره بالقاهرة يوم الثلاثاء ويوم الجمعة من كل أسبوع ليجتمع العلماء، والفقهاء، والقضاة، والأدباء، والشعراء، والمتكلّمون، وأهل الجدل، فيقيمون المناظرات، والحوارات العلمية[28]، كما عرف عن الوزير الصالح طلائع بن رزّيك أنه استقبل في مجلسه كبار الأدباء والعلماء[29].

أما خارج البلاط الفاطمي، فقد بنى الفاطميون الجامع الأزهر سنة 361هـ/971م[30]، وهو أول جامع أقيم في مدينة القاهرة على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلّي مولى المعز لدين الله الفاطمي لما اختطّ المدينة. وفي بداية أمره، أقيم هذا الجامع للعبادة والصلاة، لكنه ما لبث أن تحوّل إلى صرح علمي رفيع ومنبر للفكر الاسماعيلي[31].

23- والأرجح أنه الرقم الصحيح لأنه وكما تذكر المصادر التاريخية أن القاضي الفاضل قد أخرج باذن من صلاح الدين الأيوبي مئتي ألف كتاب من هذه المكتبة عدا عن الكميات الهائلة التي نهبت ومثيلتها التي بقيت مطروحة في ساحة القصر. المقريزي: المصدر نفسه، ج2،ص292؛ السلوك، ج1، ص355؛ Eche, Youssef: Ibid, P250 ; Hitti, Philip: History Of Arabs, P629 Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5, p1121

24- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص101؛ ج5، ص335.

25- أما القلقشندي فذكر أن عدد كتبها يزيد على مائة وعشرين ألف كتاب. صبح الأعشى، ج3، ص545.

26- المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص290-292.

27- هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داوود ابن كلّس وزير الخليفة نزار بن المعز الفاطمي العبيدي ولد في بغداد وهو مسلم من أصل يهودي، توفى سنة 390هـ، وقيل سنة 380هـ،وكان أول وزير في الدولة الفاطمية. ألّف عدة كتب منها كتاب في القراءات، وكتاب مختصر في الفقه، وكتاب في آداب الرسول، وكتاب علم الأبدان في الطب. المقريزي: الخطط، ج3،ص12؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج8، ص27؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص 158.

28- ابن خلكان: المصدر نفسه، ج8، ص29؛ المقريزي: المصدر نفسه؛ ج4، ص162؛ سيد، أيمن: الدولة الفاطمية في مصر، ص584؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر، ص78؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P627

29- شلبي، أحمد: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج2، ص95.

30- السيوطي: المصدرالسابق، ج2، ص221؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص51-52؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص87؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص217؛ القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص410؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص90.

31- ماجد، عبد المنعم: نظم الفاطميين، ص ص39-55؛ Jomier, J: Article Al- Kahira , EI2, T4, P447

ومن المآثر العلمية الفاطمية أيضاً، تأسيس أول دار علم مستقل في الدولة الفاطمية في مدينة القاهرة سمّوه "دار العلم" أو "دار الحكمة"[32]، أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي عام 395هـ/ 1004م[33]. حظيت هذه الدار بشهرة واسعة في العالم الإسلامي، وقد حملت إليها الكتب والمجلدات والمخطوطات في سائر العلوم، والآداب، والخطوط المنسوبة من جميع الأقطار، والبلدان، والقصور المعمورة، ومن خزائن الحاكم بأمر الله نفسه، فتجمّع فيها ما لم ير مثله من قبل لأحد من الملوك.

وقد شهدت هذه الدار حلقات دراسية لأهم علماء ذلك الوقت في علوم الفقه، والمنطق، والجدل، والحديث، إضافة إلى علوم الطب، والفلك والرياضة وغير ذلك من العلوم العقلية[34].

أما الأيوبيون، فإضافة إلى نشاطهم العسكري فقد كانوا من أهل العلم وأتباعه. فإذا قرأنا تاريخ بني أيوب من صلاح الدين حتى آخر سلاطينهم، نجد أن أكثرهم كان إما عالماً، أو فقيهاً، أوشاعراً، أو أديباً، أو محدّثاً[35]. ونذكر على سبيل المثال ما عرف عن السلطان صلاح الدين[36]، أنه اشتهر بحبه الشديد للعلم والعلماء، فكان يتردد على حلقات كبار الأئمة وخاصة علماء الحديث الذي ولع به كثيراً[37]، كما حفلت مجالسه بأهل العلم والفضل إضافة الى بنائه للكثير من المدارس والرباطات[38]. وما شهر عن ابنه العزيز عثمان (ت595هـ/1199م)، من ميل شديد إلى العلم وملازمة للعلماء[39]. وكذلك الملك العادل أبو بكر بن أيوب (ت625هـ/1228م)، وابنه الكامل محمد (ت635هـ/1238م)، اللذان حرصا على سماع الحديث

32- المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص379؛ اتعاظ الحنفا، ج2، ص56-57؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص413؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص23؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، تحقيق جوليات الراسي، ص50؛ Hitti,Philip: Ibid, P628

33- وقال السيوطي سنة 400هـ. حسن المحاضرة، ج2، ص242.

34- المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص380.

35- راجع كتاب أحمد بدوي الحياة الأدبية في الحروب الصليبية بمصر والشام.

36- هو يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان. من العلماء من قال أنه كردي الأصل ومنهم من قال إنه عربي. ولد سنة 532هـ بقلعة تكريت حين كان أبوه نجم الدين والياً عليها، وتوفى سنة 589هـ. المقريزي: السلوك، ج1، ص148، ج2، ص ص43-45؛ النويري: نهاية الأرب، ج28، ص293؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص85؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص496؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج4، ص ص 325-341؛ الكتبي: فوات الوفيات، رقم 595، ص ص361-365.

37- أبو شامة: كتاب الروضتين، ج4، ص225؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ص187؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج2، ص249؛ أبو الفداء: المصدر نفسه، ج1، ص87؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج 6، ص8.

38- ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج2، ص ص 293-295؛ ابن دقماق: المصدر نفسه، ج2، ص249.

39- ابن دقماق: المصدر نفسه، ج2، ص253.

والإطلاع على العلوم، بالرغم من انشغالهما بالفتن السياسية التي لم تترك لهما مجالاً كبيراً للالتفات إلى أمور العلم وحضور مجالسه[40].

وقد تجلّت ميول الأيوبيين العلمية من خلال إكثارهم من بناء المؤسسات التعليمية وتهيئة العلماء والقضاة والفقهاء للنهوض بدورهم التعليمي والديني، ونشر المذهب الشافعي خاصة، والمذاهب السنية عامة في مصر[41]. وقد بدأ هذا التوجه مع السلطان صلاح الدين الذي قام ببناء عدة مدارس، ثم توسّع في عهد خلفائه ورجال دولته الذين ساروا على خطاه[42]، فبلغ عدد المدارس التي أسّسوها في مدينة القاهرة ما يزيد عن اثنتي وعشرين مدرسة أكثرها على المذهب الشافعي.

ولم يقتصر تشييد المدارس في هذه المرحلة فقط على بني أيوب بل تعداه إلى أمراء آخرين مثل الأمير قطب الدين خسرو بن تليل الهدباني، الذي بنى المدرسة القطبية بالقاهرة سنة 570 هـ/ 1175م، ووقفها على الفقهاء الشافعية[43].

وهكذا، انتشرت المدارس ودور العلم في أرجاء الديار المصرية، إضافة إلى المكتبات التي أُلحقت بها، ما أسّس لتطوّر حركة التعليم في مصر عموماً، وفي مدينة القاهرة خصوصاً، في مطلع العصر المملوكي، وهو ما سنحاول تسليط الضوء عليه في هذه الدراسة.

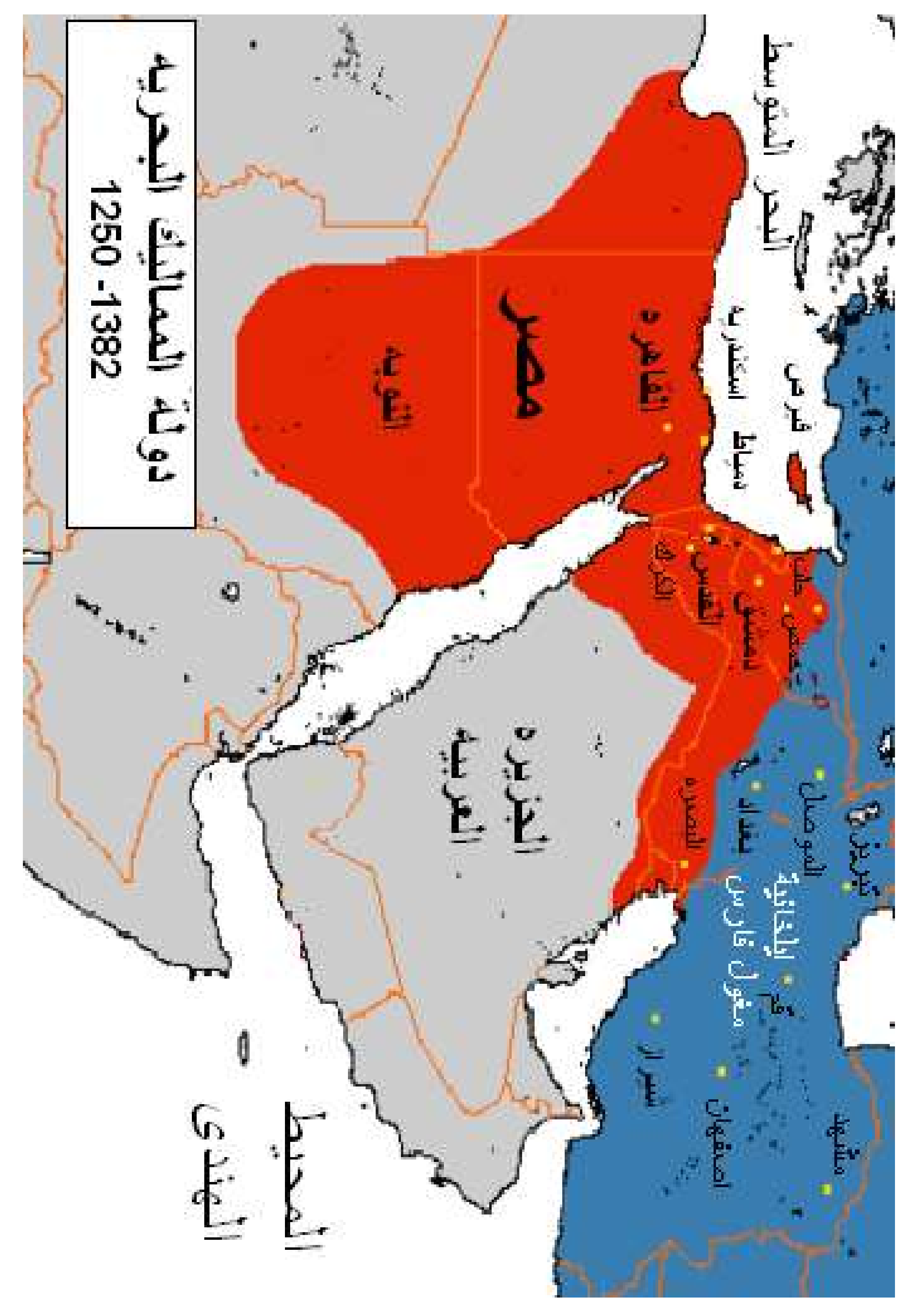
---

[40]- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص228،236؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص55.

[41]- المقريزي: الخطط،ج4، ص ص166-167.

[42]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص200؛ القلقشندي: المصدر السابق،ج3، ص415؛ مغربي، محمود: مدارس القاهرة، ص 12.

[43]- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج6، ص16؛ مغربي، محمود: مدارس القاهرة، ص14.



عن شبكة الإنترنت

الفصل الأول: بنية التعليم الإسلامي في مدينة القاهرة في عصر المماليك البحرية

أولاً: واقع الثقافة في القاهرة المملوكية

انطبعت ثقافة الشعب المصري في العصر المملوكي الأول، بطابع الثقافة الدينية الإسلامية الخالصة التي بدأت تنتشر في العهد الأيوبي، والتي قامت على عقيدة ذات مفاهيم ومبادىء ارتكزت في مُجملها على علوم دينية استمدت روحها وفلسفتها ومصدرها من الفكر الشافعي السّني الإسلامي. وكانت هذه الثقافة في مضمونها على تناقض جوهري مع ثقافة الدولة الفاطمية[44] وعقيدتها الباطنية التي أشاعها الفكر الإسماعيلي، المرتكز على فهم التفكير الداخلي الباطني والروحي للإنسان والتعمق بالمعاني الدفينة للقرآن الكريم من خلال تأويل القرآن الكريم وتفسيره تفسيراً رمزياً[45]، واعتبار أن لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطن، ولكل تنزيل تأويل. وبمعنى آخر، يعتبر أصحاب الفكر الإسماعيلي أن الأعمال اليومية لها وجهان وجه دنيوي ووجه خفي يقع في السموات العلى. وحسب هذا المفهوم فإن أي عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة من صلاة، أو زكاة، أو دعاء له نسخة مشابهة في السماء ذات أبعاد حقيقية أكثر من الأولى وهي نسخة خالدة[46]. وبالتالي، فإنه ما إن يعرف المرء الحقيقة الباطنة حتى تسقط عنه الشكليات الظاهرية، وما إن يفهم المرء الحقيقة الروحانية الكامنة وراء الفرائض الدينية حتى تصبح فريضة القيام بالعبادة العملية (كالحج، والصوم، والدعاء مثلاً) غير لازمة ويصبح الدين مسألة تعنى بالحقائق الباطنية فقط[47].

لذلك، نستطيع القول أن ثقافة العصر الأيوبي ومن بعده المملوكي، لا تعدو كونها ردّ فعل على المنحى العقائدي للدولة الفاطمية، المتناقض مع الفكر الشافعي الذي سيطر على مصر في هذين العهدين. فقد اعتمد بنو أيوب ومن بعدهم المماليك، على تفسير علماء المذهب الشافعي لمفهوم الفلسفة وعلى رأس هؤلاء، أبو حامد الغزالي (1058م- 1111م)، الذي قرّر أن الفلسفة يجب أن تبقي مواضيع اهتماماتها في المسائل القابلة للقياس

---

[44]- شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، ج2، ص ص 158-161؛ Bosworth,C.E: The Islamic Dynasties, P127-128; Hitti, Philip: History Of Arabs, P443-446

[45]- المقريزي: الخطط، ج2،ص261-262؛ النويري: نهاية الأرب، ج26، ص202؛ الشهرستاني: الملل والنحل، ص191-197؛ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ص 169-188؛ مارسيه، جورج: مقالة الإسماعيلية، دائرة المعارف الإسلامية، ص194؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص191؛ ؛ شلبي، أحمد: المرجع السابق، ص ص152-157؛ وجدي، محمد: دائرة معارف القرن العشرين، ص348؛ Hitti,Philip, Ibid, PP 617-624؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص203.

[46]- المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص266؛ ويكيبيديا: الموسوعة الحرة، فلسفة إسلامية.

[47]- المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص265؛ ووكر، بول: الفكر الإسماعيلي في عصر الحاكم بأمر الله، ص102؛ وجدي، محمد: المصدر السابق، ص348- 350؛ ماجد، عبد المنعم: نظم الفاطميين، ص ص 177-190؛ شلبي، أحمد: المرجع السابق،ص ص 152-161.

والملاحظة مثل: الطب، والرياضيات، والفلك، معتبراً أن محاولة الفلاسفة إدراك شيء غير قابل للإدراك بحواس الإنسان منافياً لمفهوم الفلسفة من الأساس. وعليه، فإنه من المستحيل تطبيق قوانين الجزء المرئي في الإنسان لفهم طبيعة الجزء الروحاني والمعنوي. ولذلك، فإن الطريقة المثلى لفهم هذا الجانب يجب أن تتم بوسائل روحانية وغير فيزيائية، ما حدى بالغزالي أن يختار طريق التصوف للوصول إلى اليقين بوجود الخالق. وهذا المفهوم الشافعي للفلسفة أدى إلى انتشار ثقافة التصوف في كل البلاد الإسلامية التي خضعت لحكم المماليك، الذي تبنّى سلاطينه هذه الثقافة وعملوا على نشرها وتمكينها[48].

ومن العلوم التي اجتهد بها أهل السنة لمحاربة الفكر الإسماعيلي والتي واكبت ثقافة التصوف، كان علم الكلام الذي هدف إلى إقامة الأدلة وإزالة الشبه في الإيمان بالله منتقلاً بالمسلم من التقليد إلى اليقين، وإثبات أصول الدين الإسلامي بالأدلة المفيدة.

وتزامناً مع هذا التغيير في الواقع الفكري والثقافي المستجد فيها، نعمت مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول بنشاط علمي لافت ارتكز على العلوم الدينية والدنيوية التي عرفها ذلك العصر، ما جعلها تتصدر الحواضر الإسلامية، وخاصة بعد سقوط بغداد في يد المغول سنة 656هـ/1258م.

وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى الدور الذي لعبته حروب الفرنجة[49] (الصليبية) في مجال النشاط الحضاري والعلمي. فمن المعروف أنه كان لهذه الحروب إيجابيات كبيرة في هذا المضمار، خاصة في فترات الهدن التي شكّلت فرصاً للتبادل الفكري والحضاري بين الفرنج والمسلمين[50]، حتى أن الكثير من الأمراء، والإقطاعيين والتجار، والرهبان الفرنج وجدوا أنه من الخير لهم أن يتعلموا اللغة العربية ويتقنونها[51]. وقد ذكر المقريزي في حوادث سنة 626هـ/ 1229م، أن الأمبرطور فردريك ملك الفرنج – وكان عالماً متبحّراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات – بعث إلى الملك الكامل الأيوبي بعدة مسائل أشكلت عليه في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها الكامل على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي الذي كتب جوابها[52].

48– الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ص 35–55؛ ويكيبيديا: الموسوعة الحرة، الفلسفة الإسلامية.

49– هكذا وردت التسمية عند المؤرخين لتلك الحقبة.

50– تدمري، عمر: الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، ص64؛ شلبي، أحمد: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج2،ص ص61–66؛ Arnold,Thomas:The Legacy Of Islam,P P50-68; Hitti,Philip: History Of Arabs, P659-670

51– تدمري، عمر : المرجع نفسه، ص65–66؛ Arnold, Thomas: Ibid, P 64

52– المقريزي: السلوك، ج1، ص354–366.

وفي رواية أخرى، أن الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، كان يرسل للشيخ كمال الدين ابن يونس، وكان علامة زمانه في العلوم الشرعية وسائر العلوم الأخرى، مسائل في مختلفة يرسلها إليه ملك الفرنج[1].

وعلى صعيد آخر، نلاحظ أنه من خلال حركة الترجمة والنقل لعلوم الأمم المنضوية تحت راية الإسلام، والتي بدأها الخليفة العباسي هارون الرشيد، ومن بعده ابنه المأمون، تسرّبت بعض العلوم الدنيوية الجديدة إلى المجتمع الإسلامي، ابتعدت أهدافها واستعمالاتها عن المنهج العلمي، لتصبح فيما بعد علوماً منبوذة ومكروهة ليس لذاتها فحسب، بل لسوء استعمالها وسوء فهمها من قبل المقبلين عليها، مثل بعض النظريات الفلسفية التي يصعب فيها التمييز بين الحق والباطل فيقع صاحبها في المحظور. ولذلك، أفتى بعض العلماء بتحريم علم الفلسفة ما جعل الطلبة يبتعدون عنه. يقول السيوطي:"كنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك..."[2]، وهذا ما جعل ابن خلدون يقول عن هذا العلم :"هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير..."[3]، ثم يكمل في من انتحله من المسلمين واصفاً إياهم بـ (الضالين)، "...ثم كان من بعده[4] في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب ...وتصفّحها كثير من أهل الملة ...من أضله الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل تفريعها..."[5]. ومن العلوم المنبوذة أيضاً علم السحر والطّلسمات، الذي كان وسيلة لإيقاع الضرر بالناس، فيصبح الشاغل فيه بعيداً عن الله وخارجاً عن الشرع[6]، وأيضاً علم التنجيم، الذي هو بذاته علم مباح ضروري من حيث أنه حساب للشمس والقمر، ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بقوله:"**والشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**"[7] و في آية أخرى"**اَلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ**"[8]. وفي هذا العلم قال الخليفة عمر بن الخطاب:" تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البحر ثم أمسكوا "، عملاً بحديث الرسول (ص):" إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا"[9]. فعلم النجوم

---

[1]- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص376.

[2]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص290.

[3]- ابن خلدون: المقدمة، ص514.

[4]- يقصد به أرسطو.

[5]- ابن خلدون: المصدر السابق، ص515.

[6]- ابن خلدون: المصدر نفسه، ص496-497.

[7]- القرآن الكريم: سورة الرحمن، الآية 5.

[8]- القرآن الكريم: سورة يس، الآية 39.

[9]- أورده الطبراني في المعجم الكبير.

علم معترف به شرعاً ومباح للخلق تعلمه ولكن بشرط أن لا يتعامل معه الناس على أن للكواكب تأثيراً مباشراً على حياتهم وفي الحوادث التي تقع لهم، وأنهم يستطيعون استدراكها وتلافيها بمجرد معرفتها قبل وقوعها، إذ إن:" هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها..."[1]. ما يعني ان ادّعاء العلم فيه قائم على تخمين وليس على قواعد علمية وتجارب ثابتة، وإذا أصاب التوقع فيه أحيانا فمن باب الصدفة وليس من باب العلم[2].

ولقد أضاف ابن حزم الأندلسي علم الكيمياء وثلاثة أصناف من علم الموسيقى إلى العلوم المكروهة والعديمة النفع، والتي اندثرت لقلة فائدتها وعدم جدواها[3].

ثانياً: الحركة العلمية في القاهرة المملوكية

إن الحركة العلمية التي شهدتها القاهرة، في العصر المملوكي الأول، هي حصيلة تراكم المعرفة والثقافة للعصرين الفاطمي والأيوبي اللذين شكّلا حجر الأساس لهذا العصر وبداية تكوين ملامحه الحضارية والعلمية. فلقد تميز هذا العصر بحركة علمية فاعلة، تمثّلت بمظاهر عديدة أبرزها انتشار دور العلم في الحواضر الإسلامية، وعلى رأسها مدينة القاهرة التي غصّت بالعلماء والمتعلّمين على السواء. وعلى الرغم من أن الخطوات الأولى لحركة التعليم في القاهرة بدأت في عهد العزيز بالله الفاطمي ووزيره يعقوب بن كلس، حين أطلقا دروس الفقه الإسماعيلي في جامع الأزهر[4]، ثم تطورت في عهد الحاكم بأمر الله الذي افتتح دار العلم التي شهدت الدروس العامة في مختلف العلوم الدينية والدنيوية القديمة والمستحدثة[5]. إلا أن هذه الحركة بدأت بالفعل مع وصول صلاح الدين الأيوبي إلى الحكم في أواخر العهد الفاطمي، لتنشط فيما بعد في العهد الأيوبي. وبذلك يمكن القول بأن المماليك قد ورثوا عن أسلافهم الفاطميين والأيوبيين إرثاً علمياً تمكنوا من تطويره حتى أصبحوا قائمين على حركة علمية وفكرية رائدة، استطاعت أن تحيي الحضارة الإسلامية بعد أن أخمدها المغول، ساعين

---

[1]- ابن خلدون: المقدمة، ص519.

[2]- ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ص ص 69-71.

[3]- ابن حزم: المصدر نفسه، ص ص 61-62.

[4]- المقريزي: الخطط، ج4، ص52، ص162؛ اتعاظ الحنفا، ج1، ص227؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص87؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 414؛ سيد، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر، ص585؛ عنان، محمد: تاريخ الجامع الأزهر، ص43-44. Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5, p1120

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص379-380؛ المصدر نفسه، ج2، ص56-57؛ القلقشندي: المصدر نفسه، ج3، ص413؛ .Pedersen, Josh, Ibid, T5, p1122

لتصبح حواضر مصر في عهدهم من أهم المراكز العلمية في الدولة الإسلامية، وبالأخص مدينة القاهرة التي حظيت برخاء مادي اقتصادي واستقرار أمني وسياسي استطاع المماليك تحقيقه بقوتهم العسكرية[1].

والراجح أن هذا البعث الجديد للحضارة الإسلامية، وإن اكتملت عناصره التكوينية، لم يكن ليتم لولا حرص المماليك على النهوض بالحضارة الإسلامية وتفعيلها. فلولا دعم المماليك المادي والمعنوي، لما قيّض لمدينة القاهرة أن تحتل مكانتها الحضارية والتاريخية، وأن تلعب دورها الذي تميزت به في عهدهم من خلال ازدهار الحركة العلمية فيها[2]، خاصة في عهد الظاهر بيبرس البندقداري الذي عمل لأهل مصر والقاهرة المدارس والخوانك والزوايا والربط[3]. وقد شرح ابن خلدون سبب النهضة العلمية التي شهدتها هذه المدينة في تلك المرحلة، معتبراً أنها نتيجة الحضارة والعمران فقال:" على قدر الإجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها[4]وأنها تابعة للعمران[5]." فتعليم العلم هو صنعة أو مهنة في نظر ابن خلدون، والمهن عادة تنشط في الدول العامرة التي تتمتع بحضارة وترف، وتلك كانت حال مدينة القاهرة التي كثر فيها العلم وطلبته ومعلموه نتيجة ازدهار العمران، وكثرة المال والغنى الفاحش الذي نعمت به دولة مصر في عهد المماليك البحرية[6]، ما دفع المؤرخ نفسه إلى القول:"...فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذَّرِّ[7]من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوِّه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه...من لم يرها لم يعرف عز الإسلام"[8]. أما المقريزي، فقد وصف ازدهار العمران في هذه المدينة بقوله:"...وتحوي مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط

---

[1]- أنظر القاهرة في كتابات المؤرخين العرب والأجانب عند الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص ص 317-342.

[2]- ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص192-194؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص60؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ص259؛ سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي،ص ص 123-136؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P100

[3]- المقريزي: الخطط، ج4، ص167.

[4]- يقصد مدينة القاهرة.

[5]- ابن خلدون: المقدمة، ص349.

[6]- Bosworth,C.E: The Islamic Dynasties,P66; Berkey, Jonathan: Ibid, P93 ; Maalouf, Amin: Les Croisades Vues Par Les Arabes,P267

[7]- المدرج: الطريق، الذَّرِّ: النمل الأحمر الصغير.

[8]- ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص199.

والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجميلة والمناظر البهجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع والأسواق المملوءة بما تشتهي الأنفس" [1]،

وقبل الدخول في تفاصيل الحديث عن أسباب ومقوّمات الحركة العلمية في عهد المماليك البحرية، وتوخّياً للدّقة والإنصاف، تجدر الإشارة إلى أن بعض أمراء المماليك كانوا على درجة وافرة من العلم وعُدّوا من نخبة العلماء، نذكر منهم على سبيل المثال: الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار (ت725هـ /1325م)، وهو من مماليك المنصور قلاوون، ونائب السلطنة في عهد الناصر محمد، وإليه تنسب المدرسة الدوادارية[2]. كان له شغف بالتاريخ، فصنّف كتابه الأول "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"، والثاني "التحفة المملوكية في الدولة التركية"، كما وضع تفسيراً للقرآن الكريم[3]. وكذلك المؤرخ أبو المحاسن بن تغري بردي (ت1469/874م) صاحب "النجوم الزاهرة"، وموسى اليوسفي (ت759هـ/1358م)، مؤلف "نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"، وعلاء الدين مغلطاي، الذي اشتغل بعلم الحديث ودرّسه في المدرسة الظاهرية بعد وفاة شيخها ابن سيد الناس سنة 733هـ /1333م[4]، وله مصنفات منها:" شرح البخاري " و "إكمال تهذيب الكمال"، وكذلك السلطان حسن بن محمد بن قلاوون الذي كان من كبار العلماء، وكتب بخط يده كتاب "دلائل النبوة" للبيهقي[5] وغيرهم الكثير.

ولقد تنوعت الأسباب التي أدت إلى انبعاث الحركة العلمية، فكانت على نوعين داخلية وخارجية:

1- الأسباب الخارجية

الواقع أن رواج الثقافة والعلوم في مدينة القاهرة المملوكية، والذي ترافق مع قيام المنشآت العمرانية والمعالم الحضارية المبهرة يعود لأسباب خارجية عديدة نذكر منها:

(**1**) **هجرة العلماء إلى القاهرة**: شكّلت مدينة القاهرة مركز استقطاب للعلماء والفقهاء النازحين من العراق والشام هرباً من الخطر المغولي[6]، فوجدوا ضالتهم في مدينة القاهرة التي كانت تنعم بالأمن والأمان، حيث

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج2، ص203.

[2]- تقع هذه المدرسة بخط سويقة العزى خارج القاهرة. المقريزي: السلوك، ج3، ص85.

[3]- المصدر نفسه، ج3،ص85؛ السيوطي:حسن المحاضرة، ج1، ص26؛ العسقلاني: الدرر الكامنة، ج8، رقم 6384؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص4؛ ج9، ص179-190.

[4]- اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، ح3، ص224؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج3،ص18.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص207.

[6]- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري، ص25؛ سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك، ج2، مج3، ص17؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص46؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص917؛ Bosworth,C.E: The Islamic

توفر لهم فيها الكثير من كرم سلاطين وأمراء المماليك الذين أجزلوا الرواتب والأعطيات لهم[1]. وسواء كانت هجرة العلماء إلى القاهرة هرباً من المغول أو طمعاً بالمكاسب، فإن كثير من أهل العلم قصدوا القاهرة، حيث ألّفوا، وصنّفوا، وكتبوا، ودرّسوا، وخطبوا، وتولّوا قضاءها، ونذكر منهم: ابن خلكان الإربيلي، وابن مالك الأندلسي، وابن منظور الإفريقي، وابن خلدون المغربي، والحافظ رشيد الدين النابلسي، والحسن بن محمد النيسابوري، وإمام الدين القزويني وسواهم[2].

(2) سقوط الخلافة العباسية في بغداد وإحياؤها في القاهرة: بعد أن قتل المغول الخليفة المستعصم بالله العباسي وأفراد أسرته[3]، أحسّ المماليك بمصاب المسلمين وقدّروا حاجتهم إلى خليفة لما للخلافة من قيمة معنوية وروحية لهم، ما دفع الظاهر بيبرس إلى إحيائها في مدينة القاهرة فبايع الخليفة المستنصر بالله أبا القاسم أحمد العباسي بالخلافة سنة 659هـ/1261م[4].

ولا يخفى أن الهدف الحقيقي للظاهر بيبرس هو السعي للفوز بثقة وتأييد شعوب الدول الإسلامية، وإضفاء صفة الشرعية الدينية على حكمه من جهة، وظهوره بمظهر المدافع عن الإسلام والمسلمين من جهة أخرى. وبذلك أصبحت القاهرة المملوكية مركز الخلافة الإسلامية، ما زاد من هيمنتها وسلطانها على جميع الحواضر الإسلامية التي دانت لها بالتبعية السياسية والدينية[5] وهو ما يؤكده السيوطي الذي ذكر:"... أن

Dynasties, P149; Cahen, Claude: Orient Et Occident Au Temps Des Croisades: P P197-204; Maalouf , Amin : Les Croisades Vues Par Les Arabes, P254-263

[1]- وكانت عادة السلاطين جلب العلماء من البلاد الشاسعة لنشر العلم واكتساب الفوائد. العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري، ص193؛ الحداد، محمد: المصدر السابق، ص46؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P95

[2]- راجع السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص255 وما بعدها.

[3]- المقريزي: السلوك، ج1، ص501؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ص 276-282.

[4]- ابن دقماق: الجوهر الثمين،ص194؛ القلقشندي: مآثر الإنافة،ج2، ص111-112؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج7، ص 109؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص ص 69-70؛ أبو الفداء: المختصر، ج3، ص 212؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص ص 13-20؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، تحقيق محمد الخطيب ص65؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص138؛ حسن، علي ابراهيم: دراسات في تاريخ المماليك البحرية ،ص 193-195؛ عزالدين، محمد: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك، ص25؛ سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك،ج2، مج3، ص19-20؛ حسن، علي ابراهيم: التاريخ الإسلامي العام، ص475؛ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص39؛ زقلمة، أنور: المماليك في مصر، ص150؛ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص48.

[5]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص138؛ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 366؛ طقوش، محمد: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص92-97؛ مغربي، محمود: مدارس القاهرة في العصر المملوكي، ص20.

مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء..."[1].

2- الأسباب الداخلية

إلى جانب الأسباب الخارجية آنفة الذكر، فإن ثمة أسباباً داخلية اجتماعية، ودينية، واقتصادية، كان هدفها واحداً ألا وهو تحسين صورة المماليك في نظر الناس[2]، لكنها ساهمت بقوة في تنشيط الحركة العلمية في مدينة القاهرة على أسس خاصة بها. فالقاهرة تشغل موقعاً مميزاً وفريداً، جعلها على تماس مع الحضارات الأخرى التي تركت في تراثها العريق بصمات توحي بمدى التطور والتحضر الذي وصلت إليه هذه المدينة من خلال انصهار تلك الحضارات في ساحتها، لينتج عنها حضارة خاصة ذات طابع مميز. وقد ألمح إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته بقوله:"... أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر بما أن عمرانها مستجد وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم"[3]. وقد برز اهتمام المماليك بالعلم من خلال:

(1) **احترام المماليك لأهل العلم**: يقصد بأهل العلم الفقهاء، والمشايخ، وعلماء الدين، والقضاة، الذين اهتم المماليك بهم، وبالغوا في احترامهم وتبجيلهم ورعايتهم[4]، حتى أفردوا لهم مكانة مرموقة في المجتمع وقدّموهم في مجالسهم، واستشاروهم في أمور الدولة وسياستها[5]، وسمعوا آراءهم وشكاويهم، وأجابوا طلباتهم، وأجزلوا لهم الأعطيات والرواتب، وأغدقوا عليهم الخلع والهدايا في المناسبات[6].

والحق أن كل هذا النعيم والاهتمام الذي أحيط به العلماء، كان بهدف كسب ودّهم لأن السلاطين كانوا يخشونهم ويحسبون لهم ألف حساب رغم عدم تمتعهم بأي سلطة رسمية، وذلك بسبب ما

1- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص102.

2- بدوي: أحمد: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية،ص37؛ مهدي، ابراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك،ص31.

3- ابن خلدون: المقدمة، ص434.

4- انظر مثلاً معاملة السلطان الملك الأشرف لقاضي القضاة تقي الدين محمد بن دقيق العيد. المقريزي: السلوك،ج2، ص292.

5- المقريزي: المصدر نفسه،ج1، ص506-507؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج7، ص72؛ ابن اياس: بدائع الزهور،ج2، ص 158؛ مهدي، ابراهيم: المرجع السابق، ص 29-30.

6- يقول ابن خلدون:"...لما دخلتها (يعني القاهرة) كرّمني السلطان و وفر لي الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم ...". رحلة ابن خلدون، ص200.

عرف عنهم من حزم، و ورع، وثبات على الحق، وما اتّصفوا به من التفقه في الدين والعلم، والفقه، والقناعة، والتعقل، والهمّة في الدفاع عن مصالح الرعية، مما جعل لهم تأثيراً كبيراً على العامة[1].

وقد أوردت المصادر الكثير من الأخبار التي تدل على ذلك منها مثلاً امتناع شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام[2]، عن مبايعة الظاهر بيبرس لأنه مملوك للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، حتى جاء من شهد له بخروج بيبرس عن مُلك البندقدار لصالح الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أعتقه[3]. ولعل هذا ما يبرر الارتياح الذي أبداه بيبرس عندما رأى جنازة الشيخ عز الدين، فقال:"ما استقر ملكي إلا الآن"[4]، وذلك لأنه كما يقول السيوطي، كان منقمعاً تحت كلمته لا يستطيع الخروج عن أمره[5]. ومع ذلك لم يفقد العلماء احترام السلاطين، فقد حضر الملك الظاهر بيبرس، وهو معروف بمحبته للعلماء والفقهاء وارتفاع مكانتهم عنده[6]، مرة إلى دار العدل في قضية له مع أحد الأمراء، فقام الناس تعظيماً له، إلا القاضي علاء الدين ابن بنت الأعز الذي أشار له السلطان بعدم القيام[7].

وفي قصةً اخرى، نجد القاضي البكري قد ثار قي وجه السلطان المنصور قلاوون في أحد المجالس، متهماً إياه بالتواطؤ مع الأقباط على المسلمين وتقويتهم، مردداً الحديث الشريف "إن أعظم الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر" فغضب السلطان، وهمّ بقطع لسانه وقتله، لولا أن بادر الأمير طغاي الدويدار وأمسك بيده، وتدخّل القاضيان ابن الوكيل[8] وابن مخلوف[9]، مدافعين عن البكري فتراجع السلطان عن

---

[1]- حسن، علي ابراهيم: التاريخ الإسلامي العام، ص ص 294-296؛ رزق، علاء: دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، ص54-60؛ سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي، ص ص 224-234؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P93

[2]- راجع الحاشية رقم 3، ص156.

[3]- حرص المماليك على ان لا يعتقوا مماليكهم قبل سن البلوغ، فيظل المملوك الذي يدخل الطباق في سن مبكرة عدة سنوات حتى يعتق وفقا لقواعد الشريعة الإسلامية، وإلا يعتبر عتقه لاغيا وأنه ما زال في ملك من اشتراه أو في ملك ورثته مهما بلغت رتبته. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج6، ص 509.

[4]- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج7،ص208؛ السيوطي: حسن المحاضرة،ج2،ص103.

[5]- السيوطي: المصدر نفسه، ج2،ص103. ويبدو أنه للتخلص من سيطرة قاضي المذهب الشافعي،عمد بيبرس إلى تعيين قضاة للمذاهب السنية الثلاثة الباقية إضافة إلى الشافعي وجعل قرارات الدولة الدينية بينهم بالشراكة.

[6]- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ص 271-275.

[7]- السيوطي: المصدر السابق،ج2، ص103.

[8]- ويقال له أيضاً ابن المرحل، وهو العلامة صدر الدين أبو عبد الله محمد بن زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد (ت716هـ).

[9]- زين الدين بن مخلوف قاضي القضاة المالكية.

قراره[1]. كما يذكر ابن بطوطة[2]، أن الملك الناصر محمد بن قلاوون ذكر يوماً لجلسائه أنه لا يخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري[3].

وكثير ما تطالعنا المصادر التاريخية بقصص عن سلاطين وأمراء حملوا سجادة العالم و فرشوها له إكراماً وتعظيماً لمقامه. فنذكر على سبيل المثال أنه يوم افتتاح الخانكاه الشيخونية، قام صاحبها الأمير شيخو بفرش سجادة الشيخ أكمل الدين محمود بن محمود الحنفي ليجلس عليها[4]. ويحكى أن السلطان الناصر فرج دخل يوماً جامع عمرو، وكان الشيخ علي بن أحمد بن أبي بكر في حلقته فجاء إليه فلم يعبأ به ولم يقم له، بل منع طلبته من القيام[5].

(2) **الاهتمام باللغة العربية**: حظيت اللغة العربية وعلومها باهتمام شديد من الدولة المملوكية، وسجلت محاولات مستمرة من قبل السلاطين للتقرب من السكان المحليين من خلال الظهور بمظهر المدافع عن الحضارة العربية ولغتها[6]، وذلك بفتح المدارس لتعليم الناس الأصول والنحو، كما حافظوا عليها لغة الدولة الرسمية على الرغم من أن بعض سلاطين المماليك البحرية كانوا لا يحسنون اللغة العربية ويرطنون بها كالمنصور قلاوون الألفي الذي كان قليل الكلام بالعربية وفصيح اللسان بالتركية[7]، والأمير ألماس الناصري الذي جهل اللغة العربية تماماً[8].

(3) **دور الكتب**: كان من النادر أن توجد في العصر المملوكي الأول ، مدرسة، أو مسجداً، دون أن يكون فيها خزانة للكتب مليئة بالتراث الفكري، تنفع الطلاب والمدرسين، خاصة وأن بعض سلاطين المماليك كانوا مغرمين باقتناء الكتب و المؤلفات في مكتباتهم الخاصة مثل السلطان الملك الناصر حسن

---

[1]- العسقلاني: الدرر الكامنة، ترجمة القاضي البكري رقم 321، ص139-141؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج1،ص342؛ المقريزي: السلوك، ج2، ص495-496؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج4، ص26؛ النويري: نهاية الأرب، ج32، ص161-162.

[2]- ابن بطوطة: الرحلة، ص45.

[3]- قاضي قضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريري.

[4]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص219.

[5]- السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص147.

[6]-كان العرب يعتبرون المماليك مغتصبين للحكم، مما سبب تنافراً بين الطرفين. العيني، عقد الجمان، تحقيق إيمان شكر، ص83؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P93

[7]- ابن تغري بردي: النجوم، ج7، ص325؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج2، ص318؛ Berkey, Jonathan: Ibid, P93

[8]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص180.

ابن الناصر محمد بن قلاوون[1]. ومما يدل على اهتمام المماليك بالعلم، أمثلة كثيرة وردت في أمهات الكتب عن جوامع ومدارس أُلحقت بها مكتبات احتوت على الكثير من المخطوطات والكتب التراثية، مثل: خزانة الكتب بالجامع الحاكم، أسسها الأمير بيبرس الجاشنكير عندما رمم المسجد الذي هدم بعد الزلزلة التي وقعت بديار مصر سنة 702هـ/1307م[2]، وخزانة الكتب في جامع الخطيري ببولاق، الذي بناه الأمير عز الدين أيدمر الخطيريّ سنة 737هـ/1337م[3]، وخزانة كتب الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر في المدرسة الصاحبية[4]، وخزانة كتب المدرسة الناصرية الجديدة[5]، وخزانة كتب الست الجليلة خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد بن قلاوون في المدرسة الحجازية [6]، وخزانة كتب المدرسة الطيبرسية التي شيّدها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري [7].

(4) **المناهج الدراسية وثقافة العصر**: كان عصر المماليك مرحلة تمكين لمذاهب أهل السنة ونشرها بعد أن تعززت من جديد في العصر الأيوبي، ما جعل ثقافة العصر المملوكي ثقافة اسلامية بحتة محورها العلوم الإسلامية فقط. وعلى الرغم من انفتاح المسلمين على الحضارات الأخرى وعلومها، إلا أن الدولة المملوكية لم تسمح بامتزاج الحضارة الإسلامية بالثقافات الأجنبية الغريبة عن الإسلام ما انعكس على طبيعة الدروس التي شهدتها دور العلم، والتي اهتمت بالدرجة الأولى بعلوم الدين الإسلامي المتمثلة بفقه المذاهب الأربعة بالإضافة إلى علوم الحديث، والتفسير، القراءات، والتصوف، وما يتعلق بها من علوم الأدب[8]، واللغة، والنحو، والتاريخ، والأدب[9]. أما العلوم العقلية، كالطب، والهندسة، والكيمياء، والفلك وغيرها، فلم يكن الاهتمام بها بنفس الوتيرة، فيما كانت الفلسفة من العلوم المرفوضة دينياً واجتماعياً، ولم يكن مسموحاً التداول بها في العلن[10].

---

[1]- سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك،ج2، مج3، ص67؛ سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي، ص137.

[2]- المقريزي: الخطط،ج4، ص60؛ النويري: نهاية الأرب،ج32، ص60.

[3]- ويقال له جامع التوبة. المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص115.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص211.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص230.

[6]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص231.

[7]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص231.

[8]- كان الأدب عنصر مهم من عناصر ثقافة ذلك العصر لما له أثر كبير في فهم الدين، ويساعد على تكوين قدرة لغوية، ولذلك كان من مميزات الكثير من علماء ذلك العصر وفقهائه.

[9]- Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5, P1125 ; Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P94

[10]- ابن خلدون: المقدمة، ص514-515؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص29؛ سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي، ص ص 215-220.

(5) **دور العلم**: اهتم سلاطين المماليك كثيراً بانشاء دور العلم وأولها المدارس، حتى أننا لا نكاد نجد سلطاناً مملوكياً إلا وقد أنشأ مدرسة وسماها باسمه، عدا عن الأمراء والنواب والخوندات وأصحاب الثروات. فقد تميز عصر المماليك بتراكم المال والثروة ليس لدى الحكام فقط، بل ولدى الناس والتجار، وذلك نتيجة النشاط التجاري الداخلي والخارجي، مما رفع المستوى المادي للناس وجعلهم في بحبوحة سمحت لهم بإنشاء المدارس ودور العلم بكثرة[1]. وكان من الطبيعي أن تصبح هذه الدور المحور الأساسي للحركة العلمية، كونها المكان الطبيعي الذي تنشأ وتتطور فيه هذه الحركة، مع ما يبذله الطلاب والمدرسون من مجهود علمي، وما يقرر فيها من دروس، أدت إلى تعزيز مكانة العلم في القاهرة وازدهار الحياة الفكرية فيها. وفي ذلك يقول ابن خلدون:" أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون – على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بني أيوب- بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوانق... واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية، وآثارها الجميلة الخالدة"[2].

وقد تنوعت دور العلم حتى شملت جميع فئات الطلاب، فحين كانت المساجد والمدارس- وهي بمثابة الجامعات في العصر الحديث- مخصصة لاستقبال طلاب العلوم الدينية الطامحين للتخرج منها بإجازات الفقه، أو القراءات، أو الحديث أوما سوى ذلك من العلوم، أنشئت أيضاً دور تعليم أخرى مثل الزوايا، والخوانق، والربط، حيث يتلقى عموم الطلاب الدروس الفقهية، ولكن بدرجة أقل من طلاب المدارس المتخصصة. وفي أكثر الأحيان، كانت تلحق بهذه الدور مكاتب لتعليم صغار طلاب المسلمين، وخاصة الأيتام منهم، القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية[3].

---

[1]- الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص ص 379-382؛ مهدي، ابراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص22.

[2]- ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص221.

[3]- Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P94

(6) إختيار المدرّسين: اهتم أصحاب دور العلم في العصر المملوكي بنوعية العلوم التي تقدمها هذه الدور لطلابها. لذلك، عُني هؤلاء باختيار المدرسين والمشرفين على المدارس، وانتقوهم من العلماء المشهورين والفقهاء الأفذاذ المشهود لهم بالفضل، وسعة العلم، وحسن الأخلاق، الذين حملوا بأمانة وإخلاص أعباء النهوض بتراث الأمة وحضارتها، وعرفوا بالجدية في التعليم وعدم السماح لأحد من الطلاب بالتخاذل والقعود عن التعلم[1]. وغالباً ما قام هؤلاء العلماء بالتدريس في المدارس والمساجد، ومنهم من تولى الإمامة والخطابة، أو اهتم بحلقات الوعظ والإرشاد[2].

ثالثاً: مراحل التعليم في العصر المملوكي الأول

عرف التعليم في مدينة القاهرة في العصور الوسطى، المراحل التعليمية نفسها التي نعرفها نحن اليوم والتي تنقسم إلى ثلاث مراحل[3]، يتدرّج الطالب فيها حتى ينهي دراسته، ثم يبدأ مرحلة رابعة تقوم على البحث والتأليف، أو يزاول التعليم وفقاً لاختصاصه، أو ينطلق ليدرس شيئاً من العلوم الدنيوية والعقلية والتي لا يستطيع دراستها إلا بعد أن ينهي المراحل الثلاث الأول[4].

وتنقسم هذه المراحل على الشكل التالي:

1- المرحلة الأولى

مرحلة الكُتَّاب، وهي مرحلة التعليم الأساسي المخصّص للأطفال والأحداث الذين هم دون الخامسة عشر من العمر.

2- المرحلة الثانية

هي مرحلة وسيطة تأرجحت في مستواها بين المرحلتين الأولى والثالثة، ويطلق على طلابها اسم صغار المبتدئين[5]، ومركزها المدارس، الربط، والخوانق، والقبب، وغيرها من الدور التي شهدت الدروس وارتادها الطلاب والمشايخ للتعلم والتعليم، بمستوى قد يتجاوز مستوى الكُتَّاب أحياناً، ليتساوى مع مستوى المدارس

1- روي عن الشيخ أبي حفص عمر بن يعقوب البغدادي أنه كان يخيّر تلامذته بين الاشتغال بالعلم أو الارتحال عنه. الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، ص163.

2- سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي،ص ص 137-162؛ الربيع، محمد : النفقات المالية في دولة المماليك، ص173.

3- قسمها ابن حزم إلى سبع مراحل لكنه لم يبيّن إن كانت هذه المراحل متدرجة متعلقبة أم أنها متداخلة ومترافقة. ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ص ص 61-90.

4- شلبي، أحمد: تاريخ التربية الإسلامية،ج5، ص378-385؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص226.

5- وردت هذه التسمية عند السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص25.

والجوامع بدليل تعريف المقريزي في خططه لبعض الخوانق على أنها مدارس مثل: "المدرسة الخانقاه الجمالية"[1] و"المدرسة الخانقاه الجاولية"[2]، و"المدرسة الخانقاه المهمندارية"[3]، خاصة وقد استلم التدريس فيها نخبة من العلماء الذين عرفوا بغزارة العلم والمستوى الأكاديمي المرموق.

3 - المرحلة الثالثة

مرحلة الجوامع والمدارس، وهي مرحلة التعليم العالي وتنقسم بشكل عام إلى مستويين: التعليم العام الموازي للتعليم الثانوي، والتعليم العالي التخصصي الموازي للتعليم الجامعي[4]. على أن هذه المرحلة وإن كانت بدايتها دائما ترتكز على التعليم الديني، فهي تعود لتنقسم من جديد إلى نوعين من التعليم، التعليم الديني والتعليم الدنيوي.

والواقع أن قطاع التربية والتعليم في العصر المملوكي لم يكن قطاعاً تنظمه الدولة، بل كان حالة ارتجالية شخصية، قامت على مبادرات فردية، وهي بالتالي لم تخضع لقوانين ومناهج تربوية ثابتة تحدد أهداف كل مرحلة[5]. ولذلك، إذا تتبعنا مراحل التعليم، نستطيع أن نستخلص ما يلي:

- أن المراحل التعليمية وإن انقسمت في ظاهرها إلى ثلاث، إلا أن اثنتين منها كانتا أساسيتين وهما مرحلة الكُتَّاب، ومرحلة الجامع أو المدرسة. أما المرحلة الثانية، مرحلة التعليم المتوسط، فتداخلت كثيراً بالمرحلة الثالثة واندمجت فيها لتصبح مرحلة تأسيس لها. وبمعنى آخر كان يستطيع الطالب المتخرج من الكُتَّاب أن يلتحق مباشرة بمدرسة أو جامع دون أن ينتسب إلى خانقاه أو غيرها.

- أن بعض الدور العلمية وخاصة المساجد، كانت تضم في الوقت عينه المراحل التعليمية مجتمعة، كجامع ابن طولون الذي شهد درساً في التفسير ودرساً في الحديث، وآخر في الفقه، إضافة إلى دروس في القراءات، والطب، والميقات[6]، ومكتباً لتعليم أيتام المسلمين وتحفيظهم القرآن الكريم[7]. وكذلك شهد الجامع الحاكم

---

[1]- بناها الأمير علاء الدين مغلطاي الجمّالي على باب زقاق سيف الدولة وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية و ولّى مشيخة التصوف فيها الشيخ عبد الله التركماني الحنفي.

[2]- أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي. المقريزي: الخطط، ج4، ص292.

[3]- بناها بخط جامع المارداني فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل، الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش المهمندار، وأطلق فيها درساً للفقه الحنفي. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص257.

[4]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، ص225؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص380.

[5]- حطيط، أحمد: المرجع نفسه، ص 226؛ عاشور، سعيد: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص433.

[6]- المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص43؛ السلوك،ج2، ص279؛ السيوطي: حسن المحاضرة،ج2، ص220. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص203؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص107.

[7]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص43؛ السيوطي: المصدر نفسه،ج2،ص220.

الدروس نفسها[1]، في حين أن بعض الجوامع اقتصر التعليم فيها على المرحلتين الثانية والثالثة، فانعقدت فيها عدة حلقات تعليمية، تفاوت مستوى التعليم فيما بينها بحسب مستوى المدرِّسين. فمنها ما كان أقرب إلى التعليم الثانوي، ومنها ما كان أكثر عمقاً وأوسع علماً. ومن هذه الجوامع نذكر مثلاً: الجامع الأزهر والجامع العتيق اللذان لم تكن جميع الزوايا التعليمية فيهما بمستوى علمي واحد. فمثلاً زاوية الإمام الشافعي في الجامع العتيق كان يعلم فيها جلّة من العلماء الأعيان، في حين أن الزوايا الأخرى نسبت إلى علماء أقل شهرة وأهمية[2].

– يتبع الانتهاء من المراحل الثلاث للتعليم نيل الإجازات التعليمية النهائية المسماة "إجازة الفتيا والتدريس"[3]، التي يمنحها العالم لطلابه بخط يده، يفيد فيها بأن الطالب المتخرج أصبح قادراً على الإفتاء والتدريس، علماً بأن انتقال الطالب وترفعه من مرحلة إلى أخرى كان يتم بشكل تلقائي، إذ لم يكن على الطالب المترفع أن يتقدم إلى امتحان في نهاية المرحلة التعليمية، أو إلى اختبار أهلية في بداية المرحلة الجديدة.

– كان الفضل الأول في ازدهار أو تدهور أوضاع المؤسسة التربوية يعود للمدرس فيها، ذلك لأن مستواها العلمي يرتبط بسمعة المدرس وبمستواه العلمي[4]. فإذا عرف عن المدرِّس أنه صاحب علم ودراية، نشطت حلقته التعليمية وكثر طلابه، واشتهرت مدرسته أو زاويته، وإذا كان العكس فإن عدد الطلاب يقلّ وتضمحل المدرسة. فمثلاً كانت المدرسة الظاهرية من أهم مدارس القاهرة، وكان يدرّس فيها كبار العلماء، ولذلك كان الطلاب يتنافسون على السكن فيها، وكان يصل هذا التنافس أحياناً إلى المحاكم [5]. في حين نجد أن المدرسة الكاملية:" ... ما برحت بيد الأعيان... حتى ولّي تدريسها صبي لا يشارك الأناسي إلا بالصورة، ولا يمتاز عن البهيمة إلا بالنطق، واستمر فيها دهراً لا يُدرّس بها حتى نُسيَتْ..."[6].

---

[1]– المقريزي: الخطط، ج4،ص60.

[2]– المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص22؛ Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2 ,T5, P1122 ؛شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ج5، ص380.

[3]– Pedersen, Josh : Ibid, P1121؛ سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك،ج2، مج3، ص29.

[4]– حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص225.

[5]– المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص218

[6]– المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص219.

رابعاً: الوقف مورد أساسي في تمويل التعليم في القاهرة المملوكية

تجمع أمهات الكتب التاريخية على دور الأوقاف الإسلامية في تمويل المؤسسات التعليمية في القاهرة في العصر المملوكي الأول[1]. ويعود ذلك من جهة إلى نشاط وازدهار ديوان الأحباس[2] الذي كان يتغذى من عدة مصادر[3]، ومن جهة أخرى، إلى التنافس بين الأمراء، والسلاطين، وأصحاب الأموال، وأعيان المجتمع الأهلي في بناء المؤسسات الخيرية والدور التعليمية من أموالهم الخاصة، الأمر الذي انعكس بشكل إيجابي ومثمر على المجتمع الإسلامي. وقد شهد على ذلك ابن بطوطة حين قال:"...إن أمراء مصر يتنافسون في أفعال الخيرات..."[4]، وذلك في ظل غياب اهتمام الدولة الذي كان لصالح الإنفاق العسكري وشراء الأسلحة وتجهيز الجيوش لمواجهة الفرنج والمغول[5].

ومنذ أن بدأ العمل بنظام المؤسسات التعليمية الدينية في العالم الإسلامي، شكّل ريع الوقف القسم الأكبر من الموارد المالية والمداخيل التي اعتمدت عليها هذه المؤسسات من كتاتيب، وجوامع، ومدارس، وخوانق، ومارستانات وغيرها، لتأمين كافة احتياجاتها من فرش، وأثاث، وكراريس، ومحابر، وكتب، وفي دفع أجور المدرسين، والمعيدين والموظفين، إضافة إلى تأمين كل ما يقدم إلى الطلاب من مصاريف ولوازم مدرسية، وأمتعة، وأطعمة، وكسوة وغيرها[6].

وكان لكل مؤسسة تعليمية شيخ مكلف بالتدريس بها، وله سلطة الإشراف على وقفها وتدبير شؤونها الإدارية والمالية والأكاديمية وما إلى ذلك من أمور تتعلق بانضباط العمل فيها وفقاً لنصوص كتاب الوقف الخاص بها.

1- وهذا أمر معلوم عند المسلمين منذ عصر النبوة، حيث أوقف الكثير من أهل الخير العقارات لتمويل المساجد و مراكز التعليم.

2- يقول القلقشندي أن هذا الديوان تأسس في مصر على يد القاضي الليث بن سعد، ورصد مردوده على طلبة العلم وفي وجوه البر. صبح الأعشى، ج4، ص39؛ في حين يقول المقريزي أنه تأسس في أيام الخليفة المعز لدين الله الفاطمي. المقريزي: الخطط، ج4،ص88؛ ويقول محمد أمين محمد في كتابه، بأن ديوان الأحباس تأسس فيها على يد القاضي الأموي توبة بن نمر، في زمن هشام بن عبد الملك. أمين، محمد: الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر، ص48.

3- القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص530-531؛ أمين، محمد: المرجع نفسه، ص52.

4- ابن بطوطة: الرحلة، ص34.

5- غودفروا: موريس: النظم الإسلامية، ص168؛ مجمع الفقه الإسلامي: دور الوقف في التنمية، ص21.

6- المقريزي: الخطط، ج4،ص200وما بعدها؛ النويري: نهاية الأرب، ج32، ص ص 43-51، غودفروا: موريس: المرجع نفسه، ص165؛ مجمع الفقه الإسلامي: المرجع نفسه، ص42؛ أمين، محمد: المرجع السابق، ص233-275؛ Berkey , Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P94; Cahen, Claude: Les Peuples Musulmans Dans L'Histoire Medievale, P289

1- تعريف الوقف

الوقف، لغة، يعني الحبس أو المنع. وشرعاً هو حبس العين وتسبيل المنفعة. وحبس الشيء ويحبسه حبساً فهو محبوس، واحتبسه وحبّسه أي أمسكه عن وجهه. والحبس مفرد الحبيس، يقع على كل شيء، وقفه صاحبه وقفاً محرماً لا يُوَرَّثْ ولا يُباعْ ولا يُوهَبْ من أرض، ونخل، وكرم، ومستغلّ، يحبس أصله وقفاً مؤبداً وتُسَبَّل ثمرته تقرباً إلى الله تعالى. فالحبس (اصطلاحاً): حبس العين عن تمليكها لأحد من العباد والتصدق بمنفعتها على جهة بر لا تنقطع كالفقراء والمساجد[1]؛ يعني ذلك أن يمنع المالك نفسه من التصرف المؤثّر في غلّة الموقوف ويجعلها في مصرف معيَّن[2]. والوقف أو الحبس، من المبادىء الإسلامية[3] التي تحض على التكافل الاجتماعي بين الناس على قاعدة "أحسن كما أحسن الله إليك"، تواترت على مشروعيته نصوص قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة، وأجمع عليه أكثر الفقهاء، وانتعش في مرحلة دينية تجلّت فيها الروح الإيمانية التي تحكّمت بمشاعر الناس، مما دفع بأصحاب السلطة والأفراد على تحمل مسؤولياتهم تجاه المجتمع، عملاً بالحديث الشريف:"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أوعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[4].

وقد اهتم المماليك بالوقف ونظّموه تنظيماً جيداً، يتفق مع مستوى انتشاره، فأنشأوا له ديواناً خاصاً سموه ديوان الأحباس[5]، وكان من الدواوين المهمة يشبه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وبالرغم من أن الإنفاق على التعليم عن طريق الأحباس بشكل دوري وثابت قد بدأ في عهد العزيز بالله الفاطمي، الذي صرف الرواتب للفقهاء الذين تولوا تدريس الناس الفقه الإسماعيلي في الجامع الأزهر[6]، إلا أنه مع بداية العهد الأيوبي، بدأ صاحب ديوان الأحباس يتولى الإشراف على الجوامع، والمدارس، والدور

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مج2، ص752؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص 1010.

[2]- مجمع الفقه الإسلامي: دور الوقف في التنمية، ص16-17؛ أمين، محمد: الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر ، ص10؛ حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج1،ص425؛ Cahen, Claude: Ibid , P287-306

[3]- بالرغم مما أثر عن النبي (ص) وعن صحابته والتابعين من صدقات وأوقاف حبسوها على وجوه البر، فقد اختلف العلماء حول قضية الوقف، فبينما أجازه البعض، وجد آخرون أن فيه قطع للمواريث ومحاربة للفرائض. حسن، ابراهيم: المصدر نفسه، ص426.

[4]- ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه - كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

[5]- تأسس هذا الديوان في مصر على يد الفقيه والإمام الليث بن سعد(ت175هـ)، ورصد مردوده على طلبة العلم وفي وجوه البر. القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص39؛ المقريزي: الخطط، ج4،ص88.

[6]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص52، ص162؛ اتعاظ الحنفا، ج1، ص227؛ النويري: نهاية الأرب، ج30،ص87؛ القلقشندي: المصدر نفسه، ج3، ص414؛ سيد، أيمن: الدولة الفاطمية في مصر، ص585؛ عنان، محمد: تاريخ الجامع الأزهر، ص43-44؛ Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5,p1120

التعليمية وعلى الغلال المحبوسة عليها[1]، كما تولى عملية توزيع الهبات والأعطيات على الفقراء والمساكين. وما لبث قطاع الوقف أن تطوّر حتى بلغ أوجه في عهد الظاهر بيبرس مع الصاحب بهاء الدين بن حنا[2]. و من الضروري هنا أن نشير إلى أن ناظر الوقف لابد وأن يكون قاضياً متعمماً، عارفاً بالحساب ومضطلعاً بالكتابة ليستطيع القيام بمهامه[3]. ورغم ذلك، فقد عيّن السلطان محمد بن قلاوون أحد عتقاءه ليكون ناظر الوقف في مدرسته، وجعل النظر من بعده لعتقائه الأجدر فالأجدر، فإن عدموا يتحول النظر إلى أحد عتقاء والده، فإن عدموا فلحاكم المسلمين[4].

2- أنواع الوقف:

تنوعت الأوقاف التي حبسها المماليك للمنشآت العلمية والدينية خارج إطار الزكاة المفروضة، فرصدوا الخانات، والضياع، والبساتين، والحوانيت، والمعاصر، والطواحين، والمخازن، والمحاصيل الزراعية، والحمامات، وكل ما كان له مردود مادي قادر على تحمل كافة مصاريف المؤسسة المرصود لها، ويؤمن كافة احتياجاتها[5].

وعلى هذا الأساس، تكون الأوقاف هي التي موّلت المؤسسة التعليمية الإسلامية وساعدت على انتشارها، ومكّنتها من القيام بدورها التثقيفي والتعليمي، وبدونها لم يكن من الممكن لها أن تستمر وتتطور، خاصة وأن التعليم لم يدخل في السياسة العامة للدولة المملوكية واستراتيجيتها، بل بقي على عاتق الأشخاص وقدراتهم المالية واندفاعهم[6]. يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزي عن مدارس مملوكية أنشئت لكنها لم تشهد الدروس ولم يكن بها مدرسين ولا طلبة كمدرسة المحلي[7]، والمدرسة المعزية الخروبية[8] التي مات صاحبها قبل أن يوقف لها ويعيّن المدرسين ويسجّل الطلبة فيها، فبقيت خالية من أي نشاط تعليمي حتى هدمها ذريته في سنة أربع عشرة وثمانمائة[9].

---

[1]- أمين، محمد: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص62 وما بعدها.

[2]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج11، ص252-253؛ حسن، علي إبراهيم: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص25؛ Cahen, Claude: Les Pruples Musulman Dans L'Histoire Medievale , P297

[3]- المقريزي: السلوك، ج4، ص133-134؛ Cahen, Claude: Ibid, P298

[4]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص48.

[5]- بلغت الأراضي المحبوسة على المدارس والجوامع والزوايا في مصر قرابة منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر ميلادي، مائة وثلاثين ألف فدان من الأراضي الزراعية عدا عن البيوت والأسواق والقياسر والمعاصر وغيرها. عاشور، سعيد: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص448؛ الربيع، محمد: النفقات المالية في دولة المماليك الجراكسة، ص174؛ Cahen, Claude: Ibid, P297

[6]- سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك، ج2، مج3، ص ص 63-66؛ أمين، محمد: المرجع السابق، ص240.

[7]- أنشأها رئيس التجار برهان الدين ابراهيم بن عمر المحلي ولكنه لم يعين فيها طلبة ولا مدرسين. المقريزي: الخطط، ج4، ص 209.

[8]- بناها عز الدين محمد بن أحمد الخروبي. المقريزي: المصدر نفسه ج4، ص210.

[9]- المقريزي: الخطط، ج4، ص245.

وبناء عليه فلقد كانت الأحباس في عهد الدولة المملوكية على ثلاثة أنواع[1]:

(1) **النوع الأول**: يعرف بالأحباس أو الأوقاف العامة. وكان هذا النوع تحت إشراف السلطان شخصياً، وأحياناً نائبه، في حين كان أمر النظر فيه بيد الدوادار الكبير، يعاونه مشرف يسمى ناظر الأحباس، وهي وظيفة عالية المقدار. وكان ريع هذا النوع يصرف على مصالح المساجد والزوايا[2].

(2) **النوع الثاني**: يعرف بالأوقاف الحكيمة، ويشرف على تنفيذها بشكل مباشر"ناظر الأوقاف"، وهو قاضي قضاة الشافعية. وهذا النوع فيه ما يحبس على الحرمين الشريفين وعلى الصدقات، والأسرى، كما كان يصرف منه لأهل العلم والفقراء الشيء الكثير.

(3) **النوع الثالث**: يقال له الأوقاف الأهلية أو الخاصة: يرصده الأشخاص من أموالهم الخاصة في سبيل عمل الخير. وفي هذه الحالة، كان يحق لصاحب الوقف، بموجب الشرع، أن يشرط ما يشاء من شروط يدرجها في كتاب الوقف، ولا يجوز إهمالها، إلا إذا كانت تتعارض مع الشريعة الإسلامية. وكان لهذا النوع ناظر خاص يكون من أولاد الواقف أو أحد أزلامه[3].

3- دور الوقف في حركة التعليم:

اهتم المماليك بالوقف ونظّموه تنظيماً جيداً يتفق مع مستوى انتشاره وشيوعه من خلال ديوان الأحباس[4] الذي أصبح في عهد الظاهر بيبرس من أهم الدواوين في الدولة المملوكية، خاصة وأن مردود الوقف كان كبيراً ويعود بالخير الكثير على المؤسسات الدينية- التعليمية ودور العلم في كافة الدول الإسلامية الخاضعة للنفوذ المملوكي[5].

فقد شاع في ذلك العصر، أن يقوم السلاطين، والأمراء، ورجال الدولة، وأصحاب المال والسلطة، وزوجاتهم، وأبناءهم، بتشييد العمائر الدينية والصروح العلمية، وأن يرصدوا لها الأوقاف الكافية لها من أموالهم الخاصة، لضمان استمرارها في القيام بمهامها، دون أن تحتاج أية مداخيل أخرى. والواقع أن هذه المبادرات،

1- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص88؛ أمين، محمد: الأوقاف و الحياة الاجتماعية في مصر، ص ص107-123؛ Cahen, Claude: Les Peuples Musulmans Dans L'Histoire Medievale, P289

2- القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص39؛ حسن، علي إبراهيم: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص255.

3- ساعد هذا النوع من الأوقاف المماليك في حفظ بعض ثرواتهم لورثتهم حيث كان الواقف يشترط أن يكون أحد أولاده ناظر الوقف، ما يسمح له بالتالي في الاحتفاظ ببعض مدخول الوقف. Berkey, Jonathan: Modes De Transmissio de La Culture Religieuse En Islam, P95

4- القلقشندي: المصدر السابق، ج11، ص252؛ حسن، علي إبراهيم: المرجع السابق، ص254.

5- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص89؛ Cahen, Claude: Ibid, P289

وإن دخلت في إيطار الأعمال الخيرية والتقرب إلى الله تعالى، أو كوسيلة لتخليد الذكرى، لكنها من ناحية أخرى كانت وسيلة لتهريب الأموال، والتأمين عليها من غدرات الزمن. فكثير ما كان السلاطين والأمراء يتعرضون لانقلابات تنتهي بالقتل أو النفي، وكان ينتزع مالهم منهم، فيحرم منه أولادهم وورثتهم. لذلك، قام سلاطين وأمراء المماليك على وقف ثرواتهم لصالح أبنائهم، فلا يتم تجزئة الثروة بل تبقى على حالها ويصار إلى توزيع مدخولها على الورثة بما يتناسب مع الشريعة الإسلامية[1]. وفي ذلك قال ابن خلدون[2]:"...وإن استفضل الريع شيئاً عن ذلك، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذرية الضعاف من العيلة[3]...".

ومهما كان السبب الذي لأجله نشطت حركة الوقف في العصر المملوكي الأول، فمن الواضح أنها كانت صاحبة الفضل في النهوض بالحركة العلمية، وتأسيس عدد كبير من دور العلم، مما جعل مدينة القاهرة مدينة العلم والنور بحق، خاصة أنها كانت مقراً للسلاطين ومركز القوة والبأس ومنارة العلم ومحط أنظار كل المسلمين وآمالهم.

ولم يقف دور الوقف في نشاط الحركة العلمية عند تشييد العمائر الدينية وبنائها فقط، بل تعدى ذلك حتى شمل كل نشاطات ومهام هذه الدور وغطى جميع نفقاتها وتكاليفها المالية، ومنها رواتب المدرسين والعاملين فيها وإعاشة الطلبة. فلقد أجاز الفقهاء الوقف على المدرسين والعلماء واعتبروه وجهاً من وجوه البر، يعادل الجهاد في سبيل الله، استناداً إلى أحاديث نبوية عديدة وضعت مرتبة العلم والعلماء في مرتبة الجهاد والشهداء كقوله (ص) :"يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء".

وبناء عليه، أصبحت النفقة على العلماء من مصاريف الوقف المستحقة، وهذا طبعاً ما ينطبق على طلبة العلم في المدارس والجوامع ودور العلم الأخرى[4].

والواقع أن الريع الذي كانت تغلّه الأوقاف على المؤسسات التعليمية شهرياً أو سنوياً، نقداً أو عيناً، شكّلت الضمان الوحيد لاستمرار عمل هذه المؤسسات حيث كانت تدفع منه كامل مستحقاتها حسب

---

[1]- حسن، علي إبراهيم: دراسات في تاريخ المماليك، ص25؛ شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج6، ص207؛ التربية الإسلامية، ص ص 378-373؛ أمين، محمد محمد: الأوقاف و الحياة الاجتماعية في مصر، ص69-90؛ سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ج2، مج3، ص30؛ غودفروا، موريس: النظم الإسلامية،ص169؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P95 ; Cahen, Claude: Les Peuples Musulmans Dans L'Histoire Medievale, P294,305

[2]- ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص221.

[3]- تعني الفقر والفاقة.

[4]- أمين، محمد: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص236؛ الربيع، محمد : النفقات المالية في دولة المماليك، ص ص 172-175؛ Cahen, Claude: Les Peuples Musulmans Dans L'Histoire Medievale, P296

شروط الواقف. وبدون الأوقاف، لم يكن من الممكن لأي مدرسة، أو جامع، أو مكتب، أو خانقاه، أو مارستان أن يقوم بمهامه. وهذا ما أشار إليه المقريزي أكثر من مرة في حديثه عن بعض المدارس في كتاب "الخطط" بقوله :"...ولولا ما يتحصل للفقهاء من الوقف لدثرت..." وهذا يعني أن المؤسسة غالباً ما كانت تعيش بمعيشة صاحبها يرعاها ويكفلها ويعنى بشؤونها، فإذا مات ساءت إدارتها[1] وتلف حالها ولحقها البوار[2] فتغلق وتتلاشى[3] أو يستلمها من ليس أهلاً للتدريس[4].

وكثير ما قام بعض سلاطين المماليك وأمرائهم الطامعين بالانتقام من أسلافهم، بالتعرض إلى مؤسساتهم والعبث بأوقافها، وتجييرها لصالح أشخاص أو مؤسسات تابعة لهم. ففي سنة 825هـ/ 1422م، قام السلطان الأشرف برسباي الدقماقي بالاستيلاء على وقف المدرسة القمحية، وأنعم به على مملوكين من مماليكه[5]، كما قام الأمير جمال الدين يوسف الأستادار، بأخذ أوقاف مدرسة أم السلطان التي بنتها خوند بركة، وألحقها بمدرسته التي أنشأها برحبة باب العيد[6].

وفي بعض الأحيان كان بعض أصحاب النفوذ يضعون يدهم على ممتلكات المدارس، فقد أورد المقريزي في كتاب " السلوك" أن محتسب القاهرة ناصر الدين فاز السقوف أقام عنوة في إحدى غرف التدريس في المدرسة الصلاحية المجاورة للإمام الشافعي، فأخرجه منها الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الذي استقر للتدريس فيها[7]، وفي سنة 665هـ/1267م، انتزع الأمير عز الدين أيدمر الحلّي، أوقافاً كثيرة للجامع الأزهر من يد مغتصبيها، وأعاد حق الانتفاع بها إلى الجامع المذكور[8].

وفي حالات أخرى كان ناظر الوقف يسيء الأمانة ويتصرف بالوقف على هواه ووفق ما يراه من "التسوية والتفضيل"، بما يخالف وصية الواقف، ما قد يثير نقمة الناس ويؤدي إلى التناحر والتحاسد بين

---

[1]- كالمدرسة الناصرية الجديدة، التي استلم النظر في أوقافها الطواشي عنبر اللالا، فأساء التصرف والأمانة ولم يتقيّد بشروط واقفها الناصر محمد بن قلاوون، فأخفى كتاب الوقف وتصرف من رأيه. النويري: نهاية الأرب، ج32، ص33-34.

[2]- كالمدرسة الجمالية التي انطفأت وتلاشى أمرها لسوء الناظرين فيها، ما عطّل الدروس وحضرات التصوف و صارت منزلاً يسكنه من ينسب إلى الفقه ولا ينتمي إليه. المقريزي: الخطط، ج4، ص246.

[3]- كالمدرسة المنكوتمرية التي استلم النظر فيها القضاة الحنفية فلم يحسنوا العمل فيها فأقفلت. المصدر نفسه، ج4، ص238.

[4]- كالقبة المنصورية التي بعد أن تلاشى وقفها، استلم التدريس فيها صبيان لا يمتلكون الأهلية في التعليم، بعد أن كان يدرس فيها أكابر الفقهاء. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص227؛ النويري: المصدر السابق، ج32، ص43.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص201.

[6]- المقريزي: السلوك، ج4، ص357.

[7]- المقريزي: الخطط، ج4، ص15.

[8]- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص42.

الطلبة[1]. ففي سنة 721هـ /1321م، احتج فقهاء زاوية الإمام الشافعي في الجامع العتيق، بأن الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصاري، قد استولى على الوقف وخصّ نفسه بأكثره، فأقاله السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعيّن مكانه قاضي القضاة الشيخ بدر الدين محمد بن جماعة[2].

ويُروى أن السراج البلقيني طلب من ناظر وقف المدرسة الكاملية سكناً بعد أن التحق فيها فلم يعطه. فاتفق أن جاء أحد الشعراء بقصيدة يمدحه فيها، فقال له لقد حفظتها فإن أعدتها عليك تعطيني بيتاً، فقال الناظر وهو كذلك، فأنشده إياها كاملة فلزم الناظر وعده[3].

وكانت كتب الوقف، إضافة إلى شروط المتعلقة بالأمور المالية والإدارية وتحديد الحقوق وتعيين الموظفين وغيره، تهتم وفق رغبة الواقف بتحديد الصفات الجسدية والمقومات العلمية الواجب توافرها في المدرسين، والمعيدين، والطلاب، وأعدادهم ومذاهبهم، كما كانت تعين أوقات التدريس وساعاته، وأيام العطل، إضافة إلى مواد التدريس وكل التفاصيل الأكاديمية والإدارية الأخرى[4].

---

[1]- ابن الحاج: المصدر نفسه ج2، ص128، النويري: نهاية الأرب، ج32، ص47؛ عاشور، سعيد: بحوث ودراسات، ص448.

[2]- النويري: المصدر نفسه، ج33، ص20.

[3]- السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص79.

[4]- أمين، محمد محمد: الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر، ص ص232-275 .

الفصل الثاني: مؤسسات التعليم الديني في القاهرة المملوكية

أولاً: الكُتَّاب، تعريفه وأنواعه

1- تعريف الكتّاب

عرّف ابن منظور في لسان العرب "الكُتَّاب" أو " المكتب"، بأنه موضع تعليم الكتاب[1] فهو المكان المخصص لتعليم القراءة والكتابة، ومنها اشْتُقَ الاسم، وهو أول أنواع مؤسسات التعليم وجوداً، إذ يعود ظهوره إلى ما قبل الإسلام[2].

وفي العصر الإسلامي، أصبح الكتّاب من أهمّ الدور التعليمية وأوسعها انتشاراً في البلاد الإسلامية، خاصة بعد أن اتسعت رقعة الدولة وأصبحت دواوينها بحاجة إلى الكتبة والمتعلمين، ما دفع الناس إلى تعليم أولادهم القراءة والكتابة سعياً وراء الوظيفة والمكانة الاجتماعية.

أما في عصر المماليك، وقد عرفوا دور الكتّاب وأهميته، شكّل هذا الأخير مرحلة التعليم الأساسي في ذلك الوقت، خاصة وقد اتّسع نطاق التعليم فيه، فأصبحت دروسه تشمل إلى جانب حفظ القرآن الكريم، دروساً في اللغة، والأدب، والحساب[3]، إضافة إلى ملاحظتها الآداب العامة والتوجيه الأخلاقي الذي اعْتُبِرَ جزءاً أساسياً من التعاليم الدينية[4].

وفي بدايتها، كانت الكتاتيب عبارة عن غرفة في منزل المعلم يستقبل فيها طلابه[5]، ومن ثم أخذت تستقل في عمارتها، لتصبح في العصر المملوكي وحدة معمارية مستقلة، أو جزءاً من وحدة أكبر تحوي إضافة إلى الكتّاب، مدرسة، أو خانقاه، أو الإثنين معاً، ما عدا المسجد. ذلك لأن تعليم الأولاد في المساجد كان مخالفاً لوصية الرسول (ص)، لأنهم يسوّدون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات[6]. وبالرغم من ذلك، فإن

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص193؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص796.

[2]- Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5, P1119

[3]- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص39؛ ذكر ابن الحاج أن بعض المسلمين كانوا يرسلون أولادهم إلى مكاتب النصارى لتعلم الحساب. المدخل، ج2، ص459.

[4]- Pedersen, Josh, Ibid, P1119. أفرد الكثير من علماء المسلمين أجزاء هامة من مؤلفاتهم للبحث في موضوع آداب أهل العلم وأخلاقهم كالغزالي، وابن جماعة، و الخطيب البغدادي وغيرهم.

[5]- شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص46.

[6]- عن مكحول عن معاذ بن جبل قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم، ورفع أصواتكم وسل سيوفكم، وبيعكم وشراءكم، وإقامة حدودكم.

بعض المساجد شهدت فعلاً تعليم الصبيان، أو ألحقت بها الكتاتيب[1]. فقد أورد كل من ابن بطوطة وابن جبير في رحلاتهما شواهد عن مساجد شهدت تعليم الأولاد، كما يحدثنا ابن القفطي عن زيارة له إلى صعيد مصر، فيقول:"نزلنا بمسجد فيه رجل مغربي يعلم الصبيان...وأخذت لوحاً من ألواح الصبيان ...ولما حضر الصبيان إلى الكتاب بكرة النهار..."[2].

وبشكل عام، كانت الكتاتيب تقام في أماكن غير بعيدة، متسعة، تقع في الدروب المأهولة بالسكان وأطراف الأسواق دون أن يكون فيها ما يشتت انتباه الصبيان، ويراعى في اختيارها الشروط الشرعية والاجتماعية والخلقية[3]. وكانت الكتاتيب عبارة عن حجرة كبيرة روعي فيها إعطاء كمية كافية من الضوء الطبيعي عن طريق تنظيم فتحات كبيرة معقودة في حيطانها الخارجية، وغالباً ما يكون فيها خزانة بالحائط لحفظ الكتب. وعادة ما كان يلحق بالكتاتيب سبيلاً للماء، لذلك أطلق على الكتّاب في كثير من أمهات الكتب اسم "مكتب السبيل"، كما يلحق بها حوض لشرب الدواب[4].

والتعليم في الكتّاب من مسؤولية المعلم[5] أو المؤدب[6]، الذي يجب أن يكون صحيح العقيدة، متزوجاً، حسن السلوك، طيّب السمعة، من أهل العفة والأمانة، ثابت الأهلية، قادر على ضبط الأولاد بالحسنى، غير متشدد، يراعي حاجة الولد إلى الراحة واللعب بعد انتهاء الدرس[7] " ... حتى يروِّح عن نفسه ولا يرهق من التعلم فيموت قلبه ويقل ذكاؤه وينغّص عيشه.."[8].

وقد تمتّعت وظيفة المؤدب في العصور الإسلامية بمكانة مرموقة وباحترام كبير ما جعلها محط طموح عدد كبير من العلماء والفقهاء بالرغم من تمنع بعضهم عن القبول بها وامتهانها[9].

---

[1]- كانت الكتاتيب العامة الخاصة بالأيتام والفقراء تقام في المساجد. حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص222.

[2]- ابن القفطي: أخبار الحكماء، ص167.

[3]- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص457؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص53.

[4]- لمعي، مصطفى: التراث المعماري في مصر، ص29؛ Jomier, J: Article Al- Kahira , EI2, T4,P455

[5]- اقتصر لفظ معلم على كل مدرّس تخصص في علم الصغار، بالرغم من أن ابن خلدون قد أطلقه على كل متخصص في علم أو صنعة حرفية. مراد، يحيى: آداب العالم والمتعلم، ص13.

[6]- استعمل لفظ المؤدّب لمدرّسي أولاد الملوك والسلاطين. وقد عرّف الجاحظ المؤدب بقوله:" اشتق المؤدب من الأدب، والأدب إما خلق أو رواية، ولقد أطلقوا كلمة مؤدّب على معلمي أولاد الملوك إذ كانوا يتولون الناحيتين معاً". شلبي، أحمد: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج5، ص58 نقلاً عن رسالة المعلمين للجاحظ. أما ابن حزم، فقد استعمل لفظ مؤدب بمعنى معلم أو مدرس فقال: مؤدب نحو ومؤدب حساب، ...ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ص72.

[7]- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص65.

[8]- ابن الحاج: المصدر السابق، ج4، ص463.

[9]- شلبي، أحمد: موسوعة النظم و الحضارة،ج5، ص61.

وكان للمؤدب مساعد يسمى"العريف" يساعده في ضبط الطلاب وتحفيظهم وينوب عنه في غيابه[1].

أما فيما يتعلق بالطلاب، فنجد أن الكتاتيب قد خصصت للأولاد والبنات[2] الذين أتموا الخمس سنوات[3]، حتى سن البلوغ أي الخامسة عشرة[4]. وبالرغم من ورود بعض الحالات التي يكون فيها الطالب تحت الخمس سنوات[5]، إلا أنه كان يمنع منعاً باتاً أن يبقى في الكتّاب من هو فوق الخامسة عشرة إلا فيما ندر من الحالات كأن يكون الطالب لم ينه بعد حفظه للقرآن الكريم غيباً فيخشى إن هو غادر الكتّاب أن يتلكأ في إكمال هذا الواجب، أو في حالات أخرى يشترطها الواقف في كتاب الوقف. ولذلك، غالباً ما كان صاحب الكتّاب يعتمد الكشف الطبي لمعرفة من بلغ من الطلاب، ليصار إلى إخراجه من الكتّاب وإبداله بولد آخر، إذ إن عدد الطلاب في أكثر الكتاتيب كان محدوداً جداً ومرتبطاً بقدرة صاحبه المالية[6].

وقد وضعت للكتاتيب الشروط والقراعد التي تضمن انتظام الدراسة فيها، وتراقب عمل المؤدبين، وتحدد مدة الغياب، كما تحدد شروط القبول والإنتساب .

2- أنواع الكتاتيب

كان ثمة ثلاثة أنواع من الكتاتيب في القاهرة المملوكية[7]

(**1**) **الكتاتيب الخاصة**: يقيمها من يجد في نفسه القدرة على التعليم والتأديب، ويتم فيها تعليم أولاد الطبقة الثرية لقاء أجر يدفعه أهاليهم. وكان هذا النوع من الكتاتيب يقوم في منازل المدرسين، حيث خصص هؤلاء حجرة خاصة في منازلهم لاستقبال الأولاد. وعلى الأرجح، فقد حافظ هذا النوع من الكتاتيب على استقلاله عن النوع الثاني، فاختص بتعليم الأولاد الخط والكتابة، واللغة، إضافة إلى دروس الحساب التي

1- Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5,P1119

2- شدّد ابن الحاج على مدرّس الكتّاب أن لا يسمح لصبي في المكتب أن يحمل زميلاً له أصغر منه في السن صبياً أكان أم فتاة، وبالأخص إذا كان الصغير فتاتاً. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن بعض الكتاتيب قد قامت بتعليم الفتيات. ابن الحاج: المدخل، ج2، ص463؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P 408

3- بالنسبة إلى ابن الحاج يجب أن يتم الأولاد السبع سنين وهو العمر الذي يكلّف به الصبي بالصلاة شرعاً. المصدر نفسه،ج2 أما ابن حزم الأندلسي، فيقول بأن تعليم الوالد لأبنائه يجب أن يبدأ منذ اول اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به وقوتهم على رجع الجواب، وذلك يكون في خمس سنين من مولد الصبي. ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، ص65.

4- ابن الجوزي، عبد الرحمن: الحث على حفظ العلم، ص17؛ صيد الخاطر، ص162.

5- أورد ابن الحاج أن بعض طلاب الكتاتيب كانوا تحت السبع سنين ومنم من كان بعمر السنة. المصدر السابق،ج2، ص459

6- شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص48.

7- المقريزي: الخطط،ج3،ص163؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص222؛ عز الدين، محمد: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة، ص29-30؛ شلبي، أحمد: المرجع نفسه، ص54.

على ما يبدو اختصت بها كتاتيب النصارى. فقد ذكر ابن الحاج في كتاب "المدخل" مستنكراً، أن بعض المسلمين كانوا يلحقون أولادهم بكتّاب النصارى لتعليمهم الحساب قبل أن ينهوا تعلم مبادئ الدين الاسلامي [1].

(2) **الكتاتيب العامة**: يقيمها أصحاب الأيادي البيضاء من سلاطين وأمراء وغيرهم ليتعلم فيها أيتام المسلمين والأطفال المعدمين القرآن الكريم والحديث الشريف، ومبادئ الدين الإسلامي على أن يتركوها حالما يستطيعون العمل والكسب. وقد وفّر هذا النوع من الكتاتيب التعليم والرعاية الاجتماعية لأبناء الأسر الفقيرة بحيث يحظى أبناؤها بما يحظى به أبناء الأسر الميسورة. وغالباً ما كان هذا النوع من الكتاتيب، يشكل جزءاً من وحدة معمارية تضم مدرسة أو جامعاً أو غير ذلك[2].

(3) **كتاتيب القصور**: جرت العادة أن يقوم الخلفاء والسلاطين المسلمين بترتيب تعليم خاص لأولادهم في قصورهم، وكانت هذه المهمة توكل إلى كبار العلماء القادرين على قولبة الأمير أو ولي العهد، بما يتناسب مع حجم المهام والمسؤوليات المستقبلية التي ستلقى على كاهله حين يتولى السلطنة أو الخلافة. وغالباً ما كان الآباء يشاركون في وضع الأسس والمناهج التعليمية والأخلاقية التي سيتبعها المؤدب مع الأمير الصغير، الذي كان يخضع لتعليم عام يصل إلى مستوى التعليم العالي في المسجد أو المدرسة[3]. وقد بدأ هذا النوع من التعليم في مدينة القاهرة منذ تأسيسها في قصور الفاطميين[4]، ومن بعدهم في قصور الأيوبيين[5]، ومن بعدهم قصور المماليك التي كانت أحياناً تضم إلى جانب الأمراء، مماليك السلطان الصغار، فيتأدبون ويتلعمون معهم في مكتب القصر ولا ينزلون الطباق. على سبيل المثال، نجد أن الأمير أرغون الدوادار ربيب المنصور قلاوون ومملوكه، تربى مع الناصر محمد في كنف السلطان وتعلم معه[6]، وكذلك الأمير سيف الدين كوندك الساقي الذي تربى مع السلطان السعيد بركة بن بيبرس وتعلم معه في الكتّاب[7]، كما ورد عن بزلار بن عبد الله العمري،

---

[1]- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص466.

[2]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك السياسي و الحضاري، ص222

[3]- Hitti, Philip: History Of Arabs, P 409 ؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص60.

[4]- أنظر الصفحة السادسة من المدخل والفصل الأول.

[5]- لما أراد الملك العادل تنحية الملك المنصور ابن العزيز عثمان من الحكم، وكان عمره تسع سنين، أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم:"...الرأي أن يمضي هذا الصبي إلى الكتّاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه...". المقريزي: السلوك، ج1، ص265.

[6]- العسقلاني: الدرر الكامنة، ج1، ص350.

[7]- العريني، السيد الباز: المماليك، ص95.

وهو من مماليك السلطان حسن، أنه تربى مع أولاد السلطان فتأدب معهم وكتب الخط المنسوب[1]. وحين قدم بيبرس المنصوري صاحب التاريخ إلى مصر سنة 659هـ/1261م، اشتراه الأمير سيف الدين قلاوون وأنزله في بيته وألحقه في الكتّاب الخاص بتعليم أولاده[2]، أما الأمير بيبرس الركن العلائي فقد نشأ بعد وفاة والده تحت وصاية زوج أمه الأتابك أزبك بن ططخ الذي استدعى له مربياً خاصاً لتعليمه وإقرائه القرآن الكريم[3]، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أحمد بن برسباي الشهابي، الذي تربى في كنف زوج أمه قرقماس الأشرفي الذي أحضر له من علمه القرآن والخط المنسوب وأقرأه العلم[4].

ثانياً: المدرسة مؤسسة التعليم العالي

يعتبر العام 566هـ/1171م، تاريخ افتتاح أول مدرسة في مدينة القاهرة على يد صلاح الدين الأيوبي، حداً فاصلاً فيما يخص أمكنة التعليم العالي في ديار مصر. فمنذ ذلك الحين، بدأت تنتشر المدارس بكثرة في جميع المدن المصرية حتى شملت كل ناحية فيها. وقد هيأت المدارس فرصاً كبيرة وقدّمت تسهيلات كثيرة للمعلّمين والمتعلّمين على السواء، فانجذب إليها العدد الأكبر من المدرسين والطلبة مما قلّل الإقبال على الدور التعليمية الأخرى، وإن استمرت هذه الدور محتفظة بطابعها العلمي وتقوم بواجبها التقليدي في التعليم[5].

1- **تعريف المدرسة**

المدرسة لغة، هي المكان الذي كانت تدرس فيه العلوم الدينية، وهي بعكس الكتَّاب الذي اختص بالتعليم الابتدائي. اهتمت المدرسة بتعليم الفقه، أما العلوم الدينية الأخرى فقد اعتبرت علوماً مساعدة وإضافية لعلم الفقه كما هي علوم اللغة وعلم التاريخ[6]. واسم المدرسة مشتق من الجذر "دَرْس" الذي استعمل حصرياً للفقه. فكلمة "دَرْس" تعني محاضرة في الفقه؛ والمصدر منه "تدريس" ويعني تدريس الفقه أي مهام مدرّس الفقه وجمعها "تداريس"؛ و"مُدَرِّس" اسم الفاعل، أي مدرّس الفقه. وعليه، فإن هذه المصطلحات كلها ترتبط فقط بالفقه وتشير إليه بالضرورة.[7]

1- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص510.

2- العريني، السيد الباز: المرجع السابق، ص96.

3- السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص20.

4- السخاوي: المصدر نفسه، ج1، ص205.

5 – شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص43؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P95

6– Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1119

7– سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص796؛ Pedersen, J : Ibid, EI2, T5, P1121

أما ابن منظور، فقد عرّف المدرسة على الشكل التالي: المدراس والمِدْرَس هو الموضع الذي يُدرَسُ فيه. والمدْرَس الكتاب. والمدَرِّس الذي يقرأ الكتب ويدرّسها. ودَرَسَ الكتاب يدرسه درساً ودِراسة. ودارسه انقاد لحفظه ومنه قوله تعالى (**وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتْ**) [1] بمعنى تعلمت وعلمت أو قرأت. وفي الحديث تدارسوا القرآن أي اقرؤوه وتعهدوه لئلا تنسوه[2]. والمدرسة اسم مأخوذ من الآرامية أو العبرية يشير إلى مؤسسة التعليم، التي تبنى بشكل هندسي خاص يتيح للمدرسين والطلبة السكن فيها[3].

2- أسباب انتشار المدارس

اختلف العلماء حول السبب الحقيقي الذي كان وراء إنشاء مؤسسة المدرسة؛ فمنهم من رده إلى الصراع المذهبي بين السنة والشيعة، في حين رفض آخرون هذا القول معتبرين أن وجود المدرسة كان أمراً حتمياً وطبيعياً لنمو حركة التعليم والتطور العلمي والثقافي في الدولة الإسلامية، وأن أسباباً أخرى تتعلق بالمسجد نفسه كانت الدافع مع غيرها إلى ابتكار المدرسة وانتقال التعليم إليها، على الأقل التعليم العالي التخصصي.

(**1**) **السبب المذهبي**: ذهب بعض المؤرخين إلى أن الهدف الأول لابتكار المدرسة هو رغبة أهل السنة – وخاصة السلاجقة – في محاربة المذهب الاسماعيلي ودحض آرائه[4]، في حين رفض البعض الآخر هذا القول معتبراً أن المدرسة ابتكار فكري محض، هدفه نشر العلم والوعي الثقافي والفكري، نشأ وتتطور بشكل تدريجي حتى اكتملت معالمه مع الوزير السلجوقي نظام الملك (ت486هـ/1093م)[5]. ولذلك يرى هؤلاء أن هذا الابتكار قد تجاوز الاعتبارات المذهبية والطائفية بدليل أن النفوذ الشيعي كان قد تضاءل بشكل ملموس حين اكتملت فكرة المدرسة التي بدأت بالانتشار في أواخر القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي[6].

ولما كان المقريزي قد ألمح في "الخطط" إلى الرأي الأول حين قال إنه"...عودي من تمذهب بغيرها[7] وأُنكر عليه ولم يولّ قاض ولا قُبلت شهادة أحد ولا قُدّم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً

---

[1]- القرآن الكريم: سورة الأنعام، الآية105.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص 1360.

[3]- Pedersen, J : Ibid, P1123

[4]- شلبي، أحمد: تاريخ التربية الإسلامية، ص98؛ التربية الإسلامية، ص215؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص 137؛ مغربي، محمود: مدارس القاهرة في العصر المملوكي الأول، ص10-13؛ سيديو: خلاصة تاريخ العرب، ص135؛ Jomier, J: Article Al-Kahira , EI2, T4,P447

[5]- هو قوام الدين الحسن بن علي الطوسي كان وزير السلطان ألب ارسلان السلجوقي عشر سنين ثم وزر لولده ملكشاه عشرين سنة. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص202؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج2، رقم179، ص128.

[6]- عاشور، سعيد: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ص440-445.

[7]- يقصد المذاهب السنية الأربعة.

لأحد هذه المذاهب وأفتى فقهاء هذه الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها والعمل على هذا إلى اليوم..."[1]، ولما لم يذكر أحد من مؤرخي العصر الإسلامي مدرسة أنشئت على المذهب الشيعي، خاصة في ديار مصر التي كانت معقلاً لهذا المذهب طيلة العهد الفاطمي، فيمكن القول بأن المدرسة المملوكية وإن لم يكن هدفها محاربة المذهب الشيعي بشكل مباشر، إلا أنها قد هدفت إلى نشر المذاهب السنية الأربعة حصراً.

(2) **أسباب أخرى**: قد نقف على أسباب أخرى تتعلق بالمسجد نفسه يمكن أن يكون لها دور في إنشاء المدرسة وجعلها مركزاً مستقلاً للتعليم. فوظائف المسجد لم تقف عند حدود الصلاة والتعبد، بل تخطتها حتى جمعت كل ميادين الحياة الإجتماعية، والسياسية، والمالية، والعسكرية، والقضائية، والتعليمية، وذلك نتيجة تداخل المفاهيم الدينية والروحية بالمفاهيم الإنسانية في الفكر الإسلامي. ولذلك جعل المسلمون من المسجد مؤسسة عامة، ومكاناً رسمياً لتنظيم شؤون مجتمعهم وإدارته؛ فكان مركز بيت مال المسلمين، وداراً لضرب النقود، وقصراً للعدل والقضاء، ومارستاناً، وصيدلية، ومركز تجمع الجيوش وغير ذلك[2]. وفي ظل هذه الضوضاء، عمّت الفوضى وخرجت الأمور عن السيطرة، إذ لم يحفظ الناس للمساجد حرمتها وهيبتها، بل مارسوا فيها حياتهم الطبيعية بكثير من الحرية والفوضى، فاستخدمها بعضهم للتجارة والعمل والارتزاق في حين استباحها بعضهم الآخر للأكل والنوم والسكن[3]. وقد ورد في"الخطط" أنه:"...كانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس في الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندي وغيرهم، منهم من يقصد بمبيته البركة، ومنهم من لايجد مكاناً يأويه، ومنهم من يستروح بمبيته هناك..."[4]. وبالرغم من وجود الفنادق في ذلك الوقت، إلا أن نزول المسافرين في المساجد كان من الأمور الطبيعية، يؤكد ذلك ما ذكره ابن القفطي في حديثه عن زيارة له إلى قرية دير البلاص، إحدى قرى صعيد مصر فيقول:"... نزلنا بمسجد... وبتنا بالمسجد"[5].

ومن جهة أخرى، ومنذ ظهور الإسلام انكبّ الناس على دراسة الفقه، والحديث، والأصول، وتعلّم قراءة القرآن الكريم، وكان المسجد المكان الأمثل لهذه النشاطات. فالمسجد كان المكان العام الوحيد الذي استطاع استيعاب حركة التعليم فهو مفتوح لعموم الناس، كبيرهم وصغيرهم، وجيههم ووضيعهم، دون أن يمنعهم

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4، ص167.

[2]- الولي، طه: المساجد في الإسلام،ص ص158- 168؛ Pederson, J: Article Masdjid, EI2,T6,PP 653-657.

[3]- ابن الحاج: المدخل،ج2، ص ص391- 401؛ الولي، طه: المرجع نفسه، ص ص180-183؛عاشور، سعيد: المرجع السابق، ص438 ; Sauvaget, Jean Pederson, Josh ; Ibid, P640 : Historiens Arabes, P170;

[4]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص57.

[5]- ابن القفطي: أخبار الحكماء، ص167.

في ذلك شيء[1]. لذلك تعددت الحلقات في المساجد وتنوعت فكان لكل حلقة طبيعتها وموضوعها، منها حلقة القضاء والتحكيم، ومنها حلقة تعليم قراءة القرآن الكريم، وأخرى لرواية الحديث الشريف، وغيرها لتدريس أصول الفقه وهكذا.. وكان لكل حلقة مدرّس وعدّة طلبة، فكان المسجد الواحد يشهد العديد من الحلقات التي يصدر عنها الكثير من الأصوات والضجّة، خاصة وأن المواد الدراسية كانت قد بدأت تتطرق إلى مواضيع يكثر فيها الجدل والنقاشات كالفلسفة التي تبحث في الوجود والخلق والبعث وغيره، أو دروس الطب التي تتطلب التشريح وعلم الصيدلة والكيمياء التي توجب تجاربَ كيميائية وغيرها.

وهكذا، أصبح الوضع يتنافى مع ما يجب أن يكون عليه المسجد من هدوء وطمأنينة، ما أعاق الناس عن تأدية فروضهم، خصوصاً فرض الجمعة، وأظهر صعوبة استيعاب المسجد لكل هذه الأدوار، وفرض ضرورة ايجاد حلّ لهذه المشكلة وإبقاء المسجد على دوره الأساسي وهو العبادة والصلاة بعد فصل التعليم عنه. ولذلك، بدأ البحث عن نوع جديد من المؤسسات تختص بالتعليم، يعيش فيها الطلاب والمشايخ متفرّغين لمهامهم العلمية. وهكذا، ابتكر الفكر الإسلامي مؤسسة "المدرسة" للتعليم العالي، التي انتشرت في كل القرى والمدن الإسلامية.

لكن في الواقع وبالرغم من ذلك، لم تستطع المدرسة أن تلغي دور المسجد التعليمي نهائياً حتى بعد انتشارها في القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي حيث بقيت المساجد الكبرى في العهد المملوكي تشهد الدروس الفقهية والعلمية كالأزهر وغيره.

3- نشأة المدرسة الإسلامية وانتشارها في القاهرة

يعدّ بعض المؤرخين ومنهم المقريزي، والسيوطي، والحافظ الذهبي، أن الانطلاقة الأولى للمدرسة كونها مؤسسة تعليمية، كانت في النصف الأول من القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي، حين أقيمت بعض المدارس في نيسابور[2]. أما قبل ذلك، فكان التعليم يتم في بيوت العلماء[3] وفي قصور الخلفاء[4]، الذين

1- ابن الحاج: المدخل، ج1، ص64.

2- المقريزي: الخطط، ج4، ص199؛ السيوطي: حسن المحاضرة،ج2، ص223؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة العلمية، ص81؛ عاشور، عبد الفتاح: العصر المماليكي، ص332؛ Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5, P1122; Mottahedeh, Roy: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman, PP65-66

3- Pedersen, Josh, Ibid, P1119

4- لما بنى الخليفة المعتضد بالله العباسي قصره في الشماسية، جعل فيه دوراً ومساكن ورتب فيها رؤساء كل مذهب وصنعة من مذاهب العلوم النظرية والعملية وأجرى عليهم الأرزاق ليقصد كل من أراد تعلم صنعة أو علماً رئيس ما يختاره فيأخذ عنه. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص199؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص224.

غالباً ما كانو يلحقون بقصورهم دوراً ومقاصير ومكتبات خاصة، تعطى فيها دروس دينية وعلمية وطبية وغير ذلك[1].

وفي النصف الثاني من القرن الخامس، بدأت الدول الإسلامية المتعاقبة تهتم بإنشاء المدارس، فبادر الوزير السلجوقي نظام الملك بإنشاء سلسلة من المدارس، انطلقت من بغداد سنة 459هـ/1067م[2]، إلى عدة مدن إسلامية أساسية، وعرفت باسم "المدارس النظامية"[3] التي راعت المفهوم الحديث للمدرسة[4]، لأنها كانت أول مدرسة تقرّر مناهج تعليمية واضحة، وتقدم معاليم ورواتب للفقهاء[5] وللطلبة[6]، آخذة على عاتقها النهوض بنهضة علمية اسلامية اهتمت حصرياً بالعلوم الدينية والفقهية للمذاهب الأربعة. وكانت هذه المدارس منظمة تنظيماً جيداً لم تعهده المدارس من قبل ما جعل الكثيرين يعتقدون أن نظام الملك كان أول من بنى المدارس في الإسلام.

وبعد السلاجقة، تابع الزنكيون وعلى رأسهم محمود نور الدين، وكان أتابكهم[7]، السير على خطاهم وكذلك فعل من بعدهم الأيوبيون.

وبالعودة إلى مدينة القاهرة، فإن الفاطميين كانوا أول من زرع بذور النشاط التعليمي فيها، فأقاموا دروساً بمعاليم جارية في الجامع الأزهر وفي دار الحكمة وفي عدة جوامع أخرى. أما المدارس فكانت في عهدهم "...قليلة الوجود بل تكاد أن تكون معدومة..."[8] وذلك بحسب رأي المقريزي لأن:"... مذهبهم مخالف لهذه الطريقة..."[9]. وقد أكد ذلك ابن خلكان حين قال:"... لما ملك صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية، لم

1- تجدر الإشارة إلى أن اليونانيين القدماء عرفوا ما سمي بدار التعليم وخصصوا لها أبنية مستقلة ، خاصة في عهد أرسطوطاليس. ابن القفطي: أخبار الحكماء، ص25، 37.

2- Pedersen, Josh, Ibid, p1123

3- المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص199؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص223؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ص194؛ أمين، محمد: الأوقاف و الحياة الاجتماعية في مصر، ص224؛ مغربي، محمود: مدارس القاهرة في العصر المملوكي الأول، ص 10؛ حمزة، عبد اللطيف: المرجع السابق، ص81؛ شلبي، أحمد: موسوعة النظم و الحضارة،ج5 ص116؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, PP 410-411; Pedersen, Josh, Ibid, P1123

4- Pedersen, Josh, Ibid, P1123

5- المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص199؛ مغربي، محمود: المرجع السابق، ص10.

6- Pedersen, Josh, Ibid, P1123؛ السيوطي: المصدر السابق،ج2، ص224.

7- لقب تركي مركب من مقطعين: أتا معناها "أب" وبك ومعناها" أمير". وقد أطلق السلاجقة هذا اللقب على من يقوم بتربية أبنائهم، ثم أطلق فيما بعد على القائد العام للجيش السلجوقي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج6، ص5، 35.

8- القلقشندي: صبح الأعشى،ج3، ص413.

9- المقريزي: الخطط،ج4، ص199.

يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة العبيدية كان مذهبها مذهب الرافضة الشيعة، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء..."[1]، علماً أنه قد جاء في "طبقات" السبكي، أن ابا الحسن علي بن السلاّر وزير الدولة الفاطمية في أيام الظافر العبيدي، قد أقام في مدينة الإسكندرية مدرسة للفقه الشافعي وفوّض التدريس فيها للحافظ أبو طاهر السلفي[2].

ويعود الفضل في تأسيس المدارس في مدينة القاهرة إلى صلاح الدين الأيوبي، الذي اكتسب سمعة كبيرة كمؤسس وبانٍ للمدارس، ظهرت نتيجتها في كثير من المدن الإسلامية الأساسية التي خضعت لحكمه. ولذلك، يعتبر العام 566هـ/1171م، تاريخ افتتاح أول مدرسة في مدينة القاهرة على يد صلاح الدين، حداً فاصلاً فيما يخص أمكنة التعليم في ديار مصر. فمنذ ذلك الحين، بدأت تنتشر المدارس بكثرة في جميع مدنها حتى شملت كل ناحية فيها.

ففي سنة 566هـ/1171م، أي قبل سقوط الخلافة الفاطمية بسنة واحدة، وحين كان وزيراً للخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، أقام صلاح الدين أول مدرسة في مدينة القاهرة هي "المدرسة الناصرية" وجعلها للفقهاء الشافعية[3]، ثم بنى في السنة نفسها "المدرسة القمحية" وخصصها للفقهاء المالكية[4]. وبعدها، أي في سنة 572هـ/1177م، أقام صلاح الدين بدار الوزير الفاطمي نجم الدين بن مصال[5] "المدرسة السيوفية"[6]، كما بنى بالقرافة المدرسة "الناصرية الصلاحية" بجوار الإمام الشافعي[7]، ومدرسة أخرى بجوارالمشهد الحسيني[8].

[1]- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7،ص206؛ السيوطي: حسن المحاضرة،ج2، ص224؛ابن تغري بردي: النجوم، ج6، ص55

[2]- السبكي: طبقات الشافعية،ج4، ص45.

[3]- ابن دقماق: الانتصار، ج4،ص93؛ المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص 201؛ ابن خلكان: المصدر نفسه،ج7، ص207؛ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص224.

[4]- القلقشندي: المصدر السابق، ص390؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص200؛ ابن دقماق: الانتصار، ص95؛ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص224؛ ابن خلكان: المصدر نفسه،ج7،ص207؛ Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2,T5, P1124

[5] - يقول السيوطي انها كانت دار الوزير عباس الصنهاجي، حسن المحاضرة، ج2، ص224، في حين يقول المقريزي بانها كانت دار الوزير المأمون البطائحي. المصدر نفسه، ج4، ص204.

[6]- ابن دقماق: الجوهر الثمين،ج1، ص230؛ المقريزي: المصدر نفسه ، ج4،ص204؛ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص224؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج7، ص206؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص55؛.

[7]- المقريزي: الخطط ، ج4،ص259؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص224 -225.

[8]- السيوطي: المصدر نفسه،ج2، ص224؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ص 222.

وما لبث أن تطور هذا النشاط مع رجال الدولة الأيوبية ونسائها الذين استكثروا من المدارس وافتتحوا عدداً كبيراً منها، مثل مدرسة "منازل العز"[1]، والمدرسة "الصالحية النجمية"[2]، ومدرسة "ابن الأرسوفي"[3] والمدرسة "القطبية"[4]، وغيرها الكثير.

وعلى المنوال نفسه، سار المماليك الذين أكثروا من بناء المدارس ودور العلم الأخرى، مثل: الربط، والخوانق، والزوايا، والمساجد، وغيرها، حتى عمّت بلاد المسلمين في عصرهم ما جعله عصراً ذهبياً للحركة العلمية الإسلامية[5]، خاصة في مدينة القاهرة، التي كانت محور اهتمام سلاطين المماليك، حتى أصبح في الحي الواحد فيها مدرستان أو أكثر، وأحياناً كانت المسافة بينها دون مدى الصوت، كما هو الحال مع "المدرسة الزمامية"[6] و"المدرسة الصاحبية"[7] اللتين تلاصقتا تلاصقاً كبيراً ما أوجد نوعاً من الإرباك والإستنكار واعتبر من المبتدعات، لأنه كان"... يسمع كل من صلّى بالموضعين تكبير الآخر... وهذا وأنظاره من شنيع ما حدث في غير موضع..."[8]. وكذلك الحال مع المدرسة الصالحية النجمية، والمدرسة المنصورية[9]، بحيث كان يستطيع المصلي في المدرسة الثانية أن يرى منبر الأولى الذي استجده الأمير جمال الدين آقوش فيها سنة 730هـ/1330م[10]، ما منع من تجديد منبر الثانية عندما أراد تجديده الأمير ألجاي سنة 774هـ /1372م[11]. وقد وصف ابن بطوطة كثرة المدارس التي شاهدها في رحلته التي قام بها في القرن الثامن

1- عرفت أيضاً باسم المدرسة التقوية، وقفها على فقهاء الشافعية تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص202؛ ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص93.

2- في الأصل هي مدرستان. تقع هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة639هـ، وقيل سنة 641هـ، وكانت أول مدرسة في مصر تعطي دروساً فقهية للمذاهب الأربعة في مكان واحد. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج2، ص266؛ المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص217؛ السلوك، ج1، ص441، ج4، ص217؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص228.

3- أصلها مسجد بناه عفيف الدين عبد الله بن محمد الأرسوفي التاجر العسقلاني، وعيّن فيها درساً للفقه الشافعي. المقريزي: الخطط، ج4، ص201؛ ابن دقماق: المصدر السابق،ج4، ص98.

4- أوصت ببنائها مؤنسة خاتون شقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، ابن الملك العادل الأيوبي، فعرفت بالقطبية وكذلك سميت مدرستها. المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص208.

5- Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P94

6- تقع هذه المدرسة بخط رأس البندقانيين، بناها الأمير الطواشي زين الدين مقبل الرومي سنة 797هـ. الخطط،ج 4،ص 249.

7- تقع هذه المدرسة في سويقة الصاحب من القاهرة، أنشأها الصاحب صفي الدين عبدالله بن علي بن شكر وجعلها وقفاً على المالكية. المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص213؛ ابن دقماق: الانتصار،ج4، ص95.

8- المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص249.

9- بنى هذه المدرسة والبيمارستان المنصوري والقبة المنصورية بخط بين القصرين من القاهرة المنصور قلاوون الألفي سنة 683هـ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص226؛ المقريزي: السلوك،ج2، ص186؛ المصدر نفسه ج4، ص229.

10- النويري: نهاية الأرب،ج33، ص229.

11- المقريزي: الخطط، ج4، ص353.

هجري/الرابع عشر ميلادي بقوله :"...وأما المدارس بمصر فلا يحيط بها أحد لكثرتها..."[1] وهو ما قصده القلقشندي بقوله: "من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها "[2].

وقد حفلت أمهات الكتب بأسماء مدارس ودور علم كثيرة انتشرت في مدينة القاهرة المملوكية ومحيطها، منها ما شيّد في العصرين الفاطمي والأيوبي، وتعزز في عصر المماليك الذين عنوا بها وبترميمها وتجديدها ورصد الأوقاف لها وترتيب الدروس فيها، ومنها ما بني في عهد المماليك البحرية، فتألقت واشتهرت وعرفت بنشاطها العلمي وحركتها الثقافية، ومنها ما لم يكتب لها النجاح والاستمرار، فأقفلت أو هدمت فيما هدم من المباني بسبب الزلازل، مثل "المدرسة الفاضلية"[3] ومدرسة "بني مزيبل"[4]، أو مثل "المدرسة العاشورية"[5] التي تلاشت مع الأيام لأنها بُنِيَتْ في زقاق يهودي، أو المدرسة الأشرفية التي بناها الأشرف شعبان تحت قلعة الجبل سنة 777 هـ/1375م[6] ثم هدمها فيما بعد المؤيد شيخ المحمودي ليقيم البيمارستان المؤيدي مكانها[7].

ويعود سبب انتشار هذا العدد الوفير من المدارس العامرة في مدينة القاهرة والتي راجت فيها الدروس وارتادها المدرسون والطلاب، إلى أن بناءها لم يقتصر على سلاطين المماليك وأمرائهم[8] فقط، بل تجاوزهم إلى

1- ابن بطوطة: الرحلة، ص37.

2- القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص364

3- تقع هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة، بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني سنة 580هـ، و وقفها على الفقهاء الشافعية والمالكية. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص204.

4- يقال إن باني هذه المدرسة رجل كردي دفن في قبة بجانب بابها. ابن دقماق: الانتصار، ج1، ص98.

5- تقع هذه المدرسة بحارة زويلة وقفتها الست عاشوراء زوجة الأمير أيازكوج الأسدي. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص208.

6- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص261؛ السلوك، ج4، ص388؛ القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص416.

7- ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج2، ص439؛ الرزاز، حسن: عواصم القاهرة الإسلامية، ص280.

8- كالمدرسة الملكية: وتعرف بإسم مدرسة آل ملك. بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار للفقهاء الشافعيين بخط المشهد الحسيني بالقاهرة. المقريزي: الخطط، ج4، ص246؛ السلوك، ج4، ص42.

أمهاتهم[1]، وزوجاتهم[2]، وبناتهم[3]، ونوابهم،[4]، ومماليكهم[5]، ووزرائهم[6]، وولاتهم في الأقاليم[7]، وكل من كان مقتدراً من العلماء،[8] وكبار التجار (الغرباء منهم[9] وأبناء البلد[10]) والقضاة[11]، والأطباء[12]، والناس العاديين[13]. حتى أن البعثات الإسلامية التي كانت تمر في مدينة القاهرة وهي في طريقها إلى الحج، كان لها أياد بيضاء ومساهمة كبيرة في بناء المدارس فيها[14].

وثمة أسباب عديدة_ إضافة إلى سبب السير على الخطى السلجوقية والأيوبية_ كانت وراء بناء المدارس بكثرة في العصر المملوكي الأول، وأولها المدرسة المعزية[15]، ليس أهمها الثراء المادي الذي شهده ذلك العصر، والميل إلى عمل الخير والإحسان قربة لله تعالى وطلباً للحسنات، بل أضف إلى ذلك رغبة السلاطين

[1]-كمدرسة أم السلطان: أنشأتها والدة الملك الأشرف شعبان الست الجليلة بركة سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، بالقرب من قلعة الجبل واختصت بها المذهبين الشافعي والحنفي. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص258؛ المصدر نفسه، ج4، ص357.

[2]-كالمدرسة الصغيرة، بنتها سنة751هـ الست أيدكين زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصري بخط بين العواميد بالقاهرة. المقريزي: الخطط، ج4، ص249.

[3]- المدرسة الحجازية أنشأتها خوند تتر ابنة الناصر محمد بن قلاوون و زوجة الأمير بكتمر الحجازي. المصدر نفسه، ج4، ص230.

[4]- كالمدرسة المنكوتمرية: بناها بالقاهرة، نائب السلطنة الأميرسيف الدين منكوتمر الحسامي سنة 698هـ.المصدر نفسه، ج4، ص238.

[5]-كالمدرسة السابقية: بناها داخل حرم قصر الخلافة الفاطمي الطواشي سابق الدين مثقال الأنوكي مقدم المماليك السلطانية الأشرفية. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص248؛ السلوك، ج4، ص383.

[6]-كالمدرسة الجمالية التي بناها الوزير علاء الدين مغلطاي سنة 730هـ، وحبسها على الفقه الحنفي. الخطط، ج4، ص246.

[7]-كالمدرسة القوصية التي أنشأها بدرب سبف الدولة والي قوص الأمير الكردي. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص246؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص213.

[8]-كالمدرسة المجدية الخليلية: بناها الشيخ الإمام مجد الدين عبد العزيز الخليليّ الداريّ بخط درب البلاط سنة 663هـ، و وقفها على الفقهاء الشافعية. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص259؛ ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص96.

[9]-كالمدرسة المسلمية، أنشأها على شاطىء النيل كبير التجار ناصر الدين محمد ابن مسلم وشرط أن يكون فيها مدرس شافهي وآخر مالكي ومؤدب أطفال. ابن دقماق: المصدر نفسه، ج4، ص99؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص260.

[10]-كالمدرسة البدرية الخروبية: أنشأها كبير الخرابية التاجر في مطابخ السكر بدر الدين محمد الخروبي سنة 750هـ. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص210؛ ابن دقماق: المصدر نفسه، ص99.

[11]- المدرسة القيسرانية: كانت دار القاضي الرئيس شمس الدين محمد بن ابراهيم القيسراني فوقفها مدرسة قبل موته سنة752هـ. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص249.

[12]- كالمدرسة المهذبية: شيدها بعد سنة 684هـ، رئيس الأطباء بديار مصر ومدرس الطب في البيمارستان المنصوري مهذب الدين محمد بن أبي الوحش المعروف بابن ابي حليقة. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص253.

[13]- المدرسة البديرية: تقع بجوار المدرسة الصالحية، كان موضعها تربة الخلفاء الفاطميين، نبش قبورها رجل يدعى ناصر الدين محمد بن محمد بن بدير العباسي وأقام مكانها هذه المدرسة للشافعيين سنة758هـ. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص245.

[14]- كمدرسة ابن رشيق التي بناها القاضي علم الدين ابن رشيق بتمويل من بعثة إسلامية من بلاد التكرور كانت في طريقها إلى الحج. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص203؛ ابن دقماق: المصدر السابق، ج4، ص96.

[15]- بناها السلطان الملك المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي وهو أول ملوك الدولة المملوكية البحرية سنة 654هـ. ابن دقماق: المصدر السابق، ج4، ص 92؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص92.

والأمراء المماليك بتهريب جزء من ثرواتهم لأبنائهم وورثتهم خوفاً عليهم من غدرات الزمن، دون أن ننسى سبباً آخر مهماً وأساسياً ألا وهو عادة سلاطين وملوك المسلمين عموماً والمماليك خصوصاً ببناء قبب ليدفنوا تحتها، وإتباعها بمدرسة أو مكان يذكر فيه اسم الله لتحل عليهم بركة الذكر ورضى الخالق عز وجلّ، وهذا ما جعل المنافسة كبيرة بين الميسورين في إقامة المدارس وتخصيص الأوقاف لها. وقد يكون بناء المدرسة بدافع الوجاهة الاجتماعية، باعتبار أن ثمة مدارس أنشئت ولم يتم تعيين مدرسين فيها ولا طلبة مثل مدرسة "المحلي"[1]، ومدرسة "اينال"[2]، ومدرسة "ابن المغربي"، التي توفي صاحبها قبل أن يتسنى له تعيين المدرسين والطلبة فيها فبقيت قائمة بغير إكمال حتى هدمها ذريته في سنة 814هـ/1411م[3].

أما عن المدرسة نفسها فقد تكون في الأصل داراً يوقفها المالك مدرسة بعد وفاته أو مسجداً أو قصراً يحوّل إلى مدرسة بقرار من السلطان، ولكن أكثر المدارس شيّدت لغرض التعليم.

ومن الملاحظ أيضاً أن بعض المدارس كانت تشيّد بالظلم والتعسف وبقوة السلطة، فتصبح مرفوضة من الناس، خالية من الحركة، كالمدرسة الأقبغاوية التي كانت"... مظلمة ليس عليها من بهجة المساجد ولا أنس بيوت العبادة شيء لكثرة ما لحق الناس من العذاب بسببها..."[4]، في حين أن الظاهر بيبرس البندقداري أمر أن لا يستعمل في مدرسته أحد بغير أجرة ولا أن ينقص من أجرة أحد شيئاً[5]. أما المدرسة الحسامية فقد رفض بانيها الأمير حسام الدين طرنطاي أن يتوسّع بها على حساب خيّاط رفض بيع منزله المجاور لها بثلاثة أمثال ثمنها[6].

وقد اختصت المدرسة المملوكية، بعكس المسجد، بأهل العلم والطلبة الراغبين بالتبحر بالعلوم الدينية والتخصص فيها دون غيرهم من الناس. لذلك، فقد جرت العادة بأن يعين أصحاب المدارس لاسيَّما المرموقة منها كالمدرسة الناصرية والمدرسة الحجازية طواشيين يجلسون في دهاليزها ليمنعوا الناس من الصعود إليها وليراقبوا تطبيق الأنظمة فيها. ولعل في ذلك ما يدل على أن المدرسة المملوكية (بعكس المساجد)، قد امتازت بمناخ علمي سليم تهيأ لها في ظل مجموعة من القيم والأنظمة التي أوجدتها لنفسها وعملت بها. ومن الواضح

---

[1]- أنشأها رئيس التجار برهان الدين ابراهيم بن عمر المحلي ولم يعين فيها طلبة ولا مدرسين. المقريزي: الخطط، ج 4،ص209.

[2]- أوصى بعمارتها الأمير سيف الدين اينال اليوسفي أحد المماليك اليلبغاوية ، ففرغ من بنائها ستة 795هـ، ولم يعمل فيها إلا قراء يتناوبون على قراءة القرآن الكريم على قبره. المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص260.

[3]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص245.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص232.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص225.

[6]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص 236.

أن هذه الأنظمة قد راعت عملية الانتساب إلى المدرسة، ونظام التدرج فيها، وهذا ما جعل الالتحاق بالمدرسة أصعب من الالتحاق بحلقات المساجد[1].

ونلاحظ أن معظم المدارس شيّدت في الأماكن العامة كالأسواق والحارات والخطط، وبعضها أقيم إلى جانبه العمارات مثل المدرسة البندقدارية الظاهرية التي شرع الأمير طاز في عمارة قصر واصطبل بجوارها في شهر ربيع الأول من سنة 753هـ/1352م [2].

4- افتتاح المدرسة وإجراء التعيينات فيها

جرت العادة أن تفتتح المدرسة باحتفال يتفاوت في أهميته بتفاوت قدر صاحبها. وغالباً ما كان يشارك السلطان شخصياً بحفل الافتتاح، (خاصة إذا كان هو صاحب المدرسة) فيحضر إلى المدرسة بصحبة نائبه ووزيره وأتابكه وحاشيته، كما يحضر المدعوون من كبار الأمراء، والعلماء، والفقهاء، وقضاة القضاة، والقضاة، ومشايخ الصوفية، وأعيان الدولة، وأصحاب النفوذ والمناصب[3]. يبدأ حفل الافتتاح بالمناظرات العلمية والفقهية التي يعقِّب عليها الحاضرون من أهل العلم بمداخلات وتعليقات، وقد يقوم أحد الفقهاء أوالشيوخ بإلقاء درس فقه أو حديث، ومن ثم يلقي الشعراء الحاضرون قصائد شعرية[4] يمدحون بها السلطان وجوده وكرمه ويتغنون بحبه للعلم والعلماء وشجاعته وفضله على الشعب والدولة. وبعد ذلك، يقوم السلطان بتسمية العلماء، والمدرسين، والمعيدين، الذين سيتولون التدريس في هذه المدرسة من ضمن الحاضرين ويحدد رواتبهم والأعطيات والتقديمات اليومية التي سيحصلون عليها من خبز، ولحم، وصابون، وقلل ماء، وحلوى، وغير ذلك من مردود الوقف الذي سيوقفه السلطان لصالح هذه المدرسة، ويعلن عنه في الحفل نفسه[5]. كما يعيّن السلطان (أو صاحب المدرسة) القراء والمؤذنين وإمام المسجد الملحق بالمدرسة ويحدد رواتبهم والتقديمات التي سيحصلون عليها يومياً، دون أن ينسى تسمية ناظر الوقف الذي يقوم بدوره بتعيين الفراشين، والحجاب،

1- راجع الفصل الخامس.

2- المقريزي: السلوك، ج4، ص154.

3- انظر حفل افتتاح المدرسة الصرغمتشية عند المقريزي : المصدر نفسه، ج4، ص264؛ وحفل افتتاح المدرسة الظاهرية عند ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج7، ص12.

4- انظر حفل افتتاح المدرسة الظاهرية عند المقريزي: الخطط، ج4،ص225.

5- إذا كانت المدرسة قديمة وقد شغر مركز ناظر الوقف فيها يقوم السلطان بتعيين ناظر جديد وهو صدر المذهب الرئيسي فيها في الوقت عينه. وهو بالتالي يقوم بتعيين سائر المدرسين والمعيدين والموظفين ويحدد رواتبهم، كما ينظر في كل متعلقات المدرسة وأوقافها ويقرر في شأنها. انظر نسخة توقيع بتدريس مدرسة والنظر عليها والتحدث على أوقافها وسائر تعلقاتها في: صبح الأعشى، ج11،ص32.

والطواشية، وصغار الموظفين ويحدد رواتبهم[1]. كل ذلك يعلن عنه في مرسوم الوقف الصادر عن ديوان الإنشاء[2]، والذي يحدد النظام والمنهج التربوي اللذين ستعتمدهما المدرسة تبعاً لرأي منشئها، يمهره السلطان بختمه ويقرأ في الحفل وعلى منابر المساجد.

ولا يغفل هذا المرسوم عن ذكر اسم المدرسة، الذي غالباً ما يكون على إسم صاحبها أوبانيها أوالمدرس فيها، ومذهبها على مذهبه. وأحياناً قد تنسب المدرسة إلى الموقع الذي بنيت فيه، وفي أحيان أخرى قد تتخذ المدرسة اسماً يتناسب مع نوعية مردود الوقف الذي يتحصل لها ويفرق على الطلبة والمدرسين فيها كالمدرسة "القمحية". كما يحدد كتاب الوقف عدد الطلاب الذين سيلتحقون بهذه المدرسة ويتبعون مذهبها، ورواتبهم التي سيتقاضونها والتقديمات التي سيحصلون عليها من أطعمة وأشربة وصابون وملبس كما يحدد كيفية توزيعهم في غرف المدرسة. أما في حال كانت المدرسة تدرّس أكثر من مذهب، فيتم تحديد عدد طلاب كل مذهب فيها على أن تكون الكثرة لأتباع مذهبها الأساسي.

كما يوزع المرسوم إيوانات المدرسة على المذاهب والدروس التي تدرّس فيها مخصصاً الإيوان الشرقي –إيوان القبلة وهو الإيوان الأكبر دائماً– لطلبة المذهب الأساسي فيها، كما يعين عدد ساعات التدريس وتوقيتها لكل مذهب محدداً أيام العطل التي عادة ما تكون يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع. وهنا لابد من الإشارة إلى أنه في حال كانت المدرسة تدرس أكثر من مذهب، فيكون لكل مذهب إيوان خاص به يطلق عليه اسم مدرسة[3]. فإذا كانت المدرسة تضم إيواناً واحداً لمذهب واحد تكون مدرسة واحدة. أما إذا كانت المدرسة تضم أربعة إيوانات لأربعة مذاهب، فتكون فيها أربع مدارس[4]. وأحياناً كان كتاب الوقف يتضمن شروطاً معينة يشترطها الواقف، كأن لا يدرّس المدرس في أماكن أخرى[5]، أو كما اشترط مثلاً كبير الخرابية بدر الدين محمد الخروبي، أن لا يستلم أحد من العجم وظيفة في مدرسته[6]، أو كما اشترط الأمير

[1] – عاشور، عبدالفتاح: العصر المماليكي،ص332؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة العلمية في مصر، ص81.

[2] – المقريزي: الخطط، ج3، ص393.

[3] –لم يطبق هذا التقسيم للأواوين في مدرسة المنصور قلاوون، حيث كان الإيوان القبلي مقراً لتدريس ثلاثة مذاهب هي الحنفي، والمالكي، والحنبلي كل في رواق خاص به، في حين اختص المذهب الشافعي بالإيوان البحري المقابل لإيوان القبلة.

[4] - Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5, P1126

[5] - Pedersen, Josh : Ibid, P1133

[6] – المقريزي: الخطط، ج4، ص210.

علاء الدين أقبغا أن لا يلي النظر في مدرسته أحد من ذريته[1]، أما الأمير سيف الدين شيخو فقد شرط على شيخ خانقاته حضور درس التصوف وتدريس الحنفية، وأن يكون عارفاً بالتفسير والأصول[2].

كما يعلن المرسوم عن الوقف الذي أوقفه السلطان أو (صاحب المدرسة) لصالح هذه المدرسة من ضيع، وبساتين، وفنادق، وحمامات، وغيرها من الأموال والأملاك التي تضمن لهذه المدرسة الاستمرار في عملها وفي سد حاجاتها ومصاريفها الكثيرة من مأكل، ومشرب، ورواتب، وفرش، وقراطيس، وكراريس، وغيرها من اللوازم المدرسية. كما يؤمّن الوقف رواتب المدرسين والطلاب والموظفين والطواشية الملحقين بهذه المدرسة. وبعد الانتهاء من التعيينات، يخلع السلطان على الحاضرين الخلع والهدايا دون أن ينسى المهندسين والبنائين وكل من اشتغل في المدرسة وساهم في تشييدها[3].

وأخيراً، يدعو السلطان الجميع إلى الأكل حيث تمد الأسمطة والموائد الفاخرة والغنية بشتى أنواع اللحوم المشوية من خيل وخراف وغزلان ودجاج والمأكولات الشهية من أرز وخضار وشتى أنواع الحلويات والأشربة والفاكهة التي تزدان بها موائد "الأسمطة"[4]، فيأكل الجميع على نية النجاح لهذه المدرسة في القيام بمهامها التعليمية واستمراريتها[5].

5- وظائف المدرسة

(1) الوظيفة الدينية:لم تكف المدرسة الإسلامية يوماً عن اعتبارها مكاناً للعبادة والصلاة حيث كان يلحق بها بشكل دائم مسجد تقام فيه حلقات الوعظ والإرشاد، إضافة إلى الصلوات الخمس والعيدين. فبعض المدارس اتخذت منابر منذ البداية لإقامة خطبة الجمعة وصلاتها وفتحت أبوابها لعموم المصلين كالمدرسة الزمامية، والمدرسة الحجازية، في حين أن البعض الآخر استجدت فيها المنابر كالمدرسة البوبكرية والمدرسة الصاحبية، التي ذكر المقريزي أن ناظر الدولة في عهد السلطان الناصر حسن، القاضي علم الدين إبراهيم المعروف بإبن الزبير، جدّد عمارتها واستجد فيها منبراً فصار يصلى بها الجمعة ولم يكن فيها قبل ذلك منبر ولا تصلى فيها الجمعة[6]. وقد سبقت الإشارة إلى أنه في بعض الحالات، كانت المدارس تمنع من إقامة منابر

1- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص232.

2- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص230.

3- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص381.

4- جمع سماط معناها موائد الطعام السلطانية. حلاق، حسان: المعجم الجامع، ص119.

5- انظر حفل افتتاح المدرسة الظاهرية. المقريزي: الخطط، ج4، ص225؛ السلوك، ج2، ص3؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص229؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7، ص121. والمدرسة الصرغمتشية. المقريزي: الخطط، ج4، ص264.

6- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص213.

فيها في حال كانت تقرب من مدرسة أخرى فيها منبر وتشهد إقامة الجمعة، كما حصل مع الأمير ألجاي حين منع من تجديد منبر المدرسة المنصورية، لقربها الشديد من المدرسة الصالحية النجمية. كما كانت المدارس في ذلك الوقت، تحيي كافة المناسبات الدينية وتحتفل بها خاصة في شهر رمضان، فكانت تقيم إفطارات رمضانية تستقبل فيها من يرغب من الصائمين[1].

(2) **الوظيفة القضائية:** أما على الصعيد القضائي، فقد مارست بعض المدارس المملوكية وظيفة قضائية مهمة، إذ كانت بمثابة دار عدل تقام فيها جلسات المحاكمات القضائية كالمدرسة الصالحية والمدرسة المنصورية بين القصرين[2]. فالمدرسة الصالحية كانت من أول المدارس التي مارست دوراً قضائياً، حين باشر الأمير أيدكين البندقداري الصالحي، نائب السلطنة في ديار مصر في عهد السلطان المعز أيبك التركماني وبإشارة منه، جلوسه يوم السبت في السابع والعشرين من شوال سنة 648هـ/1251م، مع نواب دار العدل لينتصب لكشف المظالم[3]، كما كان يجلس فيها قضاة القضاة الأربعة للنظر والتداول والإفتاء في شؤون المسلمين[4].

وبناء على هذه الوظيفة، كانت بعض المدارس تشهد تنفيذ العقوبات القضائية كالإقامة الجبرية أو الضرب والتعذيب، وحتى الإعدام. فمثلاً، في سنة 678هـ/1279م، أمر السلطان الملك المنصور قلاوون الألفي بإقالة الصاحب برهان الدين السنجاري من منصب الوزارة، وأن يَلْزَمْ الإقامة بمدرسة أخيه بالقرافة[5]. وفي سنة 693هـ/1293م، أمر السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون، بسجن وزيره ابن السلعوس في المدرسة الصاحبية بالقاهرة، حيث عذِّب وضرب بالمقارع [6]. وفي سنة 701هـ/1302م، أفتى القاضي ابن مخلوف والقاضي شمس الدين السروجي بالحكم بالإعدام على فتح الدين أحمد بن محمد البققي بتهمة الزندقة، فأحضر المتهم إلى المدرسة الصالحية حيث تم إعدامه بإذن من السلطان[7]،

---

[1]- "...نزل الأمير طاز إلى المدرسة المعزية ليفطر إذ كان صائماً...". المقريزي: السلوك، ج4، ص208.

[2]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص197؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص97.

[3]- المقريزي: الخطط، ج4، ص217.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص101، 387.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص124؛ النويري: المصدر السابق، ج31، ص6؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص293.

[6]- المقريزي: السلوك، ج2، ص251؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص172؛ البدر العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري، ص30؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق محمد الخطيب، ص187.

[7]- المقريزي: المصدر نفسه، ج3، ص ص350-351؛ النويري: المصدر نفسه، ج32، ص5؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص 152.

وفيها ولنفس السبب تم إعدام المدعو اسماعيل الزنديق سنة 721هـ/1321 م[1]. وفي سنة 689هـ/1290م، شنق قاتل الأديب والعالم رشيد الدين الفارقي على باب المدرسة الظاهرية حيث كان يدرّس[2].

(3) **الوظيفة السياسية**: لم تغب الاحتفالات والاجتماعات السياسية عن مسرح المدرسة المملوكية التي شكّلت ساحة مبايعة السلاطين وتعيين الأمراء، وفيها كانت تتم الاجتماعات للبحث في شؤون الحرب والسلم وأمور الدولة. فمثلاً، لما تسلطن الملك الظاهر بيبرس، حلف الناس له في المدرسة الصالحية قبل أن ينطلق إلى قلعة الجبل ليستقر فيها في سابع عشر ذي القعدة من سنة658هـ/ 1260م[3]. كما كانت تقام في هذه المدرسة مراسم تعيين الأمراء والاحتفال بهم[4]. فقد جرت العادة، أنه إذا عيّن السلطان أحداً من أمراء مصر والشام، فإنه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف[5] والشربوش[6]، وتوقد له القاهرة، فيمر إلى المدرسة الصالحية بين القصرين حيث تمد الأسمطة، ويقام الاحتفال على وقع الأغاني والأناشيد التي تزفه على طول شارع القاهرة وهو عائد إلى قلعة الجبل[7].

وفي عهد بني قلاوون انتقل موقع احتفالات التعيين من المدرسة الصالحية إلى قبة المدرسة المنصورية، حيث صار الأمير المعيّن يحلف عند القبر[8]. وقد ذكر المقريزي حفلي تحليف أقيما في المدرسة المذكورة، أحدهما في سنة 767هـ/1366م، لثمانية وثلاثين أميراً[9] والثاني لجماعة من الأمراء[10].

وفي سنة 736هـ/ 1336م، رسم السلطان محمد بن قلاوون بتأمير ولده ابراهيم، فنزل الأميران قوصون وبشتك إلى المدرسة المنصورية فزينوها وعملوا له فيها حفلاً بالمناسبة[11].

أما السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، فكان يقيم في المدرسة المنصورية اجتماعاته المهمة التي يحضرها الفقهاء، وقضاة القضاة ومشايخ العلم، مثل بهاء الدين بن عقيل، وزين الدين البسطامي، وأكمل

---

[1]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص246.

[2]- الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص130.

[3]- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص208.

[4]- اليوسفي: نزهة الناظر، تحقيق أحمد حطيط، ص290.

[5]- خلعة أوفرس مهداة من السلطان إلى الأمراء والوجهاء في المناسبات المهمة، كل على حسب مكانته. حلاق: المعجم الجامع، ص54.

[6]- يعني الطربوش. وهو قلنسوة طويلة كانت تلبس على الرأس بدل العمامة، وهي من ألبسة أمراء المماليك. المرجع نفسه، ص128.

[7]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص 79،12.

[8]- المقريزي: الخطط، ج4، ص 228؛ السلوك، ج4، ص304؛ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج9، ص100؛ ج8، ص 269.

[9]- المقريزي: السلوك، ج4، ص290-291.

[10]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص304.

[11]- اليوسفي: نزهة الناظر، ص290.

الدين الحنفي، وبدر الدين حسن الشجاع، وسراج الدين الهندي، وبهاء الدين السبكي، ليتداولوا في أمور الدين والدولة ويتخذوا فيها القرارات[1].

(4) **الوظيفة الاجتماعية**: وبما أن مراسم التعيين والمبايعة كانت تتم في المدرسة، ففيها أيضاً كانت تقام التعازي وحفلات التأبين وذكرى الوفيات، ففي السابع عشر من محرم سنة 677هـ/1279م، أقيمت الذكرى الأولى لوفاة الملك الظاهر في عدة أمكنة لكثرة ما اجتمع فيه من الناس على اختلاف طبقاتهم منها جامع ابن طولون، والجامع الظاهري والمدرسة الظاهرية، والمدرسة الصالحية، ودار الحديث الكاملية وخانقاه سعيد السعداء الصلاحية وغيرها حيث مدت الأسمطة الكبيرة وقرئت الختمات الشريفة[2].

وكانت المدرسة الصالحية والمدرسة المنصورية[3] بمثابة فندق يستقبل فيهما السلطان ضيوفه من الملوك والأمراء والمبعوثين السياسيين ويستضيفهم فترة إقامتهم، كما كان ينزل فيهما العلماء والقضاة الزائرين للمدينة. وأما "المدرسة القراسنقرية"، ففيها أيضاً يتم استقبال ضيوف السلطان واستضافتهم، كما ينزل فيها رجال البريد القادمين من الشام[4]، في حين كانت "المدرسة الصرغمتشية" تستضيف الفقهاء والعلماء الزائرين للديار المصرية طيلة فترة إقامتهم. وعلى ذلك، يذكر المؤرخ ابن تغري بردي، أنه كان في القاهرة نزيل هذه المدرسة، لما جاءه تكليف من السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين بتولي قضاء حلب[5]، أما شمس الدين محمد الديري فقد استدعاه الملك مؤيد شيخ سنة 658هـ/1260م من القدس ليوليه قضاء الحنفية في ديار مصر فنزل في المدرسة الصالحية إلى أن استقر في القضاء[6].

وبشكل عام، كانت المدارس ومقدراتها وأملاكها تجيّر للصالح العام، خاصة في حال حصول حوادث عامة، فمثلاً في سنة (722هـ/1321م)، وقع في مدينة القاهرة حريق كبير، خرج عن السيطرة فكانت المياه تنقل من المدارس والحمامات والآبار لإطفائه[7].

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4،ص246.

[2]- المقريزي: السلوك، ج2، ص113؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص ص 233-235.

[3]- كان الناصر محمد بن قلاوون يستقبل أمراء و ولاة المدن الإسلامية في المدرسة المنصورية، كما فعل مع أمير المدينة أدي وابن أخيه طفيل حين جاءا إلى مصر سنة 736هـ متشاكييْن إلى السلطان. اليوسفي: المصدر السابق، ص ص 289-290.

[4]- المقريزي: الخطط، ج4، ص240.

[5]- ابن الشحنة: روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، ص289.

[6]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص132.

[7]- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج9، ص65.

(5) **الوظيفة العسكرية**: كانت المدرسة المنصورية وقبّتها في عهد آل قلاوون تشهدان احتفالات النصر التي كان يقيمها السلاطين قبل انطلاقهم في حروبهم مع الفرنج، وبعد عودتهم منتصرين مظفرين، وبخاصة في عهد السلطان الملك الأشرف خليل[1]، كانت تقام مجالس القراءة، فيجتمع الأمراء، والعلماء، والفقهاء، والقرّاء، والوعّاظ، ومشايخ الصوفية، لقراءة الختمة الشريفة وبعدها تلقى القصائد الحماسية التي تحضّ على قتال الفرنج والمغول والجهاد ضدهم، وغالباً ما كان يحضر الخليفة احتفالات النصر[2].

وعليه، فإن المدرسة المملوكية لم تقصر اهتماماتها على تعليم العلوم الدينية فقط كما أريد لها أن تفعل، بل هي اضطلعت بمهام كثيرة ليس أكثرها ما سبق تعداده. ومع ذلك، هي لم تفقد بريقها ومكانتها العلمية، بل عرفت تطوراً أثرى الحضارة العربية بكثير من العلوم.

6- أنواع المدارس في القاهرة المملوكية

تنوعت مدارس التعليم الديني العالي في مدينة القاهرة في عصر المماليك البحرية، بتنوع المذاهب الفقهية السنية، وتوزعت على الشكل التالي:

(1) مدارس الفقه

أ- **مدارس المذهب الشافعي**: كانت معظم مدارس التعليم الديني في العصر المملوكي الأول تختص بتدريس مذهب فقهي واحد، وكان أكثرها موقوفاً على المذهب الشافعي، المذهب الأكثر انتشاراً في مصر منذ أن استلم الحكم فيها صلاح الدين الأيوبي ونشر العقيدة الأشعرية[3]. وقد عدّد المقريزي ثلاثاً وسبعين مدرسة، قامت أربع عشرة منها على هذا المذهب، أهمها:

- **المدرسة الناصرية**: بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان لم يزل وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي سنة 566هـ/1171م[4] بجوار الجامع العتيق من ناحيته القبلية، ووقف عليها وقفاً كبيراً، "... وهي أول مدرسة عملت بديار مصر..."، فكانت"...من أعظم ما نزل بالدولة..." [5]. استمرت مزدهرة إلى ما بعد سنة

---

[1]- هو الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، المتوفى سنة 693هـ/1293-1294م المقريزي: السلوك، ج2، ص218؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص406-415؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص162-165.

- المقريزي: المصدر نفسه،ج2، ص223؛ الخطط،ج4، ص228-229.[2]

[3]- نسبة إلى أبي الحسن عليّ بن اسماعيل الأشعري الذي قال بالأخذ بالنقل والعقل، في مواجهة مدارس كلامية قالت بالنقل، وأخرى قالت بالعقل كالمعتزلة. المقريزي: الخطط، ج4، ص192-193؛ مغربي، محمود: مدارس القاهرة، ص15.

[4]-كان في موضعها سجن يعرف بسجن المعونة، فهدمه صلاح الدين سنة 566هـ/1171م ليقيم مكانه هذه المدرسة. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص200؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص119.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص200.

850هـ/1433م. قال ابن جبير عنها بأنه "...لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته..."[1].

يقول المقريزي بأن أول من استلم التدريس في هذه المدرسة كان أبو العباس أحمد بن الحسين ابن زين التجار، أحد أعيان الشافعية، فعرفت به[2]، واستلم من بعده ابن قطيطة ابن الوزان، ومن بعده كمال الدين أحمد ابن شيخ الشيوخ، ومن بعده الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الحنفي، قاضي العسكر الأرموي فعرفت حينها بالمدرسة الشريفة[3].

- **المدرسة الطيبرسية**: أسسها الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش، في سنة 709هـ/1309م، بجوار الجامع الأزهر من الجهة البحرية، وحصر الدرس فيها في البداية بالفقه الشافعي[4]. وفي سنة 710هـ/1310م، نقل إليها جماعة من الصوفية[5]. وممن درّس في هذه المدرسة عمر بن نجم الدين البالسي(ت731هـ/1331م)[6]، وأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت852هـ/1448م)[7].

- **المدرسة الحسامية**: تقع هذه المدرسة بخط المسطاح من القاهرة بالقرب من الحارة الوزيرية، بناها الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري نائب السلطنة بديار مصر وجعلها برسم الفقهاء الشافعية. من أهم من استلم التدريس فيها تاج الدين أبوالحسن الأردبيلي الشافعي وكانت سكنه وفيها توفى[8].

ب- مدارس الفقه على المذهب الحنفي: أما المذهب الحنفي، فعلى الرغم من أنه كان منافساً قوياً للمذهب الشافعي في الديار المصرية، إلا أنه كان أقل انتشاراً منه. وقد اختصت بهذا المذهب منفرداً عشر مدارس ورد تعدادها في الخطط منها:

---

[1]- ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص16.

[2]-يقول السيوطي بأن أول من درّس فيها كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني المتوفى سنة587هـ. حسن المحاضرة،ج2، ص225.

[3]- المقريزي: الخطط،ج4، ص200.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص231؛ أما في السلوك،ج3، ص20، فيذكر أن عمارتها تمت في سنة 729هـ؛ العسقلاني: الدرر الكامنة، ج3، ص229، رقم 2054؛ ويذكر ابن دقماق أن هذه المدرسة كانت تدرس الفقهين الشافعي والمالكي، وجعل طيبرس فيها لكل مذهب مدرس ومعيد وخمسة عشر طالباً، كما عمّر فيها مكتباً للسبيل. ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص97.

[5]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص199.

[6]- المقريزي: السلوك، ج3، ص150.

[7]- مغربي، محمود: مدارس القاهرة،، ص34.

[8]- المقريزي: الخطط، ج4، ص236.

– **المدرسة السيوفية**: هي في الأصل دار الوزير نجم الدين ابن مصال الفاطمي[1]، وقفها السلطان صلاح الدين على الفقهاء الحنفية في القاهرة، وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي. وهي أول مدرسة تفتح في ديار مصر للفقه الحنفي[2].

– **المدرسة البوبكرية**: تقع قرب الحارة الوزيرية في القاهرة، بناها الأمير سيف الدين أسنبغا ابن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكري الناصري سنة 772هـ/1370م، وبنى بجانبها مكتباً للأيتام[3].

– **المدرسة الصرغمتشية**: بناها الأمير سيف الدين صرغمتش الناصري فيما بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل. ابتدأ بعمارتها سنة 656هـ/1258م، وانتهى منها سنة 757هـ/1356م، ثم وقفها على الفقه الحنفي والحديث النبوي. وصفها المقريزي بأنها:"...من أبدع المباني وأجلّها وأحسنها قالباً وأبهجها منظراً"، افتتحها الأمير صرغمتش بحضور عدد وافر من أمراء الدولة ورجال العلم وقضاة القضاة، وعيّن الشيخ قوام الدين الأتقاني لتدريس الفقه الحنفي وعيّن فيها عدداً من الطلبة، وشرط أن يكونوا آفاقية (من خارج البلد)[4]. ومن بعد الأتقاني، استقر بالتدريس في هذه المدرسة محمود بن قطلوشاه السيرامي[5]، كما درّس فيها المؤرخ ابن خلدون عام 791هـ/1389م[6].

ج– مدارس الفقه على المذهب المالكي: لم يكن هذا المذهب على نفس انتشار المذهبين السابقين، وقد انفردت بتدريسه ثلاث مدارس أهمها:

– **المدرسة القمحية**: تقع هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق، كان موضعها يعرف بدار الغزل، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 566هـ/1171م للفقهاء المالكية، معيّناً فيها أربعة مدرسين لكل

---

[1]– ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج1، ص230. يقول المقريزي بأنها كانت دار الوزير المأمون البطائحي، في حين يقول السيوطي أنها كانت دار الوزير عباس الصنهاجي. الخطط، ج4، ص204؛ حسن المحاضرة، ج2، ص224.

[2]– المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص204.

[3]– المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص 244؛ السلوك، ج4، ص392.

[4]– السيوطي: المصدر السابق،ج2، ص231؛ المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص264-265؛ المصدر نفسه،ج4،ص 227.

[5]– المقريزي: السلوك،ج4، ص392.

[6]– ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص234؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج5، ص215.

مدرس عدداً من الطلبة[1]. ومن أشهر من درّس في هذه المدرسة المؤرخ الشهير عبد الرحمن ابن خلدون عندما جاء إلى القاهرة[2].

– **المدرسة الصاحبية:** تقع هذه المدرسة في سويقة الصاحب في القاهرة، أنشأها الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وجعلها وقفاً على الفقهاء المالكية وعين بها درس نحو وألحق بها مكتبة عامرة.

د– مدارس الفقه على المذاهب الأربعة: ذكر المقريزي أسماء أربع مدارس شهدت تدريس المذاهب الأربعة مجتمعة منها:

– **المدرسة الناصرية الجديدة:** بدأ تشييدها ووضع أسس عمارتها السلطان كتبغا، وأكملها الناصر محمد بن قلاوون لما عاد إلى عرشه مرة ثانية، سنة 698هـ/1299م، وفرغ من بنائها عام 703هـ/ 1304م، وعيّن بها مدرّسين للمذاهب الأربعة وألحق بها مكتبة حافلة.

أول من درّس الفقه المالكي فيها قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي في الإيوان الكبير القبلي، وقاضي القضاة شرف الدين عبد الغني الحراني للفقه الحنبلي بالإيوان الغربي، وقاضي القضاة أحمد السروجي الحنفي للفقه الحنفي بالإيوان الشرقي، والشيخ صدر الدين محمد بن المرحل المعروف بابن الوكيل للفقه الشافعي بالإيوان البحري، وجعل لكل مدرّس منهم عدداً من الطلبة، كما عيّن بها إماماً يؤم الناس بالصلوات الخمس[3].

– **المدرسة المنصورية:** من المدارس الفقهية المهمة في مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول. أنشأها الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي[4]، بخط ما بين القصرين[5] من القاهرة[6]، وكانت في الأصل قاعة ست الملك، ابنة العزيز بالله نزار الفاطمي، وقد شرع الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في تنفيذها في أول ربيع الآخر

---

[1]- سميت بالقمحية لأن معلومها كان يصرف للمدرسين والطلبة قمحاً. المقريزي: الخطط، ج4 ،ص201؛ السيوطي : حسن المحاضرة، ج2،ص224؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3،ص390؛ ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص95

[2]- المقريزي: السلوك، ج3، ص513؛ ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، ص204.

[3]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص229–230؛ المصدر نفسهج2،ص371؛ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص229؛ النويري: نهاية الأرب، ج32،ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص209؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج2، ص383.

[4]- هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي النجمي الصالحي العلائي، من جنس القبجاق، جُلِب على القاهرة وهو صغير، فاشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقي العادلي، أحد مماليك العادل أبي بكر بن أيوب بألف دينار، ولما مات علاء الدين، صار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وأصبح من جملة مماليكه، فعرف لأجل ذلك بهذا الاسم. المقريزي: السلوك، ج2، ص122؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص203–204؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، تحقيق محمد الخطيب، ص 122–124؛ أبو الفدا: المختصر، ج3، ص65 الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص ص 15–27؛ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك، ص ص 61–67.

[5]- محلة بالقاهرة بمصر، وهي بين قصرين عمرهما ملوك العلوية في وسط المدينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص534.

[6]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص39؛ مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ج2، ص124 المقريزي: الخطط، ج4، ص268.

من سنة 683هـ/1284[1]. أطلق السلطان المنصور قلاوون في هذه المدرسة دروساً في الفقه على المذاهب الأربعة، كما جعل فيها درساً للحديث النبوي، وآخر لتفسير القرآن الكريم، ودرساً للإقراء، إضافة إلى ميعاد للوعظ. وقد قام على هذه الدروس كبار الفقهاء [2].

هـ- مدارس الفقه على مذهبين: كذلك قام عدد من مدارس القاهرة بتدريس مذهبين فقهيين، منها على سبيل المثال:

- **المدرسة الحجازية:** تقع برحبة باب العيد من مدينة القاهرة، بجوار قصر الحجازية، أنشأتها الست خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وزوجة الأمير بكتمر الحجازي فعرفت به. وقد حصرت خوند تتر هذه المدرسة بالفقهين الشافعي والمالكي، وجعلت الدرس الشافعي للفقيه الشيخ سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني[3]. وقد اعتبرت هذه المدرسة من المدارس المملوكية المهمة، طُبِّقَ فيها نظام صارم، فكان طواشيتها يمنعون العامة من الصعود إليها، ولا يسمحون لأحد حتى لو كان من المنتسبين إليها، من عبور القبة التي فيها القبر إلا القرّاء وفي وقت قراءاتهم فقط.

- **المدرسة المنكوتمرية:** شيّد هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة، الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي نائب السلطنة، وأكملها في سنة 698هـ/1299م، وأقام فيها درساً للمالكية، عيّن له الشيخ شمس الدين محمد أبو القاسم بن عبد السلام التونسي المالكي، ودرساً للحنفية. وقد ألحق الأمير سيف الدين بهذه المدرسة مكتبة عارمة[4].

(2) مدارس الحديث

أ- مكانة علم الحديث: يعتبر علم الحديث، وهو من العلوم النقلية، أحد أهم العلوم الدينية، إذ يشكل مصدراً أساسياً من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومنه يستمد المشرع أحكامه وبياناته. لذلك، يتعين على كل عالم دين، مهما كان تخصصه، أن يتبحر في علم الحديث ليأخذ الدين من أصوله[5]. وفي هذا يقول الإمام التميمي السمعاني: "اعلم وفقك الله أن علم الحديث أشرف العلوم بعد العلم بكتاب الله

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4،ص268؛ بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية، تحقيق محمد الخطيب، ص152.

[2]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص229؛ المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص269؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية، ص 164 ؛ الحداد، محمد: المرجع السابق، ص ص 49-52.

[3]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص230-231.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص238.

[5]- الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص ص394-395، 415.

سبحانه وتعالى إذ الأحكام مبنية عليهما ومستنبطة منهما والله سبحانه وتعالى شرّف نبينا صلعم حيث قال وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"[1].

وبالرغم من الارتباط الوثيق فيما بينها، إلا أن العلوم الدينية قد استقلت عن بعضها البعض فكان لكل علم منها علماؤه وأعلامه، ومن ضمنها علم الحديث الذي ارتبط بعلم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الفقه، كما ارتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بعلوم اللغة والنحو[2].

وقد قام علم الحديث على الإسناد الصحيح الذي لا يثبت إلا برواية الثقة عن الثقة، والعدل عن العدل، لأن ألفاظ الرسول (ص) لا بد لها من النقل الصحيح المنقول عن الثقة[3]. وقد نقل عن الرسول (ص) قوله:" إذاكتبتم الحديث فاكتبوه بإسناده فإن يك حقاً كنتم شركاء في الأجر وإن يك باطلاً كان وزره عليه". فعلى المشتغل بعلم الحديث أن ينظر في إسناده، ورجاله، ومعانيه، وأحكامه، وفوائده، ولغته، وتاريخه. ولذلك وضع علماء الحديث الأولون قواعد خاصة لضبط هذا العلم والحفاظ عليه من الدّس والتلفيق حتى بلغ أوجه في القرون الثلاثة الأولى عندما وضعت أمهات الكتب فيه بأسانيد مشهورة وهي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن أبي داوود، وسنن النسائي. وبعد ذلك اكتفى العلماء والمحدثون الثقة بوضع مؤلفات تدرس هذه الكتب وتشرحها وتنفذها وتضبطها وتجردها وتنظر في أسانيدها دون أن يزيدوا عليها[4].

ب– أهم مدارس الحديث في القاهرة المملوكية: على الرغم من أن مصر كانت مهبطاً كثير من الرواة والمحدثين من الصحابة منذ الفتح الإسلامي، وبقيت كذلك على مر العصور حيث بقيت حركة المحدثين في ازدياد حتى بعدما تأسست مدينة القاهرة[5]، إلا أنها في البداية وكغيرها من المدن الإسلامية، لم تشهد هذه المدينة مدارس مخصصة لدراسة الحديث، فكانت دراسته تتم في الجوامع وفي بيوت المدرسين[6]، على أن هذه

[1]– التميمي: أدب الإملاء والاستملاء،ص3.

[2]– الخطيب البغدادي: الجامع، ص ص 244-248.

[3]- Sourdel, Dominique: L'Islam Medieval, P85

[4]– ابن خلدون: المقدمة، ص443؛ الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ص ص 425-428؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P115

[5]– انظر من كان بمصر من الأئمة والحفاظ والفقهاء في السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 210 وما بعدها.

[6]– Sezgin, F: Article Dar-Al Hadith, EI2,Tome Livraison,P128 . وممن روى الحديث ودرّسه في منزله في القاهرة، كانت السيدة نفسية بنت أبي محمد، سليلة الإمام علي بن أبي طالب(كرم الله وجهه)، وهي عالم حديث كانت تجيز به. وممن أجاتهم الإمام الشافعي.

الدراسة كانت تتطلب السفر من بلد إلى آخر سعياً وراء الحديث الصحيح والمحدّث السند[1]. وفيما بعد، بدأت تقوم مؤسسات مختصة بتعليم الحديث الشريف دون غيره من العلوم الدينية أطلق عليها اسم دار الحديث، ومنها ما سمي باسم دار القرآن والحديث[2]. وكانت هذه الدور – وهي بدأت تنتشر في مرحلة لاحقة بعد الجوامع والمدارس– تقام إما منفصلة وإما متصلة بمؤسسة تعليمية أخرى كالمسجد أو المدرسة، وقد استمرت في نشاطها التعليمي حتى القرون الإسلامية الأخيرة[3].

فبعد ابتكار فكرة المدرسة ونجاحها في تعليم الفقه وانتشارها في الأقاليم، بدأت دراسة الحديث تنضم إلى الدراسات الفقهية في المدارس إما منفردة أو منجمعة مع دروس الفقه، تبعاً لرغبة الواقف. وبحسب ما ورد في خطط المقريزي، كان في مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول مدرستان[4] _من أصل خمس وسبعين مدرسة_ لتعليم الحديث منفرداً، في حين أن ثلاث مدارس أخرى أدخلت دراسة الحديث إلى جانب دروسها الفقهية، يضيف عليها السيوطي مدرسة رابعة هي المدرسة الشيخونية[5]، إضافة إلى بعض الجوامع والخوانق والقبب التي شهدت دروس الحديث. وقد عنيت هذه المدارس بالحديث رواية، ودراية، ومعرفة أحكامه، وقواعده، وأصوله، ورجاله، وأقسامه، وأسانيده، وطرقه، إضافة إلى حفظه، ودراسته، وشرحه، وشرح غريبه، ودراسة ما له صلة به من العلوم مثل الفقه، والتفسير، واللغة العربية. وقد اشترط بعض علماء المسلمين ضرورة أن يكون في دور الحديث شيخ محدث عالي الإسناد يقوم بروايته، وأن يكون فيها قارئ للحديث وعشرة طلاب، وأن يكون فيها شيخ مسمع، يتقاضى كل منهم مخصصاً من ريع الوقف، على أن تكون قراءة الحديث أيام السبت والاثنين والخميس من كل أسبوع[6].

وهذه المدارس هي:

---

[1]- الخطيب البغدادي: الجامع، ص ص387-392؛ Jacqueline Sublet: La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman,P14-15; Berkey, Jonathan: Ibid, P113

[2]- Sezgin, F: Ibid, P129 لم أعثر فيما قرأت على ما سمي باسم دار القرآن الكريم في مدينة القاهرة في حين أن هذه الدور انتشرت بكثرة في مدينة دمشق في العصر المملوكي الأول. انظر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس،ج1، ص ص 7-95؛ كما أورد مجير الدين الحنبلي ذكر دار واحد في القدس الجليل سمي دار القرآن السلامية وقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر السلامي سنة761هـ. الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، ص45.

[3]- Sezgin, F : Ibid, P129 ; Pedersen, Josh, Article Madrassa, EI2, T5, P1125

[4]- ذكر ابن دقماق اسم مدرسة ثالثة هي مدرسة دار الحديث المراغية التي أنشأها داخل الأهراء السلطانية الشيخ شمس الدين المراغي. ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص99.

[5]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص227.

[6]- مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص99.

– **المدرسة الكاملية:** تعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن العادل أبي بكر الأيوبي سنة 622هـ/1225م[1]، بخط ما بين القصرين وجعلها برسم دروس الحديث فقط فعرفت بدار الحديث. وكانت هذه المدرسة الأولى من نوعها في مصر، بناها الكامل على نسق دار الحديث النورية في دمشق، ورصد لها أوقافاً عدة، معيناً على مشيختها أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية، ثم أخوه عثمان. ومن بعدهما، ظلت هذه المدرسة عامرة بكبار رجال الحديث ونشاطهم مثل محي الدين ابن سراقة، والرشيد العطار، والقطب القسطلاني، وابن دقيق العيد، وابن سيد الناس وغيرهم[2] حتى سنة 806هـ/1403م، حين انحدر مستوى التدريس فيها وتولاه صبي وصفه المقريزي بأنه"... لا يشارك الأناسي إلا بالصورة، ولا يمتاز عن البهيمة إلا بالنطق..."[3].

– **المدرسة الخرّوبية:** أسسها بعد المدرسة الكاملية، تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن علي الخروبي المتوفى سنة 785هـ/1383م، فعرفت بالتاجية الخروبية وخصصها لدرس الحديث الشريف فقط، وأقام بجانبها مكتب سبيل لتعليم الأولاد[4].

– **المدرسة الظاهرية:** شيّدها الظاهر بيبرس البندقداري في خط ما بين القصرين، بجانب تربة الملك الصالح. ابتدأ بعمارتها سنة 658هـ/1260م[5]، وقيل 660هـ/1262م[6]، وافتتحها يوم الأحد خامس صفر، (وقيل ثالث عشره) من سنة 662هـ/1264م[7]. اجتمع فيها العلماء والفقهاء من المذهبين الشافعي والحنفي، وجلس طلاب العلم كل طائفة في الإيوان المخصص لها: الشافعية بالإيوان القبلي مع مدرسهم تقي الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموي، والحنفية بالإيوان البحري مع مدرّسهم مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبي، وأهل الحديث بالإيوان الشرقي مع مدرّسهم شرف الدين عبد المؤمن بن

[1]– أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص214؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص414؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص 219؛ Sezgin, F: Article Dar Al- Hadith, EI2, Tome Livraison, P129

[2]– السيوطي: حسن المحاضرة، ج1،ص324؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7،ص216؛ المقريزي: السلوك، ج1،ص258.

[3]– المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ص219.

[4]– المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ص208.

[5]– ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7، ص120؛ النويري: نهاية الأرب، ج30،ص57؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج2، ص308.

[6]– المقريزي: الخطط، ج4، ص224-225.

[7]– المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص225؛ السلوك، ج2، ص3؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7،ص 121 ؛ وقيل افتتحها سنة 663هـ/1265م. بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق محمد الخطيب، ص67.

خلف الدمياطي، والقرّاء بالقراءات السبع والطرق بالإيوان الغربي وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلي[1]. ويصف المقريزي يوم الافتتاح بأنه كان يوماً مشهوداً، في حين ذكر ابن تغري بردي أن من ضمن الحضور كان الصاحب بهاء الدين بن حنا، والأمير جمال الدين بن يغمور، والأمير جمال الدين أيدغدي العزيوي وغيرهم[2].

وقد ألحق بيبرس بمدرسته مساكن للمدرسين والطلبة، وزوّدها بمكتبة كبيرة تضمنت كتباً ومخطوطات في مختلف العلوم، وبنى بجانبها مكتباً للسبيل لتعليم الأيتام القرآن الكريم[3]، وأوقف عليها ربعاً كبيراً تحته عدة حوانيت كانت من أهم أسواق مدينة القاهرة وأجلّها. وقد حاول ورثة بيبرس دون جدوى السيطرة على هذا الوقف الذي تناوب على النظر فيه فقهاء الحنفية والشافعية[4].

ج- محدّثو مدينة القاهرة المملوكية: زخرت مدينة القاهرة في العهد المملوكي الأول بالكثير من الحفّاظ والمحدثين المشهورين الذين وصلوا إلى درجة الاجتهاد المطلق، وانتفع بهم أهل زمانهم وكانوا أعلاماً، منهم على سبيل المثال:

- زكي الدين المنذري: شيخ الإسلام الحافظ الكبير أبو محمد عبد العظيم ابن عبد القوي بن عبد الله المصري الشافعي، المولود بمصر في أول شعبان سنة 581هـ/1185م. برع المنذري في الحديث، ورحل في طلبه وجمعه فأحاط بجميع علومه ودرجاته على اختلافها واختلاف رجاله. وبعد ذلك كتب، وصنّف، وخرّج، وأملى، وحدّث. تتلمذ له الكثير من كبار الحفاظ وطلاب الحديث منهم تقي الدين ابن دقيق العيد والدمياطي. تولى المنذري مشيخة دار الحديث الكاملية مدة عشرين سنة، وله العديد من المصنفات، وتوفي يوم السبت في 4 ذي القعدة سنة 656هـ/1258م[5].

[1]- المقريزي: الخطط، ج4،ص225؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7،ص121؛ السيوطي:حسن المحاضرة، ج2، ص229؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص57 .

[2]- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج7، ص121.

[3]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص225؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص229؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص344؛

[4]- المقريزي: المصدرنفسه، ج4، ص226.

[5]- المقريزي: السلوك، ج،1،ص412؛ السبكي: طبقات، ج5؛ ص108؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7، ص63؛ السيوطي : المصدر السابق، ج1، ص166.

– **رشيد الدين العطار**: أبو الحسين يحيى بن علي بن عبد الله النابلسي المصري المالكي المولود سنة 584هـ/1188م. اشتغل بعلم الحديث فبرع فيه حتى انتهت إليه رياسته بالديار المصرية. ولّي مشيخة دار الحديث الكاملية عام 660هـ/1262م، حتى مات سنة 662هـ/1264م[1].

– **شرف الدين الدمياطي**: هو الإمام أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف الدين التونسي الشافعي. نشأ بدمياط حيث طلب الفقه ثم مال إلى سماع الحديث، فرحل في طلبه إلى الإسكندرية والقاهرة، حيث سمع من ابن المغير والمنذري، ثم رحل إلى مكة و منها إلى العراق، وما زال يتقدم في علمه حتى أصبح من أهم حفاظ الحديث المعدودين في زمنه. بلغ عدد شيوخه 1250 شيخاً وأجيز من أكثرهم. حدّث وأملى في حياة شيوخه، وتتلمذ على يده جملة من كبار المحدثين، منهم القونوي وأبو حيان. برع إلى جانب علم الحديث بالقراءات كما برع بالعربية والنسب، وتوفى سنة 705هـ/1305م[2].

7– عمارة المدرسة المملوكية: مدرسة السلطان حسن أنموذجاً

بالرغم من الفترة الزمنية الطويلة التي تفصلنا عن العهد المملوكي، إلا أن ما تركه المماليك من مساجد ومدارس وقلاع، تشهد على هندسة معمارية وفنية مميزة في العمارة الإسلامية في عهدهم. وتستوقفني في هذا السياق، مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون[3]، المعروفة بـ"المدرسة الناصرية الحسنية" التي تعتبر من أشهر مباني عصر المماليك البحرية، وأكثرها فخامة وأعلاها بنياناً وأحسنها شكلاً، ما يدل على حجم العناية الكبرى التي بذلت في إنشائها، ما يدفعني إلى إعارتها ما تستحقه من التفصيل، خاصة وأنها لا تزال قائمة إلى اليوم وتعدّ من أفخم وأهم مساجد مصر.

(1) موقع المدرسة: ويطلق عليها أيضاً اسم "جامع الملك النّاصر حسن "[4]، نسبة للسلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، الذي شيّدها في سلطنته الثانية[5]، بالقاهرة فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل سنة

---

[1]– السيوطي: المصدر نفسه، ج2،ص304؛ الذهبي: العبر،ج3، ص306؛ ابن تغري بردي: المصدر نفسه،ج7، ص217؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص403.

[2]– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج8،ص218؛ السيوطي:حسن المحاضرة،ج2،ص67؛ العسقلاني: الدرر الكامنة،ج2، رقم 2525.

[3]– ولد سنة 735هـ/1334م وسمي قماري. وظلّ بهذا الاسم حتى تولى السلطنة بعد أخيه المظفر حاجي في 14 رمضان سنة 748هـ/1347م وكان عمره ثلاث عشرة سنة فغيّر اسمه إلى حسن. اشتغل بالعلم وكتب بخطه نسخة من دلائل النبوة للبيهقي. المقريزي: الخطط،ج4، ص207-208؛ الشوكاني: البدر الطالع،ج1، ص144-145؛ رزق، عاصم محمد: أطلس العمارة الإسلامية والقبطية،ج2، ق2، ص1143.

[4]- Jomier, J: Article Al-Kahira, EI2,T4, P450؛ المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص121.

[5]–القلقشندي: مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ج2، ص160؛ المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص121.

756هـ/ 1355 م[1]، وقيل سنة757هـ/1356م[2] وقيل أيضاً سنة 758هـ/1357م[3]، وجعلها مدرسة فقهية للمذاهب الأربعة. استمر العمل في هذه المدرسة ثلاث سنوات كاملة دون توقف ليوم واحد[4] ، صرف السلطان حسن في عمارتها مبالغ طائلة[5].

(2) **شكل البناء المدرسي**: جاء المظهر الخارجي للمدرسة على الشكل المعتمد في بناء مدارس ذلك العصر، فبنيت على سمت القبلة، وتألفت من صحن كبير في الوسط، له أربعة أبواب، في كل جانب من جوانبه الأربعة باب يصل إلى إيوان مقبَّب لإقامة الشعائر الدينية، ومدرسة لأحد المذاهب الفقهية الأربعة. غير أن مساكن المدرّسين والطلبة والمشرفين على المدارس الأربعة تملأ فراغ المثلثات الأربعة التي يحدثها هذا الشكل المصلَّب فتصبح المدرسة وملحقاتها على شكل مربع يبلغ طوله 150 متراً وعرضه 68 متراً ومساحته 7906 أمتاراً مربعة، وأما ارتفاعه عند بابه فيبلغ 70 متراً[6].

(3) **وصف البناء من الخارج**: تتكون العمارة الخارجية لهذه المدرسة من أربع واجهات حجرية تتوجها شرافات مسنّنة، أهمّها الواجهة الرئيسية الواقعة في الناحية الشماليّة الشرقية المكوّنة من اثنتي عشرة دخلة ذات صدور مقرنصة، في كل دخلة ثمانية شبابيك مستطيلة في صفين تغشيها أحجبة معدنية بأشكال هندسية ونباتية. وتنتهي هذه الواجهة بستة مداميك مقرنصات تشكل شريطاً يمتد على طول سائر الواجهات[7]. أما الواجهات الثلاث الأخرى فهي فرعية، تتألف الجنوبية منها من أربعة طوابق مشابهة للواجهة الرئيسية، في حين تطل الواجهة الشرقية على ميدان قلعة الجبل.

والمدخل الرئيسي لهذه المدرسة الواقع في الطرف الغربي من الواجهة الرئيسية هو عبارة عن حجر غائر شاهق العلو، يغطيه عقد مدائني شحنت طاقيته وجانبه بعدة مداميك من المقرنصات المقعّرة وتكتنفه من الأسفل مكسلتان حجريتان متشابهتان تعلوهما على جانبي المدخل، زخارف جصّية نباتية وهندسية،

---

[1]- القلقشندي: المصدر نفسه، ج2، ص158.

[2]- ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج2، ص415؛ المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص121.

[3]- السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص232؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج10، ص238.

[4]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص232؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص96، ص141؛ ج10، ص131؛ القلقشندي : مآثر الأناقة، ج2، ص158؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص121.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص122؛ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص232 ; Jomier, J : Article Al-Kahira, EI2, P450

[6]- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج9، ص123؛ عكاشة، ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ص211.

[7]- ابن تغري بردي: المصدر تفسه، ج9، ص123؛ عكاشة، ثروت: المرجع نفسه، ص211؛ رزق، عاصم: أطلس العمارة الإسلامية ، ج2، ص1144.

بالإضافة إلى كتابة بخط النسخ المملوكي تشتمل على اسم المنشىء، والمنشأة، وتاريخ الإنشاء، تعلوها زخارف هندسية منقوشة في الحجر، وبين هاتين المكسلتين فتحة باب ذات عتب مستقيم من صنجات



حجرية معشّقة، يعلوه نفيس فوقه عقد من الأحجار المزررة تليه نافذة صغيرة لإضاءة الدركاة عند غلق الباب، ويتقدم هذا المدخل سلمٌ حجريُ ذا مطلعين ينتهيان إلى بسطة مرتفعة معلّقة يحدّها من جهاتها الخارجية درابزون رخامي تزينه زخارف نباتية وهندسية. وأما الباب فخشبي مصفّح نقله فيما بعد السلطان المؤيّد إلى مسجد بناه بجوار باب زويلة سنة 824هـ/1421م[1].

وفي الجهة الجنوبية الشرقية لهذه المدرسة، مئذنتان إحداهما كبيرة من الناحية الشرقية بلغ ارتفاعها 81م[2]، قامت على قاعدة مربعة مشطوفة تعلوها دورتان أولاهما مثمّنة الأضلاع فتح في أربعة من أضلاعها أربع فتحات ضيقة قابلها في الأضلاع الأربعة الأخرى أربع مضاهيات، وينتهي هذا البدن بشرفة محمولة على ثلاث حطات من المقرنصات تحمل درابزوناً من الحجر الملون وبحليات هندسية ونباتية، أما الدورة الثانية فذات بدن أسطواني يعلوه جوسق من ثمانية أعمدة رخامية أسطوانية تنتهي من أعلى بقباب صغيرة بصلية الشكل، يعلوها هلال من المعدن.

والمئذنة الثانية في الناحية الشمالية بلغ ارتفاعها 60 م[3]، تتكون من قاعدة مربعة تعلوها دورة أسطوانية تتوجها قلة بصلية. وأما من الداخل، فقد زينت هاتين المئذنتين بزخارف من أروع ما يمكن أن يتخيله عقل. وكان السلطان قد عزم على بناء أربع مآذن ، فتمت ثلاث منها إلى أن سقطت إحداها، وكانت على الباب سنة 762هـ/1361م، وتسببت بهلاك نحو ثلاثمائة شخص من أيتام الكتّاب الملحق بهذه المدرسة ومن غيرهم، ولم يسلم من الأيتام إلا ستة أطفال، فاكتفى السلطان بالمئذنتين الباقيتين[4]، فلم يبن غيرها.

أما خلف الإيوان الغربي لهذه المدرسة فيوجد حوض كبير للوضوء، على مقربة منه من الناحية الشمالية ساقية كبيرة خُصِّصت لجلب الماء اللازم للمدرسة التي زخرت بعدد كبير من القناديل والتنانير النحاسية والمشكاوات المذهبة. وأما عواميد المدرسة، فهي من الرخام والحجر المحفور والمزخرف أبدانها بالمعجون

[1]- رزق، عاصم: أطلس العمارة الإسلامية،ج2، ق2، ص1145.

[2]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج9،ص123.

[3]- ابن تغري بردي: المصدر نفسه،ج9، ص123.

[4]- المقريزي: السلوك، ج2، ص232؛ ج4، ص252؛ الخطط، ج4، ص122.

خاصة تلك التي ليس لها وظيفة انشائية[5]. أما قبة المدرسة، فقد احتلّت موقعاً ممتازاً يطل على الميدان بالإضافة إلى أنها تقع على محور المبنى خلف الإيوان الرئيسي[6]، وكانت خشبية فريدة من نوعها وهي عبارة عن حجرة مربعة مساحتها 751 متراً مربعاً وارتفاع جدرانها يصل إلى 30م[7]، تقوم في أركانها العلوية أربع مناطق انتقال داخلية تتكون كل منها من ست حطات من المقرنصات الخشبية المذهبة والملوّنة، تحمل رقبة أسطوانية كانت ترتكز عليها قبة شاهقة تبلغ في ذروتها 48م[8]. وأما بوابتها فخشبية مغطاة بحشوات من النحاس المكفت بالفضة[9]سقطت سنة 1071هـ/1660م، من جراء قصفها بالمدافع خلال صراعات نشبت بين المماليك، وحلّت محلها فيما بعد سنة 1088هـ/1677م، قبة ثانية أقل ارتفاعاً من الأولى بناها حسين آغا الخازندار ونُقِشَ عليها بعد البسملة قول الله تعالى:"**رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**"[10]..لحضرة خازندار مصر سعادة حسين آغا المشهور...العمار فأرخوا...وجددها..1088 ". ويتصدر الضلع الجنوبي الشرقي لهذه القبة محراب مجوف عبارة عن حنية نصف دائرية مغشاة بالرخام تتوسطها مقصورة خشبية قائمة على أرضية رخامية وضع فيها كرسي مصحف كبير مطعم بالعاج والصدف، دفن فيها الشاب أحمد ابن السلطان حسن. وقد نُقِشَ على رقبة هذه القبّة كتابات نسخية مملوكية نصّها بعد البسملة قول الله تعالى:"**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"[11] ...سنة أربع وستين وسبعمائة". ويمتد بأعلى جدران الصحن شريط كتابي بخط النسخ المملوكي يعلوه صف من الشرافات المسننة.[12]

(4) **وصف البناء من الداخل**: يصل الداخل من الباب الرئيسي للمدرسة إلى دركاة مربعة فرشت أرضيتها بالرخام الملون في أشكال هندسية رائعة . وكانت هذه الدركاة على شكل مسجد صغير، ذي تخطيط متعامد تتوسطها دورقاعة[13]، وتحيط بها الإيوانات الأربعة، وبابها الرئيسي في جهتها الشمالية ولها

5- لمعي، صالح: التراث المعماري الإسلامي في مصر،ص77.

6- لمعي، صالح: المرجع نفسه، ص26-27.

7- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ،ج9، ص123.

8-ابن تغري بردي: المصدر نفسه،ج9، ص123.

9- ابن تغري بردي: المصدر نفسه،ج9، ص123؛ لمعي صالح: التراث المعماري الإسلامي في مصر، ص85.

10- القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآيتان 192و 193.

11- القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 256 .

12- رزق، عاصم محمد: أطلس العمارة الإسلامية والقبطية،ج2، ق2، ص1145.

13- رزق، عاصم محمد: المرجع نفسه،ج2،ق2، ص1144؛ عكاشة، ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ص211.



الواجهة الشمالية الشرقية لمدرسة السلطان حسن. عن شبكة الإنترنت

باب آخر يؤدي إلى الصحن من الجهة الشرقية، بينما في ضلعيها الجنوبي والغربي دخلتان متشابهتان على هيئة سدلتين صغيرتين. والصحن عبارة عن مربع فرشت أرضيته بالرخام الملون في أشكال هندسية بسيطة، تتوسطه ميضأة وهي عبارة عن حوش تتوسطه فسقية يقام عليها حوض للمياه مثمّن ومبلّط بالحجر الجيري الأحمر المكسوّ من الداخل والخارج بالرخام المانع لنفاذ المياه وتتوسطه نافورة من الرخام الأبيض تغذى عن طريق البئر الموجود في المبنى. وبأرضية الحوض التي ترتفع بشكل مثمن حوالى درجة واحدة عن أرضية الصحن، بالوعات مستديرة صغيرة لتصريف المياه وتغطي الميضأة قبة خشبية ترتكز على ثمانية أعمدة رخامية يحيط بها

رفرف خشبي[14]. وقد وضعت لهذا الشروط اللازمة لاستعماله، وهو يستعمل بشكل أساسي للوضوء، وفي حفل افتتاح المدرسة، ملئ بشراب الليمون الذي قُدِّمَ للحاضرين[15].

أما الإيوانات الأربعة، فأكبرها إيوان القبلة، سقفه معقود عقداً ستينياً فوق نصف دائرة[16]، وهو أكبر عقد بني على إيوان في عمارة إسلامية، حيث بلغ ذرعه خمساً وستين ذراعاً في مثلها[17]، ما جعله أكبر من إيوان كسرى المعروف باسم" طاق كسرى" في مدائن العراق بخمسة أذرع[18].

ويتكون هذا الإيوان من مستطيل فرشت أرضيته ببلاطات حجرية ويتصدر جدار القبلة فيه محراب مجوّف عبارة عن حنية نصف دائرية ذات عقد مدبّب متراجع تكتنفه أربعة أعمدة رخامية أسطوانية وتزيّنه زخارف من أسفل، وهي عبارة عن وزرة رخامية تنتهي بأشكال عقود زخرفية مدبّبة، وثانيها

وزرة ثانية تنتهي بأشكال عقود نصف دائرية، وثالثها ثمانية محاريب ذات عقود ثلاثية، ورابعها شريط كتابي جاء فيه بعد البسملة:"**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**"[19]، وخامسها عبارة عن طاقية ذات زخارف زجاجية ملونة وعلى يمين المحراب منبر رائع من الرخام الأبيض لا نظير له تقابله من الجهة المطلة على الصحن دكة رخامية[20]، وتسمى"رتبة المبلّغ" تستعمل لجلوس المبلغين الذين يقومون بترديد بعض جمل الإمام أثناء الصلاة لتوصيلها إلى الصفوف الخلفية البعيدة، ترتكز على أربعة أعمدة رخامية لها زخارف نباتية وهندسية، يصعد إليها بواسطة سلم خشبي ولها درابزين من الخشب [21].

ويضم هذا الإيوان أبدع آيات الفن الإسلامي حيث إن جدرانه مغشّاة بالرخام والأحجار الملونة وبدائره إطار من الجص به كتابات كوفية لسورة الفتح يُعد واحداً من أجمل ما أبدعه الفنان المسلم في العمارة الإسلامية.

---

[14] – لمعي، صالح: التراث المعماري الإسلامي في مصر، ص34.

[15] – جرت العادة أن تملأ الميضأة بشراب الليمون أو بالماء والسكر عند افتتاح المدرسة. انظر حفل افتتاح المدرسة الصرغمتشية في الخطط، ج4، ص264.

[16] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص123؛ سرور، محمد جمال الدين: دولة الظاهر بيبرس، ص165.

[17] – ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج9، ص123؛ المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص122؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص232.

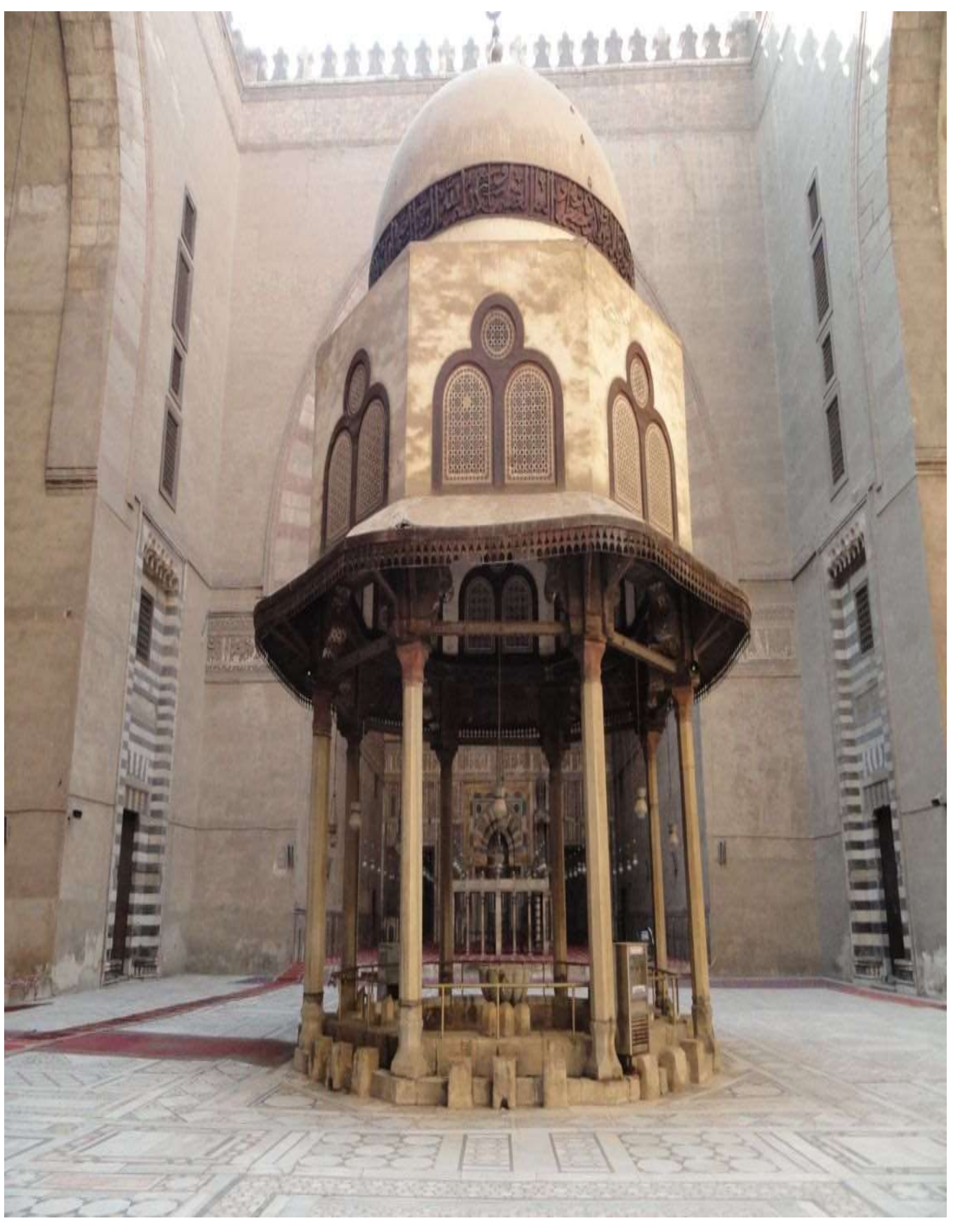
[18] – المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص122؛ السيوطي: المصدر نفسه، ص232؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص415؛ عكاشة ، ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ص211.

[19] – القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 144.

[20] – المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص122؛ ابن تغري بردي: النجوم ، ج9، ص123؛ رزق، عاصم: أطلس العمارة، ج2، ص1143.

[21] – المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص122؛ رزق، عاصم محمد: المرجع نفسه، ص1146.

وفي الجانبين الشمالي والجنوبي لجدار القبلة، بابان مكفتان بالذهب الخالص يؤديان إلى القبة الضريحية التي أنشئت خلف هذا الإيوان[22].



ميضأة المدرسة عن شبكة الأنترنت

[22]- عكاشة، ثروت: المرجع السابق، ص211.

أما الإيوانات الثلاثة الباقية فهي متشابهة ومساحتها متقاربة، سقف كل واحد منها على شكل نصف أسطوانة من الحجر، يطل على الصحن وتجاور كلاً منها مدرسة من المدارس المذهبية المعروفة، فيجاور الإيوان الغربي مدرسة الحنابلة، ويجاور الإيوان الشمالي مدرسة المالكية، وعلى جدرانها كتابات كوفية مورّقة، من نصُّها بعد البسملة:"**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**"[23]، ويجاور الإيوان الجنوبي مدرسة الحنفية.



مدرسة السلطان حسن من الداخل عن شبكة الأنترنت

[23] – القرآن الكريم: سورة الحج، الآية 41.

8- ملحقات المدرسة

يتضح من دراسة الهندسة المعمارية لمدرسة السلطان حسن، أنه غالباً ما كانت تلحق بالمدرسة المملوكية ودور العلم الأخرى، واحدة أو أكثر من عدة ملحقات وتوابع اعتبرت متمّمات أساسية لهذه الدور في ذلك الوقت، وشكّلت وحدة معمارية متكاملة مع بعضها بعضاً مثل: الصحن، الميضأة، المسجد، الخانقاه، القبَّة، التربة، مكتب السبيل، المكتبة، قاعة للإقراء، وغير ذلك من المرافق الحيوية التي كانت من الملحقات الضرورية للمدارس.

الفصل الثالث: مؤسسات تعليمية أخرى في مدينة القاهرة المملوكية

أولاً: الجوامع

1- دور الجامع في التعليم

تمتع الجامع بمقوّمات وخصائص خاصة به لم تتوافر في غيره من الأمكنة، مكنته من لعب دور بارز على غير صعيد في المجتمع الإسلامي، من أهمها ارتباطه الوثيق بحركة التعليم الإسلامي. فمنذ بداية الإسلام، اتّخذ المسلمون الجوامع مكاناً لنشر الشريعة وثقافتها، فعقدوا فيها المجالس والحلقات التعليمية الدينية المتنّوعة، التي شكّلت المنهج الأساسي لشرح الدين الإسلامي وتعاليمه، وتوضيح أسسه وأحكامه وتشريعاته للناس، بعد أن أجمع العلماء المسلمون على أن الجامع هو المكان الأمثل للتعليم، لأنه مفتوح لجميع الناس وفي كل وقت[24]، بعكس المدرسة التي كانت حكراً على المدرسين والطلبة الذين يعينهم صاحب المدرسة أو ناظر الوقف فيها.

ومع انطلاق حركة الترجمة، وانفتاح الحضارة الإسلامية على حضارات الأمم الأخرى وعلومها، بدأت تنفذ إلى داخل المجتمع الإسلامي علوم عقلية جديدة، تختلف في المنهج والمضمون عن العلوم الدينية، فبدأت الجوامع تكتظ بحلقات تعليمية في علوم الطب، والكيمياء، والحساب، والمنطق وغيرها من العلوم العقلية والتجريبية التي أسهمت في انطلاق مرحلة جديدة من مراحل العلم، كان المسجد ساحتها الوحيدة ولمدة طويلة[25].

ولما استكمل المسلمون حركة النقل والترجمة، ودرسوا واستوعبوا ما وصل إليه إطلاعهم من العلوم العقلية والدنيوية، وبدأوا مرحلة جديدة من البحث والتجارب، بدأت الجوامع تضيق بهم، لاسيما وأن طبيعة هذه العلوم وطرائق تدريسها تتنافى مع ما يجب أن يكون الجامع عليه من هدوء واحترام، خاصة فيما يتعلق بعلوم الفلسفة والكلام، والعلوم التجريبية كعلم الطب، والكيمياء، والصيدلة التي كانت قد بدأت تتطلب القيام بالتجارب العلمية والعمليات الطبية والتشريحية التي دخلت في صلب مناهجها التعليمية[26]، فكان لابد

---

[24]- ابن الحاج: المدخل، ج1، ص64؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P 413

[25]- العسقلاني: الدرر الكامنة، ج3، ص475؛ Hitti, Philip: Ibid, P412;Pederson, Josh: Article Masdjid, EI2, Tome 6, P695

[26]- عنان، محمد: تاريخ الجامع الأزهر، ص129؛ شلبي، أحمد: الموسوعة الحضارية، ج1، ص95؛ عاشور: سعيد: المجتمع المصري، ص 195؛ حسين، حوري: المسجد ورسالته في الإسلام، ص117.

لمدرّسي هذه العلوم وطلبتها أن يبحثوا عن أمكنة بديلة يمارسون فيها نشاطهم العلمي بحرية، فأوجدوا المدارس ونقلوا نشاطهم إليها.

لكن ابتكار المدرسة لم يلغ، في الواقع، نشاط الجوامع التعليمي حتى بعد انتشار المدارس في سائر أنحاء الدولة الإسلامية، فبقيت المساجد الكبرى مقصداً لعدد كبير من الطلبة والمدرسين للعلوم الدينية والدنيوية على السواء[27]، كجامع ابن طولون، وجامع الأزهر الذي حافظ على مستواه العلمي وهو اليوم من أهم الجامعات في العالم الإسلامي.

وكان التعليم في الجوامع في أغلبه تعليماً مجانياً يقوم به العلماء ممن يبتغون رضى الله ويطمعون بالحسنات[28]. أما من حيث مناهج الدراسة وطرائق التدريس، فإن طبيعة الجامع –كمكان مباح لجميع الناس– لم تسمح باعتماد مناهج معينة وفصول تراتبية، كما لم تكن تُخضع الطالب لأية امتحانات، بل كان من حق الطالب أن ينضم إلى حلقات التعليم التي يريد تبعاً لمستواه العقلي والعلمي. وعند الانتهاء من سماع كتاب أو حلقة عند أحد الشيوخ، كان الشيخ يعطيه إجازة بما سمع منه. وإذا ما اكتفى الطالب من الشيوخ، وأراد مطالعة الكتب، فإنه يستطيع أن يقرأ في الكتاب الذي يريد من الكتب الموجودة في مكتبة الجامع، إذ كان في كل جامع مكتبة عامة تحوي كتباً في مختلف العلوم والمعارف[29]. وكانت حلقات التعليم في الجوامع تنشط في فترة المساء التي اعتبرت الوقت الأمثل للنشاط التعليمي عند المسلمين[30]، وهذا ما جعل التعليم بمتناول كل راغب فيه لا يعيقه عائق.

وكانت حلقات التعليم في الجوامع تعقد على الشكل الذي اتبعه الرسول (ص) في مجالسه، فكان المدرس يجلس في زاويته (مستنداً إلى عمود أو حائط) على سجادته (جلد خروف) أو كرسي صغير، ويحيط به عشرات الطلبة بشكل حلقة نصف دائرية[31]. وأول ما كان يبدأ به المتعلم في الجامع، حلقات تحفيظ القرآن الكريم ودروس الكتّاب، فإذا أنهاها كاملة، ينتقل إلى دروس الحديث، حيث كان المدرس يقرأ الحديث ثلاث

---

[27]– ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص427؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص43، ص267؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص220؛ ابن الحاج: المدخل، ج2، ص 301.

[28]– كان التعليم في أغلب المساجد تطوعاً لوجه الله تعالى كجامع عمرو وابن طولون، أما في جامع الأزهر فكان التعليم على حساب الدولة وهي التي تدفع رواتب الفقهاء والمدرسين. حسين، حوري: المسجد ورسالته في الإسلام، ص116.

[29]– ابن خلكان: وفيات الأعيان، ترجمة أبي نصر المنازي، ج1، ص55؛ الولي، طه: المساجد في الإسلام، ص166؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P 413

[30]– متز، آدم: الحضارة الإسلامية، ص100.

[31]– المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص205؛ Pederson, Josh: Article Masdjid, Encyclopedie De L'Islam, Tome 6, P695

مرات ثم يعيده المعيد ليحفظه الطلاب غيباً[32]. وبعد أن يتم الطالب حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، تبدأ مرحلة جديدة من التعليم، يدرس فيها الطالب علوم التفسير، والبلاغة، والأدب، والتاريخ، والفلك، وما يشاء من العلوم[33].

2- الفرق بين المدرسة والجامع

من الصعب جداً الوقوف على الفرق بين الجامع والمدرسة، خاصة وأنهما يتشابهان كثيراً من حيث الشكل والدور. فمن حيث الشكل، نجد أن المؤسستين اتخذتا مساكن لطلابها القادمين من أماكن بعيدة، ومن حيث الدور، فكلتا المؤسستين شهدتا تعيين المدرسين والطلبة، وكلتاهما أقامتا الحلقات الدينية والعلمية، وشهدتا إقامة الفروض اليومية والمراسم الدينية جميعها، مما خلط الأمور إلى حد بعيد فأصبح التمييز بين المؤسستين أمراً صعباً. ومما زاد الأمر تعقيداً أن بعض المؤرخين أطلق على بعض المدارس، ومنها مدرسة السلطان حسن، اسم الجامع، عرّفه المقريزي بـ" جامع الملك الناصر حسن" ثم قال:"هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن..."[34]، في حين أطلق المسلمون اسم مدرسة على غرف التدريس داخل المساجد(أو خارجها بحيث تكون ملاصقة لها)[35]. فمتى تكون المؤسسة مدرسة، ومتى تكون جامعاً؟ وأين يكمن الفرق بين الاثنين؟ وما هي مقومات وأهداف كل من المدرسة والمسجد؟

إن المعاينة الدقيقة لكلتا المؤسستين (المدرسة والجامع) تظهر لنا فروقات وملامح دقيقة، ميّزت المدرسة من الجامع، وجعلتها تنجح في استقطاب الجزء الأكبر من حركة التعليم. ولعل الإجابة عن الأسئلة السابقة تتطلب إجراء مقارنة دقيقة بين المسجد والمدرسة للوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بينهما، على أن تكون المقارنة من حيث الشكل، والدور، والهيكلية.

(1) من حيث الشكل:لم تختلف المدرسة في الشكل كثيراً عن الجامع، ولكن إذا أمعنا النظر فيها نجد فروقاً قليلة ميّزتها عنه أهمها: **أولاً**، أنه من حيث المبدأ، لا توجد في المدارس منارة للأذان ولا منبر للخطابة، بالرغم من أن بعض المدارس قد شهدت بالفعل منبراً ومئذنة.

وثانيا، نلاحظ أن المدارس المملوكية بشكل خاص، والدور التعليمية بشكل عام، انفردت بظاهرة خاصة بها دون الجوامع، وهي أن الأشخاص الذين تطوّعوا بإنشائها ورصدوا لعمرانها المبالغ الطائلة، كانوا حريصين على

32- Pederson, J: Article Madrassa, EI2, T5,P1120 , P1126

33- Pederson, Josh: Article Masdjid, EI2, T 6,P695

34- المقريزي: الخطط، ج4، ص121.

35- زقلمة، أنور: المماليك في مصر، ص165. Pederson, J: Ibid, T5, P1122.

أن يقيموا في داخلها قبة تضم ضريحهم بعد وفاتهم. **وثالثاً**، أن المدارس تألفت من إيوان أو أكثر، تبعاً لما هي مخصصة له من العلوم أو المذاهب الفقهية، خصص لإقامة المجالس الدراسية (وهو يرادف قاعة المحاضرات في عصرنا اليوم). إضافة إلى ذلك، فقد ألحقت بالمدرسة المملوكية بعض المرافق العامة، كالمطبخ، والحمام، وحجرة الطعام وغيرها، عدا عن التقديمات التي تتحصل للطلبة والمدرسين من مردود الوقف. من هنا نستنتج أن المدرسة وإن شابهت الجامع بالشكل، إلا أنها اختلفت عنه بزيادة المرافق العامة التي كان الهدف منها تأمين كافة احتياجات الطلاب وراحتهم المعيشية، ليستطيعوا التفرغ للدراسة[36].

(2) **من حيث الدور**: بعد انتشار المدارس في الحواضر الإسلامية، استمر الجامع يقوم مقام المدرسة[37] ويخرّج فقهاء ومحدّثين بنفس مستوى المدارس، خاصة وأن المدرّسين أنفسهم كانوا يدرّسون في المكانين. إلا أن المدرسة استطاعت أن تنظم مسارها التعليمي إلى حد ما أكثر من الجوامع. فقد اعتمدت المدارس المراحل التعليمية في فصول شبه متتالية وشبه مغلقة ومحدودة العدد، يخضع الطلبة في نهايتها لنوع من الإمتحانات ليحصلوا من بعدها على الإجازات، في حين أن الجوامع بقيت على طريقتها في إقامة المجالس العفوية والمفتوحة للجميع دون أن يراعى المستوى العلمي للطلبة، على أن المواد الدراسية لم تختلف كثيراً بين الاثنين.

أما فيما يتعلق بالعلماء والمدرّسين، فكانوا في ذلك الوقت قد احترفوا التعليم كمهنة لكسب العيش ما اضطر أكثرهم إلى ترك التعليم في الجوامع لأنه كان تعليماً مجانياً[38]، والتوجه إلى التعليم في المدارس التي كانت تخصص لهم رواتب شهرية.

(3) **من حيث الهيكلية التنظيمية (النظام الشرعي)**: إن الجامع والمدرسة مؤسستان شرعيتان تقومان على نظام الوقف الذي يسمح للواقف بأن يشترط ما يريد في الأمور المتعلقة بالمؤسسة التي وقف لها،

شرط أن لا يعارض أية قاعدة إسلامية. فإذا كانت المؤسسة مدرسة، يحق للواقف أن يعين من يريد في أي منصب يريد، وخاصة المدرسين إلا إذا كان فيها مسجداً فيكون تعيين الإمام فيه حقاً حصرياً للخليفة. وكذلك في حال كانت المؤسسة مسجداً، فإن أي تعيين فيه يكون بيد صاحب الوقف- خاصة إذا كان فيه درس فيعود أمر تعيين المدرس مباشرة إلى الواقف بلا أي شك[39]- عدا طبعاً تعيين الإمام.

Pederson, J: Article Madrassa, EI2, T5, p1123 -[36]

Pederson, J: Ibid, p1122 -[37]

[38]- شلبي، أحمد: موسوعة النظم و الحضارة الإسلامية، ج5، ص234.

Pederson, J: Ibid, p1125 -[39]

3- أشهر جوامع مدينة القاهرة التعليمية

كثرت الجوامع في العصر المملوكي الأول في مدينة القاهرة وضواحيها خصوصاً في أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها، فعمر بها من الجوامع ما زاد عدده على المئة وثلاثين مسجداً[40]، منها ما أنشىء في عهد المماليك، ومنها ما أُنشيء قبله. فالمماليك شُهروا ليس فقط ببناء الجوامع، بل بترميم القديم منها - بخاصّة الفاطمية - وتوفير الأوقاف لها وتنشيط الحلقات التعليمية فيها، وذلك لاهتمامهم بكل ما يظهر ميولهم الإيمانية وعواطفهم الدينية. ومن أشهر الجوامع التي أنشأها المماليك، جامع الحسينية الذي بناه الظاهر بيبرس سنة 669هـ/1433م، والجامع الجديد الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون سنة 712هـ/1312م، كما بنى أمراؤه حوالى ثلاثين جامعاً[41]، منها جامع الأمير شيخو الذي شهد دروس الفقه للمذهبين الشافعي والحنفي ودرس للحديث[42].

وفي العادة، كان السلطان يفتتح الجامع بنفسه، فيجلس على تخت في صحن الجامع ويجلس في المحراب قاضي القضاة، وعن يمين السلطان ابنه أو نائبه، وعن يساره قضاة القضاة ومشايخ العلم. ومن أهم الجوامع التي نشطت فيها العلوم الدينية في العصر المملوكي:

(1) **الجامع العتيق**: هو أول جامع أسس في فسطاط مصر بعد الفتح، بناه عمرو بن العاص سنة 21هـ/642م[43]، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ويقال له جامع عمرو بن العاص، وتاج الجوامع، ومسجد أهل الراية. وصفه الرحالة ناصر خسرو عندما زاره سنة 439هـ/ 1047م بقوله:"وفي المسجد حلقات درس دائمة وقراء كثيرون، وذلك المسجد من معالم مصر البارزة، ولا يوجد أقل من خمسة آلاف شخص في المسجد في أي وقت من أوقات الليل والنهار، فساحات المسجد لا تخلو من طلاب العلم والغرباء"[44]، أما المقدسي، فقال إن عدد المصلين في هذا الجامع يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل[45].

---

[40]- المقريزي: الخطط، ج4،ص3؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3،ص413؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر ،ص ص 317-342.

[41]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص212؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص145.

[42]- المقريزي: السلوك، ج4، ص157.

[43]- السيوطي: المصدر السابق، ج2،ص213؛ ابن دقماق: الإنتصار، ج4، ص62؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص5.

[44]- ناصري خسرو: رحلة سفر نامة، ص106.

[45]- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص166.

وفي عصر المماليك البحرية، وتحديداً في سنة 749هـ/1348م، بلغ عدد حلقات العلم في هذا الجامع بضعاً وأربعين حلقة أو زاوية[1] على درجة عالية من العلم، لبضعة وأربعين شيخاً[2] من أعيان الفقهاء وجلّة العلماء، كان أهمها الزاوية الخشابية بشرق الجامع، والزاوية المجديّة بصدره[3]، وغيرها الكثير من الحلق التي بحثت في مختلف العلوم والمعارف السائدة في ذلك الوقت مثل: الفلسفة، والكيمياء، والفلك، والطب، والهندسة، والرياضيات، وعلوم اللغة، وعلم الكلام وغيرها[4].

ولما كان مسموحاً للنساء في العصر المملوكي أن يتلقين العلم، فقدكان لهن زاوية خاصة بهن[5] في هذا المسجد عيّنت لها فاطمة بنت عفان بن عثمان البغدادي لتعليم النساء وتفقيههن[6].

وممن عني بهذا الجامع في عهد المماليك القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، والظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون وغيرهم[7].

(2) جامع الأزهر: هوأول جامع أقيم بمدينة القاهرة، فارتبط تاريخه بتاريخها، بناه القائد جوهر الصقلّي مولى المعز لدين الله الفاطمي لما اختطّ المدينة. شرع في بنائه في شهر جمادى الأولى سنة 359هـ/ 970م، وانتهى منه وأقيمت أول صلاة جمعة فيه، سنة361هـ/971 م[8]، ثم لم يلبث هذا الجامع أن أصبح جامعة يتلقّى فيها الطلاب مختلف العلوم والفنون، منذ سنة 378هـ/988م، حين أشار الوزير يعقوب بن كلِّس على الخليفة العزيز بالله الفاطمي بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرّس فيها العلوم الدينية والدعوة الفاطمية[9]، حيث

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4، ص22؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص218.

[2]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص22؛ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص218.

[3]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص22؛ Pedersen, J: Article Madrassa, EI2,T5, P1122؛ ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص ص 100 -101.

[4]- حسين، حوري: المسجد ورسالته في الإسلام، ص117.

[5]- هي زاوية السيدة نفيسة بنت الحسين التي اتخذتها مكاناً للعبادة ولتعليم النساء.

[6]- حسين، حوري: المرجع السابق، ص117.

[7]- السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص216؛ سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ج2، مج3، ص33.

[8]- السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص221؛ المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص51-52؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص87؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص32؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ق1، ص217؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص123؛ حوري، حسين: المرجع السابق، ص91؛ سرور، محمد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ص68-71؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص90؛ فكري، أحمد: مساجد القاهرة ومدارسها، ص41؛ Jomier, J: Article Al- Kahira , EI2, T4,P447 ;Sauvaget, Jean: Historiens Arabes, P160

[9]- المقريزي: الخطط، ج4، ص52، ص162؛ اتعاظ الحنفا، ج1، ص227؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص87؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص414 السيد، أيمن: الدولة الفاطمية في مصر، ص585؛ حسن، ابراهيم: تاريخ الإسلام، ج1، ص579؛ الولي، طه: المساجد

بادر ابن كلّس، إلى تعيين جماعة من العلماء والفقهاء على رأسهم أبي يعقوب قاضي الخندق، ليدرّسوا الناس العقيدة الفاطمية ويشرحون الفقه الإسماعيلي للعموم[1]. كما جلس في هذا الجامع ايضاً، كل من القاضي علي بن النعمان سنة 365هـ/976م، ليملي مختصراً في الفقه الشيعي يعرف "بالاقتصار"[2]، والنعمان بن أبي عبد الله محمد بن حيّون القيرواني (ت363هـ/973م) وهو صاحب كتاب "دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام" وهو يعتبر من المراجع الفقهية الرئيسية عند الإسماعيليين[3]، بالإضافة إلى مجلس فقه مخصص للنساء[4].

وعندما تدهورت دار الحكمة وأغلقت في سنة 516هـ/1122م، تحولت العلوم العقلية التي كانت تدرّس فيها إلى الجامع الأزهر[5]، فبدأت تعقد فيه حلقات علمية لعدد من المشاهير مثل: بنو النعمان (علي ومحمد والحسين)، والمؤرخ ابن زولاق، والمنجم ابن يونس، والمؤرخ المسبحي، وغيرهم[6]. كما شهد هذا الجامع أيضاً دروساً في الهندسة التي على يد المهندس الحسن بن الهيثم، الذي نزل بديار مصر في عهد الحاكم بأمر الله، وأقام فيه واشتغل بالإفادة والتصنيف والنسخ[7]. وبحسب المقدسي، كان هذا الجامع وغيره من جوامع القاهرة، يغص بين العشاءين بحلقات الفقه والعلم وأهل الأدب والحكمة، وقد عدّ فيه مائة وعشرة مجلساً، فإذا أقيمت الصلاة، يقوم نحو الثلث[8].

في الإسلام، ص 403؛ عنان: تاريخ الجامع الأزهر،ص43؛ ; Pedersen, J: Article Madrassa, EI2, T5,P1120
Sauvaget, Jean: Ibid, P160; Jomier, J: Article Al- Kahira , EI2, T4, P447

[1]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص52،ص162؛ اتعاظ الحنفا، ج1،ص227؛ النويري: المصدر نفسه، ج30،ص87؛ القلقشندي: المصدر نفسه، ج3،ص414 ؛ السيد، أيمن فؤاد: المرجع نفسه، ص585؛ الولي، طه: المرجع نفسه، ص493؛ عنان: تاريخ الجامع الأزهر، ص43-44؛ Pedersen, J, Ibid, p1120

[2]- المقريزي: المصدر نفسه، ص162؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص149؛ الولي، طه: المرجع نفسه، ص493 ؛ Pedersen, J, Article Madrassa, T5,p1120

[3] - الولي، طه: المرجع نفسه، ص494.

[4]- المقريزي: المصدر السابق،ج2، ص260.

[5]- الرزاز، حسن: المرجع السابق، ص149؛P447, ماجد، عبد المنعم: نظم الفاطميين، ص ص39-55.

[6]- الرزاز، حسن: المرجع نفسه، ص149.

[7]- ابن القفطي: أخبار الحكماء، ص115؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص505.

[8]- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص171.

وفي العهد الأيوبي، اقتصر الأزهر على دوره العلمي، حيث قام موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين الخاص بإلقاء دروس في الرياضة والفلك والطب فيه، كما عيّن العزيز عثمان بن صلاح الدين، الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي كان في زيارة لمصر، أستاذاً فيه لتدريس الطب والفلسفة[1].

أما في العهد المملوكي، فقد استمر جامع الأزهر كمنارة للعلم والحضارة، حيث شهد عصراً ذهبياً وتكرس جامعة اسلامية عظمى بفضل اهتمام المماليك وتشجيعهم للعلم. ففي سنة 665هـ/ 1266م، بادر الأمير عز الدين أيدمر الحلّي بترميم هذا الجامع وفرشه واستجدّ فيه مقصورة قرّر فيها بعض الدروس الدينية ودرساً للفقه الشافعي عيّن له مدرّس وجماعة من الفقهاء الشافعيين، كما عيّن محدثاً للحديث النبوي، وشيخاً للرقائق[2]، وشيخاً لإقراء القرآن الكريم يعاونه سبعة مقرئين. كما أعاد الأمير عز الدين لهذا الجامع صلاة الجمعة وخطبتها[3]، بعد أن نال موافقة الظاهر بيبرس. ولما حدثت في مصر الزلزلة الشهيرة سنة 702هـ/ 1303م، تولى الأمير سلار عمارة هذا الجامع، وبنى فيه غرفاً عديدة للتدريس وبأجر مدفوع.[4]

وفي سنة 725هـ/1324م، تم تجديد عمارة الجامع الأزهر مرة أخرى، على يد القاضي نجم الدين محمد بن حسين الإسعردي محتسب القاهرة، وأيضاً في سنة761هـ/1359م في عهد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، على يد الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري الذي أنشأ في بابه القبلي سبيل ماء، وعمّر فوقه مكتب سبيل للأيتام، كما رتب في محرابه الكبير مدرساً للفقه الحنفي[5].

وبناءً على ذلك، أصبح يؤم هذا الجامع عدد كبير من أهل العلم، يقيمون فيه حلقات علوم الدين والفقه، وعلوم العقل والمنطق، ودروس اللغة والأدب، وحلقات الوعظ، ومن أشهرهم: العلامة الشاعر عمر ابن الفارض، والشيخ أبا القاسم المنفلوطي، والشيخ شمس الدين الأتابكي، وسعد الدين الحنبلي، والشيخ جمال الدين الأسيوطي، والشيخ شهاب الدين السهروردي، والمؤرخ شمس الدين بن خلكان، والحافظ ابن حجر العسقلاني، وتقي الدين احمد المقريزي، وأحمد بن علي القلقشندي، والمقري الذي درّس

---

[1]- حسين، حوري: المسجد و رسالته في الإسلام، ص117؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص406.

[2]- مفردها رقيقة. ويقال الرقاق ومفردها رقيق.لفظ اصطلاحي يطلق على نوع خاص من الأحاديث النبوية.سميت كذلك لما فيها من الوعظ والحمة والتنبيه ما يجعل القلب رقيقاً رحيماً. النويري: نهاية الأرب،ج30،ص87،ح2.

[3]- المقريزي: الخطط، ج4، ص55؛ السلوك، ج2، ص42؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص222؛ النويري: المصدر نفسه، ج30، ص87؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، تحقيق محمد الخطيب، ص79؛ الولي، طه: المساجد في الإسلام، ص512؛ فكري، أحمد: مساجد القاهرة،ج1،ص43؛ Sauvaget, Jean: Historiens Arabes, P166

[4]- Pedersen, J: Article Madrassa, EI2,T5,P112 ; Sauvaget, Jean: Ibid, P167

[5]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص56؛ Sauvaget, Jean: Ibid, P168

فيه الحديث[1]، وابن خلدون الذي قال:"لما دخلتها (يقصد القاهرة)، أقمت أياماً، وانثال علي طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلّة البضاعة، ولم يوسعوني عذراً فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها"[2]. في حين ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى مصر، في غضون القرن الثامن الهجري، أنه تعرّف على كثير من العلماء الأزهريين الذين ساهموا في الحياة الفكرية فيها، فذكر منهم شمس الدين الأصفهاني، وشرف الدين الزواوي المالكي، وبرهان الدين ابن بنت الشاذلي، وركن الدين ابن قوبع التونسي، وشمس الدين ابن عدلان الشافعي، وأثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغناطي النحوي[3].

وبوجود هؤلاء الأعلام، غصّ الجامع الأزهر في عصر المماليك البحرية بنشاط علمي على درجة عالية من الأهمية، حتى قال المقريزي:"فلا يزال هذا الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والإرتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره..."[4].

وأضيفت عدة مدارس إلى مباني هذا الجامع وعمارته الفاطمية، اثنتان منها في العصر المملوكي الأول، تقع إحداهما إلى يمين الداخل من الباب البحري الشمالي وهي المدرسة "الطيّبرسية" التي أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش عام 709هـ/1309م، وجعلها مسجداً لله تعالى زيادة في الجامع الأزهر[5].

أما الثانية فتقع إلى يسار الداخل من نفس الباب وهي المدرسة "الأقبغاوية" أنشأها الأمير علاء الدين آقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، سنة 739هـ/ 1338م وقرّر فيها درساً للشافعيّة وآخر للحنفيّة كما جعل فيها عدة صوفيين وشيخهم وطائفة من القرّاء يقرأون كتاب الله عز وجلّ[6].

---

[1]- الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص406؛ حسين، حوري: المسجد ورسالته في الإسلام، ص118.

[2]- ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص201.

[3]- ابن بطوطة: الرحلة، ص25-26.

[4]- المقريزي: الخطط، ج4، ص57.

[5]- العسقلاني: الدرر الكامنة،ج3، ص229، رقم 2054؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص719؛ المقريزي المصدر نفسه، ج4،ص231؛ ماجد، عبد المنعم: نظم الفاطميين، ص 44؛ الولي، طه: المساجد في الإسلام، ص480؛ الرزاز، حسن: المرجع السابق، ص146؛ أما في السلوك،ج3، ص20، فيذكر أن عمارتها تمت في سنة 729هـ. ويذكر ابن دقماق أن هذه المدرسة كانت تدرس الفقهين الشافعي والمالكي، وعين طيبرس لكل مذهب مدرس ومعيد وخمسة عشر طالباً، كما عمّر فيها مكتباً للسبيل. ابن دقماق: الانتصار، ق1، ص97؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P100.

[6]- المقريزي: الخطط،ج4، ص233؛ العسقلاني: الدرر الكامنة، ص276؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج9، ص111؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص 146؛ الولي، طه: المساجد في الإسلام، ص481؛ Sauvaget, Jean: Historiens Arabes,P169



صحن جامع الأزهر عن شبكة الأنترنت

(3) **جامع ابن طولون**: بناه الأمير أبو العباس أحمد ابن طولون في القطائع[1] على جبل يشكر سنة 263هـ/877م[2]، وقيل سنة 259هـ/873م[3]، وانتهى منه سنة 265هـ/878م[4]. تكمن أهمية هذا الجامع

[1]- لما ولي أحمد ابن طولون على مصر، أحب أن يبني لنفسه قصراً فبنى القطائع، وكان بمساحة ميل في ميل وفي العصر المملوكي أصبح في موضع هذا القصر الميدان السلطاني وقلعة الجبل. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص 15.

[2]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص218؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص39.

[3]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج3،ص386؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج3، ص255؛ ابن دقماق: الانتصار، ص122.

[4]- ابن دقماق: المصدر نفسه، ج4،ص123؛ المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص39؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر،ص ص 78-83.

أنه ومنذ افتتاحه وطيلة المراحل اللاحقة، كان مركزاً لتدريس الحديث الشريف وصرحاً علمياً من الدرجة الأولى حيث شهد الدروس الدينية والدنيوية معاً، كالفقه والحديث والطب وغيرها[1].

وعندما استولى السلطان لاجين على دست السلطنة المملوكية، سنة 696هـ /1296م[2]، كلّف الأمير علم الدين سنجر الدواداري بشراء الأوقاف وحبسها على هذا الجامع وترميمه وتوسيعه، وتعيين درس تفسير فيه، وآخر للحديث، إضافة إلى دروس فقهية للمذاهب الأربعة، ودروس في القراءات، والطب، والميقات[3]، وجعل لكل درس مدرّساً وعدداً من المعيدين والطلبة، وجعل بجواره مكتباً لتعليم وتحفيظ أيتام المسلمين القرآن الكريم[4]. وفي سنة 767هـ/ 1365م، جدد الأمير يلبغا العمري الخاصكي فيه درساً للفقه الحنفي يقوم به سبعة مدرّسين[5].

(4) **جامع الحاكم**: ويقال له الجامع الأنور، بدأ في عمارته، في ظاهر مدينة القاهرة من جهة باب الفتوح، العزيز بالله الفاطمي سنة 380هـ/990م[6]، إلا أنه مات قبل أن يتمّه، فأكمله ابنه الحاكم بأمر الله سنة 393هـ/1002م[7]، وجدده في العهد المملوكي الأمير بيبرس الجاشنكير، إثر زلزلة سنة 702هـ/1302م، ورتّب فيه دروساً لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة، ودرس حديث، ودرس نحو، وآخر للقراءات السبع[8]، وقد جاء تعيين الفقهاء على الشكل التالي: في تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي، وفي تدريس الفقه الشافعي قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي، ولتدريس الفقه المالكي قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي، وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الحراني الحنبلي، وجعل لكل مدرس معيدين يساعدانه. كما عيّن درساً في الحديث النبوي يلقيه الشيخ سعد الدين مسعود الحارثي ومعيد، وآخر في النحو يدرّسه الشيخ أثير الدين أبا حيّان الغرناطي، وتاج الدين محمد

---

[1]- السيوطي: المصدر السابق، ج2،ص219؛ Pedersen, J: Article Madrassa, EI2, T5, p1120

[2]- السيوطي: المصدر نفسه، ج2،ص220؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص203.

[3]- الميقات، هو علم يتناول أزمنة الأيام والليالي وأحوالها وكيفية التوصل إليها ومنفعته في معرفة أوقات العبادات ونواحي جهتها والطوالع والمطالع من إجراء البروج والكواكب الثابتة التي منها منازل الشمس والقمر ومقادير الأظلال والإرتفاعات وانحراف البلدان وسموتها. طاش كبري زادة: مفتاح السعادة، ج1، ص388.

[4]- السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص220؛ النويري: المصدر السابق، ج31، ص203؛ المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص43؛ السلوك، ج2، ص279؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج8، ص107؛ ؛ ابن دقماق: المصدر السابق، ج4، ص124.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص44؛ النويري: المصدر نفسه،ج31،ص203.

[6]- النويري: المصدر نفسه،ج28، ص111؛ Jomier, J: Article Al- Kahira , EI2, T4,P447

[7]- النويري: المصدر نفسه،ج28، ص203؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين،ج1، ص219؛ السيوطي: المصدر السابق،ج2، ص222.

[8]- السيوطي: المصدر نفسه، ج2،ص222؛ المقريزي: الخطط، ج4،ص60؛ Sauvaget, Jean: Historiens Arabes, P167

البارنباري، وثالثاً في القراءات السبع يدرّسه الشيخ نور الدين الشطنوفي. أما في دروس العلوم عيّن علاء الدين علي بن اسماعيل القونوي، والشيخ زين الدين الكتاني، وفي مشيخة الميعاد[1] المجد عيسى بن الخشاب. كما رتب في هذا الجامع عدة متصدّرين لتلقين القرآن الكريم وعدة قراء يتناوبون القراءة، وجعل لكل مدرس عدة من الطلبة وجعل فيه خزانة كتب مهمة وجعل بجانبه مكتباً لتعليم الأيتام وتحفيظهم القرآن الكريم[2].

ثانياً: المكتبات

لا يحتاج دور الكتاب في حركة التعليم لشرح أو تعليل، فإنه جليّ واضح لا يكتنفه أي غموض، فهو ثالث الثالوث الذي تقوم عليه العملية التربوية، لاسيّما في العصر الوسيط. وبناء عليه، يتضح دور المكتبات أيضاً في هذا المجال، ونجد أنه لا مناص من اعتبارها أحد أمكنة التعليم الإسلامي، وليس ذلك بجديد. فقد سبق وأن اعتمد البطالسة مكتبة الإسكندرية لنفس الهدف، ومن بعدهم العباسيون في بيت الحكمة، وعلى هذا الأساس أنشأ الفاطميون دار العلم. وبذلك تكون المكتبات قد شكّلت النواة الأساسية للمدارس الإسلامية، لأنها قامت بمهمة المدارس العلمية بالإضافة إلى الخدمات التي كانت تؤديها كدار للكتب[3].

1- نشأة المكتبات

بدأت المكتبات تظهر في الدولة الإسلامية مع بداية حركة النقل والترجمة، وسرعان ما انتشرت نتيجة عوامل عديدة أهمها الحركة العلمية الناشطة التي تطلبت تنشيط علم المكتبات من حيث تصنيف الكتب وجمعها وتجليدها من جهة[4]، وانتشار الورق ومصانعه وأسواق بيعه من جهة أخرى[5]، تزامناً مع توسع حركة النقل والترجمة لكتب الطب، والهندسة، والكيمياء، والفلسفة [6].

2- أبنية المكتبات أنواعها ونظام العمل فيها

[1]- الميعاد، لغة: المرجع، وشرعاً الإيمان بالبعث والجزاء بعد الموت. واصطلاحاً تصديق الله تعالى ورسوله (ص) في كل ما أخبرا به من حياة الناس بعد موتهم، وحشرهم وحسابهم على أعمالهم. الجزائري، جابر: العلم والعلماء، ص44.

[2]- المقريزي: الخطط، ج4، ص60؛ النويري: نهاية الأرب، ج32، ص58-60.

[3]- ابن القفطي: أخبار العلماء، ص30؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص925.

[4]- اشتهر المسلمون بشغفهم في مطالعة الكتب وتقديرها، ولذلك عمدوا إلى وضع مجموعة من الآداب والمعايير للتعاطي معها والتي نظمت عملية اقتنائها وشرائها ومطالعتها واصلاحها وحفظها وغير ذلك. ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص ص 152-158؛ شلبي، أحمد: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج5، ص ص 155-157.

[5]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص224؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P 414

[6]- ابن القفطي: أخبار العلماء، ص24.

من خلال وصف المقريزي لدار الحكمة الفاطمية، نتبيّن أن أبنية المكتبات الإسلامية كانت فسيحة جداً، متعددة الحجرات، يربط بينها أروقة واسعة. وفيها لكل نوع من العلوم حجرة خاصة به تقام فيها حلقات التدريس، كما تحتوي على مكان خاص للمطالعة، وآخر للنسخ والتجليد. وكانت رفوف الكتب تثبت إلى الجدران، وتوضع عليها الكتب بطريقة خاصة. وكانت جميع الحجرات تؤثث تأثيثاً فخماً ومريحاً، وتفرش أرضها بالبسط والحصير، وتوضع ستائر سميكة للأبواب والنوافذ[1].

ويشرف على خزانة الكتب شخص أطلق عليه اسم "خازن الكتب"، وكان يشترط فيه أن يكون ثقة، يقظاً، ذكياً، نزيهاً، عالماً بالكتب وأهميتها، قادراً على إحصائها وترتيبها على الرفوف والقيام بخدمة إعارتها. لذلك حرص الواقفون على أن يتولى هذه المهمة عالم أو أديب يكون دليلاً للطلبة مساعداً لهم قادراً على توجيههم وإرشادهم إلى ما يبحثون عنه.

أما عن نظام الإعارة والاطلاع، فقد حدده الواقفون بدقة تامة، كما حددوا بقية القوانين والأعراف المتعلقة بالمدرسة، فمنهم من منع إخراج الكتب نهائياً من المدرسة، فمثلاً كان القائم على مكتبة المدرسة الناصرية الجديدة، يحفظ ما فيها من الكتب، ويضبط ما يؤخذ منها للاشتغال بها، ولا يسمح أن تخرج الكتب من المدرسة[2]، ومنهم من سمح بإعارتها شرط الحفاظ عليها وإعادتها خلال مدة معينة بعد أن يدفع الطالب مبلغاً صغيراً من المال.

ولقد توزعت المكتبات في القاهرة على ثلاثة أنواع أساسية هي[3]:

- المكتبات العامة.
- المكتبات الخاصة.
- المكتبات بين العامة والخاصة

[1]- المقريزي: الخطط، ج2، ص379.

[2]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص47.

[3]- شلبي، أحمد: المرجع السابق، ج5، ص181.

(1) **المكتبات العامة في القاهرة المملوكية:** بدأ انتشار المكتبات العامة في مدينة القاهرة، في القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي[1]، حين أقام الفاطميون مكتبتهم الخاصة داخل قصر الخلافة، وأخرى عامة خارجه أطلقوا عليها اسم دار العلم، وهي أول مكتبة عامة قامت على مبدأ الوقف[2].

وفي العصر الأيوبي، اشتهرت المكتبة الفاضلية[3]، وكانت مكتبة خاصة للقاضي الفاضل الذي أتبعها سنة 580هـ/1184م، بمدرسته التي عرفت بالاسم نفسه[4] وكانت تحوي مائة ألف مجلد في سائر العلوم[5].

أما في العصر المملوكي الأول، فلم تعرف مدينة القاهرة مكتبة عامة مستقلة كدار العلم الفاطمية، بل شاعت فيها المكتبات العامة المدرسية بكثرة، حتى كان في كل مدرسة مكتبة، كما في كثير من الجوامع والخوانق والقبب والمشاهد. وكانت هذه المكتبات تحوي كتباً متنوعة، تتفاوت في حجمها باختلاف حجم المؤسسة وحجم وقفها ومكانة واقفها، ما يعني أن المكتبات المدرسية العامة قد اعتمدت هي الأخرى اعتمادا كاملا على الوقف الذي خصصه لها المهتمون بأمرها.

والجدير ذكره أن معظم هذه المكتبات كانت تتلقى التبرع والدعم من العلماء والمدرسين الذين غالباً ما كانوا يوصون بوقف مكتباتهم الخاصة وكتبهم للمؤسسة التي يدرّسون فيها حتى وفاتهم، كالشيخ صفي الدين القرافي، الذي وقف كتبه على الخانقاه الشميصاتية[6]، والطبيب ابن النفيس الذي وقف مكتبته على البيمارستان المنصوري[7]، وأبو نصر المنازي الذي أوقف مكتبته على الجامع العتيق[8].

وقد استطاعت المكتبات العامة أن تقدم عوناً كبيراً لطلبة العلم والباحثين غير القادرين على اقتناء الكتب بسبب ندرتها وغلاء ثمنها، فوضعت الكتب والمؤلفات العلمية والأدبية في متناول أيديهم، خاصة وأن دخولها كان مباحاً للجميع، بعكس المكتبات الخاصة[9].

1- Eche, Youssef: Les Bibliotheques Arabes, P74

2- المقريزي: الخطط، ج2،ص379-380؛ اتعاظ الحنفا،ج2، ص56-57؛ القلقشندي: صبح الأعشى ،ج3، ص413؛ Eche, Youssef: Ibid, P74

3- المقريزي: الخطط، ج4، ص 204؛ج2، ص292؛ السلوك، ج1، ص199؛ Eche, Youssef: Ibid ,P251-253

4- المدرسة الفاضلية، تقع هذه المدرسة في درب ملوخيا، وكانت موقوفة على الفقهين الشافعي والمالكي، وفيها قاعة لإقراء القرآن الكريم. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص204؛ المصدر نفسه، ج1، ص199.

5- المقريزي: الخطط، ج4، ص205. على الأرجح كان عدد كتب هذه المكتبة أكثر من ذلك بكثير.

6- الكتبي: فوات الوفيات، ج4، ص98.

7- ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج7 ،ص377؛ المقريزي: السلوك ج1، ص746؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج1، ص260؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص55؛ الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، ص230.

8- ابن خلكان: المصدرنفسه، ج1،ص55.

9- يقول ابن سينا أنه استأذن سلطان بخارى نوح بن منصور، وكان يطببه ان يدخل إلى دار كتبهم. القفطي: أخبار العلماء، ص271.

ومن أهم المكتبات المدرسية المملوكية:

أ- مكتبة القلعة: خصصت هذه المكتبة على الأرجح، لاستعمال المماليك الخاص، كونها أقيمت داخل قلعة الجبل، وهي مقرهم الخاص والرسمي. كانت مكتبة عامرة، حملت إليها الكتب سنة 626هـ/ 1229م، من مكتبة القاضي الفاضل بعد أن تم وضع اليد عليها، وكانت عدتها ثمانية وستين ألف مجلد حملها تسعة وخمسون جملاً على ثلاث دفعات[1]. ضمّت هذه المكتبة مصنفات وكتباً كثيرة في الفقه والحديث، والتاريخ، والسّير، وعامة العلوم ما لم تشهده مكتبة مملوكية أخرى. وقع فيها حريق يوم الجمعة رابع صفر سنة 691هـ/1292م، فتلف أكثر كتبها، وضاع الباقي بين أيادي الناس[2].

ب- مكتبة القبة المنصورية: وصفت هذه المكتبة بأنها من أعظم العمائر المملوكية، وقد احتوت على عدة أحمال من الكتب المهمة في مختلف أنواع العلوم كالتفسير، والحديث، واللغة، والطب، والشعر، إضافة إلى الختمات الشريفة والربعات[3].

ج- المكتبة المحمودية: هي الأخرى من أهم وأضخم المكتبات العامة المدرسية في العصر المملوكي الأول. أنشأها في المدرسة المحمودية صاحبها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار سنة 797هـ/1396م. ورد في "الخطط" أنه لم يكن في مصر ولا في الشام مثلها، لأنها كانت عامرة بالكتب والمخطوطات والمؤلفات الاسلامية والعلمية المهمة، التي جمعها البرهان ابن جماعة قبل أن يشتريها الأمير محمود، وقد بلغت أكثر من أربعة آلاف مجلداً مفهرسة[4]، وكلها مؤلفات هامة لكبار العلماء والأدباء والمؤلفين المسلمين[5].

وتكمن أهمية هذه المكتبة أن خازنها عثمان فخر الدين البكري اتّبع فيها نظام إعارة صارمٍ، تتّبعه معظم المكتبات الحديثة، ساعد في المحافظة على محتوياتها، مطبقاً كتاب وقفها الذي اشترط فيه صاحبها الأمير محمود أن لا تعار كتبها إلى خارج المكتبة إطلاقاً أياً كان الطالب[6]، إلا إذا كان من طلاب المدرسة المحمودية نفسها ولمدة محدودة فقط[7].

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج1، ص355.

[2]- المقريزي: الخطط، ج3، ص370؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص32؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص254.

[3]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4،ص227؛ النويري: نهاية الأرب،ج31،ص 73؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص52.

[4]- السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص128.

[5]- Eche, Youssef: Ibid,P257.

[6]- حتى لو كان من أكابر الدولة ومهما دفع في سبيل ذلك من المال. السخاوي: الضوء اللامع ،ج5،ص128.

[7]- السخاوي: المصدر نفسه،ج5،ص128؛ المقريزي: الخطط،ج4، ص251؛ Eche, Youssef: Les Bibliotheques, Arabes,P 257

(2) **المكتبات الخاصة في القاهرة المملوكية**: كانت منتشرة وكثيرة في العصر المملوكي الأول، أشهرها – مكتبة شافع بن علي بن عباس بن عساكر الكناني العسقلاني، المولود في القاهرة سنة 649هـ/ 1251م. كان يباشر الإنشاء إلى أن عمي فلازم بيته يجمع الكتب حتى امتلك ثماني عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة، وكان إذا لمس الكتاب، يعرف متى اشتراه وما كان ثمنه[1].

– مكتبة الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (ت743هـ/1342م)، وكان مدرساً للعلوم الاسلامية، امتلك مكتبة نفيسة ضمّت الكثير من المؤلفات والتصانيف الإسلامية. كان الطيبي محباً لطلبة العلم غيوراً على مصالحهم، فكان يعير الكتب لمن يطلبها منه من أهل بلده ولغيرهم من سائر البلدان، سواء أكان يعرف الطالب أو لا يعرفه[2]. وكذلك مكتبة الإمام نور الدين علي ابن جابر في القاهرة، الذي وجد في خزانة كتبه يوم وفاته سنة 725هـ/1325م ستة آلاف مجلد وكتاب لأهم المؤلفين.

وتجدر الإشارة، إلى أنه قد ظهر في العصور الاسلامية نوع من المكتبات كانت بمثابة دار للنشر، بحيث كان القائمون عليها يوظفون نسّاخاً ينسخون الكتب ليبيعوها. ومن أشهر هذه المكتبات، مكتبة أفرائيم بن الزّفان أحد الأطباء المشهورين بالديار المصرية. كان الزفان صاحب همة عالية في تجميع الكتب، وكان عنده أُجراء يقومون بنسخها حتى أصبح عنده مجموعات كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، يبيعها لمن يرغب بها[3]. وكذلك مكتبة ناصر بن علي بن خلف المعروف بابن صورة الكتبي، الذي كان يبيع الكتب في داره كل يوم أحد وأربعاء[4]، ومكتبة ابن أبي الربيع[5].

ثالثاً: الخوانق

"الخوانق" أو "الخوانك": مفردها "خانقاه" و"خانكاه"، عرّفها المقريزي بأنها كلمة فارسية الأصل، معناها الموضع الذي يأكل فيه الملك. ويضيف بأنها حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من الهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. وأن أول من لقب بـ " الصوفية " قبل المائتين من الهجرة،

---

[1]– الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص93.
[2]– الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص156.
[3]– ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص524.
[4]– الكتبي: المصدر السابق، ج4، ص184.
[5]– السخاوي: المصدر السابق، ج3، ص189.

"خواص أهل السنة وأكابرهم ممن لهم عناية شديدة بأمر الدين من الزهاد المراعين أنفسهم مع الله تعالى، الحافظين قلوبهم عن طوارق الغفلة "[1]. كما عرّفهم الغزالي بأنهم السالكون لطريق الله[2].

والخوانق عبارة عن أماكن خاصة تقام للعبادة والتّنسك في ظاهر المدن، في نواح يسودها الهدوء والسكينة، يمارس الصوفية فيها طقوسهم الروحية وشعائرهم الدينية ويقرأون القرآن الكريم والأوراد. فهي تشبه الأربطة[3] والزوايا[4] في أهدافها وطبيعتها إلا أنها أكبر منها حجماً وأفخم أثاثاً.

ولقد اختلف العلماء حول نشأة التصوف وأصله، فمنهم من قال بأنه عراقي الأصل يوناني الصبغة، وآخرون قالوا بأنه مصري النشأة، مسيحي الصبغة[5]. ومهما تكن طبيعة التصوف ومكان نشأته وصبغته، فلا شك أنه وجد لنفسه بيئة صالحة وانتشاراً واسعاً في مصر في العصور الوسطى.

فقد انطلقت الحركة الصوفية في مصر في القرن الثاني الهجري في مدينة الإسكندرية، لتنتقل منها فيما بعد إلى القاهرة في القرن السادس هجري[6]، على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي حين استلم زمام الأمر إثر وفاة الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، فأنشأ فيها سنة 569هـ/1174م، أول خانقاه "خانقاه سعيد السعداء" وخصصها للفقراء الآتين من خارج البلاد الذين لا مأوى لهم ولا أهل، تيمّناً بما فعله الرسول (ص) عندما اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا أهل لهم، مكاناً في مسجده يقيمون به وعرفوا بـ"أهل الصفة"[7].

ومنذ ذلك الحين، بدأ الحكام المسلمون وأمراؤهم وأثرياؤهم يتنافسون في إقامة الخوانق وتهيئتها لإيواء المسلمين الغرباء والفقراء، أسوة بالسلطان صلاح الدين، ما سبّب انتشارها في جميع حواضر الدولة الإسلامية

[1]- ابن خلدون: المقدمة، ص467؛ المقريزي: الخطط،ج4، ص280؛ القشيري: الرسالة القشيرية، ص21؛ متز،آدم: الحضارة الإسلامية ،ج2،ص15؛ مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص80؛ Chabbi, J: Article Khankah, EI2,T4, P1057

[2]- الغزالي: المنقذ من الضلال، ص39.

[3]- الرباط اسم حربي يطلق على البيوت التي تبنى على الثغور ويرابط فيها الجنود لمواجهة العدو.وبالرغم من ذلك، فقد أمّ الناس الأربطة للعبادة والتنسك والصلاة ومجاهدة النفس. سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الأسلامي، ص441.

[4]- مفردها زاوية، وهي غرفة صغيرة لا تتسع إلا لشخص واحد. وقد أطلق هذا التعريف على الأماكن التي تقوم فيها الحلقات التعليمية في الجوامع.

[5]- متز، آدم: المرجع السابق، ص11؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر، ص98.

[6]- المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص281.

[7]- المقريزي: الخطط،ج4، ص281؛ السهروردي: عوارف المعارف،ج1، ص144؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية، ص 104.

من مشرقها إلى مغربها في القرن السابع هجري[1]، الأمر الذي أشار إليه ابن بطوطة بقوله:"أما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا..."[2].

وقد أدّت الخوانق دوراً اجتماعياً أساسياً تمثل في سد حاجات الفقراء وخاصة الوافدين، فكانت حياتهم فيها أفضل بكثير من حياتهم خارجها، وأقرب الى التمتع والسعة خاصة في عصر المال والثروة، عصر دولة المماليك البحرية، حيث نعموا باهتمام اصحاب الخوانق وعنايتهم الكاملة، فكانوا يؤمنون لهم الطعام والشراب وكل ما يحتاجونه من الضروريات والكماليات، عدا عن الأعطيات والرواتب الشهرية[3]، مقابل أن يتفرغوا للعبادة والصلاة والتعلم، وكل ذلك على حساب واقف الخانكاه ومن ماله الخاص. وبذلك، تكون الخانقاه مؤسسة دينية – اجتماعية أشبه بدور المؤسسات الرعائية بمفهومها الحديث حيث نعم نزلاؤها بالعناية الكاملة وبجميع الحقوق الإنسانية التي أقرتها منظمة حقوق الإنسان في العصر الحديث[4].

لقد كانت العقيدة الصوفية محط لغط كبير بين العلماء والحكام[5] الذين اختلفوا في نظرتهم حول التصوف وفي تقييمهم للصوفية[6]، فمنهم من اعتبر التصوف شعوذة وهرطقة فكرية ودينية، خاصة بعد أن مالت بعض العناصر إلى الشذوذ الفكري والخلقي، واستباحوا المحرمات وتركوا الواجبات الدينية[7]، ما دعا المقريزي إلى نفي انتسابهم إلى الدين والعلم بقوله:"... ثم تلاشى حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة"[8]، كما وصفهم ابن خلدون ب":...سكان الزوايا المنتحلين للعبادة..."[9]، بالرغم من أنه يعتبر التصوف علماً من علوم الشريعة، قائماً بذاته له موضوعه ومنهجيته كما له أغراضه، شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم الشرعية المتجذرة في نهج العبادة عند السلف الصالح من

[1]– غودفروا، موريس: النظم الإسلامية، ص50.

[2]– ابن بطوطة: مقدمة ابن بطوطة، ص38؛ الحنبلي: الأنس الجليل، ج2، ص43.

[3]– في سنة 786هـ، توفي الشيخ محمد التبريزي في خانقاه سعيد السعداء، تاركاً أحد عشر ألف درهم فحسبوا مدة إقامته وما تناوله منها فكان ما خلفه قدر ما أخذ من الخانقاه. العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري، ص166.

[4]– انظر ما رواه المقريزي عن الخدمات الكثيرة التي قدمتها خانقا سرياقوس التي بناها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، للفقراء والمتصوفين. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص294.

[5]– غودفروا، موريس: المرجع السابق، ص50.

[6]– مثلاً: يعتبر الحافظ الذهبي التلمساني عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الأديب و الشاعر زنديقاً وأحد زنادقة الصوفية في حين يعتبره ابن تغري بردى فاضلاً ووجيهاً وله حرمة.

[7]– ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص ص86-87.

[8]– المقريزي: الخطط ج4، ص 281.

[9]– ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص ص207.

الأمة[1]. ولعل الجانب الموضوعي العلمي في التصوف في نظر هؤلاء العلماء يبرز من خلال المراحل أو المقامات– وعددها سبعة[2]، فصّلها القشيري في خمسين باباً[3]– يدرك بها الصوفي أحوال الفرح والحزن والسعادة عند ترقيه من مقام لآخر[4]، حيث لكل مقام حالته التي تناسبه من التجلي والمجاهدة إلى أن ينتهي به الحال إلى التوحيد ومعرفة عالم الغيب التي هي غاية الصوفي القصوى[5]. ولذلك، فمن الطبيعي أن الحقائق والنتائج التي تحصل عن هذه المجاهدات والمقامات، لا يدركها إلا أصحابها الذين تطوروا في المقامات المتتالية، خاصة وأن هناك آداباً ومصطلحات خاصة يستعملونها فيما بينهم لا يستعملها أو يفهمها سواهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والستر على من باينهم في طريقهم وهي ترمز إلى فكرهم وعقيدتهم ومعتقداتهم[6].

وعلى هذا الأساس يعتبر ابن خلدون أن هناك نوعين من علوم الشريعة، قدّم فيها علم التصوف كعلم قائم بذاته وخاص بأهله له مباحثه وكتبه الكثيرة التي وضعها مشايخ الخانقاوات[7]، وغيرهم مثل كتاب "الرسالة" للقشيري الذي يدرس فيه آداب الطريق وأذواق أهلها ومواجدهم وأحوالهم، وكتاب "الإحياء" للإمام الغزالي وغيره، كما للفقه والحديث والتفسير كتبهم، وبالتالي يستطيع كل من أراد الإطلاع على هذا العلم أن ينظر في كتبه كما فعل الغزالي إذ قال:"...فابتدأت بتحصيل علومهم من مطالعة كتبهم مثل:"قوت القلوب" لأبي طالب المكي، وكتب "الحارث المحاسبي"، والمتفرقات المأثورة عن "الجنيد" و" الشبلي" و "أبي يزيد البسطامي" وغيرهم من المشايخ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طرقهم بالتعلم والسماع..."[8].

---

[1]– ابن خلدون: المقدمة، ص469.

[2]– ابن الحاج: المدخل، ج3، ص32.

[3]– القشيري: الرسالة القشيرية، ص126.

[4]– لا يرتقي الصوفي من مقام إلى آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام،فمن لا قناعة له لا يصح له التوكل،ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ومن لا توبة لا تصح له الإنابة ومن لا ورع له لا يصح له الزهد. السهروردي: عوارف المعارف،ج1،ص91؛ ابن الحاج: المصدر السابق،ج2، ص 58؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ص468؛ الغزالي: المنقذ من الضلال، ص35.

[5]– ابن الحاج: المصدر نفسه،ج2، ص23- 24.

[6]– القشيري: المصدر السابق، ص89–124 ؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ص469؛ متز، آدم: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 16.

[7]– المقريزي: السلوك،ج4، ص320.

[8]– الغزالي: المنقذ من الضلال، ص35.

وبذلك، يصبح التصوف علماً مدوناً بعد أن كان طريقاً للعبادة[1]، علم له شروط وقوانين لا يجوز تجاوزها والخروج عنها وإلا وقع المريد بالمحظور كما حصل للحلاج[2]، والسهروردي[3]، وغيرهما.

1- **التعليم في الخوانق**

على الرغم من أن بعض العلماء اعتبر أن الخوانق كانت مجرد امكنة للتعبد والصلاة بعكس المدارس التي وجدت لتكون مكاناً للتحصيل والتعلم[4]، كانت معظم الخوانق تشهد بالإضافة إلى علم التصوف علوم أخرى كالقراءات، والحديث، والتفسير، والفقه، واللغة، والأدب، والتوقيت وبعض علوم العقل التي اهتم بها نزلاء الخوانق خاصة إذا برع شيخهم فيها [5]،كما أنهم لا بد أن تعلموا القراءة والكتابة إذ إن معظم الخوانق أتبعت بمكاتب سبيل.

وبالرغم من أن ازدهار الطرق الصوفية كان في البيئات الفقيرة حيث يكثر الفقراء والدراويش، إلا أنهم كانوا من العاملين الناشطين في المهن والحرفيات، يدلّ على ذلك الألقاب العديدة التي أطلقت على كثير منهم كالورّاق، والخرّاز، والحمّال، والنسّاج، والكتّاني، والزجّاج، والصّيرفي، والفرّاء[6]. ومن الصوفية أيضاً من كان يقوم بأداء الأعمال الوظيفية والمكتبية، حيث عمل بعضهم كإمام مسجد، وخطيب، ومؤذّن، وموزّع للربعات الشريفة، وأمين مكتبة، كما عمل بعض العاملين بأمور الطب ككحال (طبيب عيون) وكطبيب طبائعي (باطني)[7].

ومن الطبيعي أن بعض هذه المهام بحاجة إلى الكثير من العلم والخبرة والقدرة على القراءة والكتابة ليستطيع القائم بها أن ينهض بأعمالها خاصة تلك المهام التي لها علاقة بالكتب والكتابة وإمامة المسجد والخطابة فيه دون أن ننسى مداومتهم على قراءة القرآن الكريم وما تتطلبه هذه القراءة من علم وقدرة على التفسير والفهم

---

[1]- ابن خلدون : المقدمة، ص469.

[2]- هو الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور المتوفى سنة 309هـ، نشأ بواسط والعراق وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره. ادعى سنة 299هـ أنه إله. ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج2، ص140؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص ص70-72؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ص168؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص202؛ ابن النديم: الفهرست، ص ص328-330.

[3]- هو أبو الفتح يحيى بن حنش بن أميرك الملقب شهاب الدين السهروردي. نسب إليه انحلال العقيدة واعتقاده مذهب الفلاسفة، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه فقتله الظاهر غازي بأمر من والده السلطان صلاح الدين الأيوبي. أبو الفداء: المصدر نفسه،ج3،ص81.

[4]- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص195.

[5]- مثل خانقاه الأمير سيف الدين قوصون التي تولّ مشيختها الشيخ شمس الدين الأصفهاني الذي كان رجل علم، برع في علوم العقل كما في علوم الدين. اليوسفي: نزهة الناظر، تحقيق أحمد حطيط، ص283.

[6]- السهروردي، أبو حفص : عوارف المعارف،ج1، ص13.

[7]- لمعي، صالح مصطفى: التراث المعماري الإسلامي في مصر، ص24.

ولو جزئياً. فلا بد إذن أن يكون المتصوفة على قدر من العلم لكي يستطيعوا القيام بهذه الأعمال، ولا بد لهؤلاء أن يكونوا قد تعلموا الكتابة والقراءة وغير ذلك مما يتنافى مع تعريف آدم ميتز بأن "الصوفية هم جماعة من المتسولين دعوا إلى التزهد".[1]

أما على مستوى التعليم العالي، فتشير المصادر التاريخية إلى أنه بالإضافة إلى علوم التصوف ومناسكه، كان الصوفية يحضرون مجالس علم الفقه والحديث إما في المساجد وإما في الخوانق، على يد العلماء والمشايخ الذين يرأسونها[2]، ما يعكس الدور الفكري والعلمي الذي قامت به الخوانق والزوايا.

وكانت الخوانق كالمدارس بعضها كان يدرّس مذهباً فقهياً واحداً[3]، وبعضها الآخر يدرّس المذاهب الأربعة مجتمعة[4]، ولكن بمستوى يقل عن مستوى المدارس العادية أويوازيه أحياناً[5]. فقد اعتبرت بعض الخوانق مدارس تعليم عال كالمدرسة الخانقاه "الجمالية"[6]، والمدرسة الخانقاه "الجاولية"[7] وغيرها. ولذلك كان بعض الصوفية على قدر كبير من العلم، ساهموا في نشر الدين وعلموا الفقه والأحكام الشرعية. وعلى هذا الأساس، كان من الطبيعي أن تعتبر الخوانق، خاصة المرموقة منها دوراً من دور العلم وبيئة من بيئاته، مع فارقٍ واحد أن الخوانق كانت في الأساس للتصوف والزهد والانقطاع، يعني تهذيب الروح بالدرجة الأولى. وهذا ما جعل مشائخها نخبة تجمع بين التصوف والزهد والعلم مثل: زين الدين الأبيوردي[8](ت667هـ/1269م)، وأبو الفضل الشاذلي (ت709هـ/ 1309م)[9]، وأبو البقاء الدميري الشافعي[10]، وعلاء الدين القونوي الشافعي،

---

[1]- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ج2، ص12.

[2]- ابن الحاج: المدخل، ج3، ص74؛ مهدي، ابراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص27.

[3]-كالمدرسة الخانقاه المهمندارية التي بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزي المهمندار سنة 725هـ، للفقه الحنفي.

[4]-كخانقاه شيخو التي بناها في خط الصليبة خارج القاهرة تجاه جامع شيخو، الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة 756هـ.

[5]- يقول المقريزي إنه في سنة 814هـ، تم نقل طلاب خانقاه طيبرس إلى المدرسة الطيبرسية بسبب خراب ما حولها. المقريزي: الخطط، ج4، ص301. وهذا ما يدل على أن بعض الخوانق كانت فعلا تجاري المدارس في مستواها التعليمي.

[6]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص288.

[7]-أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة سبعمئة وثلاث وعشرين على جبل يشكر.

[8]- الشيخ الحافظ أبو الفتح محمد بن محمدبن أبي بكر الصوفي الشافعي المتوفي سنة667هـ. الذهبي: العبر، ج3، ص317.

[9]-أحمد بن محمد المالكي، أقام في سعيد السعداء، ودرّس بالجامع الأزهر. السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص250.

[10]-كمال الدين محمد بن عيسى الدميري الأصل القاهري وهو من صوفية سعيد السعداء، درّس في الجامع الأزهر وفي القبة البيبرسية وله عدة مؤلفات. السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص207.

وعلي بن أحمد الأدمي الشافعي[1]، وشمس الدين المقدسي الحنبلي (ت676هـ/1277م)[2]، والشيخ ضياء الدين القرمي[3]، والصدر سليمان بن عبد الناصر الأبشيطي (ت811 هـ/1408م)[4]. والواقع أن هؤلاء العلماء الأعلام وغيرهم من مشايخ الخوانق، كان لهم دور كبير في مسار الحركة العلمية من خلال نشاطاتهم العلمية ومشاركاتهم الجليلة في مجال التعليم ليس في الخوانق فقط، بل في كبريات المدارس والجوامع أيضاً.

2-تعيين المشايخ والمراسيم المتبعة

كان تعيين الشيخ في مشيخة الخانقاه يتم بموجب كتاب تكليف من السلطان يصفه فيه بالورع والزهد والصبر وقطع العلائق من الدنيا، وتربية المريدين وتسليكهم[5]، ويوصيه فيه "...بالاجتهاد في العبادة والمشي على طريق السلف من الزهد والورع والعفاف، وأن يأخذ جماعته بمآخذه في الأمور، وأن يعرف لجماعة مكانه حقوقهم الواجبة لهم وينزلهم منازلهم خصوصاً أولي السابقة منهم، ويأخذ في الرفق بهم ومداراتهم، مع ترتيب من استجد منهم، وإجرائهم على طرائق الصوفية وتعريفهم الطريق إلى الله تعالى، وتدريج المريدين على قدر ما تحتمله أفهامهم، دون أن يهجم عليهم من أحوال الطريق بما لا تحتمله عقولهم [واتباع] سبيل الكتاب والسنة..."[6]. وغالباً ما يكون التكليف بالصيغة التالية:"... رسم بالآمر الشريف...أن يستقر المجلس السامي، الشيخيّ، فلان الدين فلان ... في مشيخة الخانقاه الفلانية، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته..."[7]. أما شروط الالتحاق في الخانقاه وعدد الصوفية الملتحقين وجنسهم (إذ إن بعض الخانقات قد شهدت بعض المتصوفة النساء)[8] ومعاليمهم والتقديمات التي تقدم لهم، إضافة الى تعيين الشيوخ والمشرفين والخدم، كل ذلك يتم الإعلان عنه في كتاب الوقف الذي يصدر عن صاحب الخانقاه وبانيها.

---

[1]- علي بن أحمد بن أبي بكر بن أحمد مدرس في الجامع الأزهر، عالم بالفقه والتفسير وبآداب الصوفية وبالقراءات السبع، فنفع الكثير من الطلبة. السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص146.

[2]- قاضي قضاة الحنابلة المعروف بابن العماد الحنبلي الذي ولي مشيخة سعيد السعداء، ودرس بالمدرسة الصالحية. المقريزي: السلوك، ج2، ص111؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة،ج7،ص279؛ ابن العماد: شذرات الذهب ،ج5،ص676.

[3]- شيخ الخانكاه الركنية ومدرس الحديث بالمدرسة. المقريزي: المصدر نفسه، ج5، ص38.

[4]- السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص236.

[5]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج11، ص89.

[6]- القلقشندي: المصدر نفسه، ج11،ص98.

[7]- القلقشندي: المصدر نفسه، ج11،ص124.

[8]- ورد في مدخل ابن الحاج،ج3، ص75، أن بعض مدعي التصوف والمشيخة يأخذون العهد على من يريد الدخول في الطريق من رجل وامرأة وشاب.

ونظراً لخصوصيتهم، فقد شكّل المتصوفة شريحة دينية واجتماعية اندمجت في المجتمع، كان لهم حضوراً في الحياة السياسية والاجتماعية حيث شاركوا في مجمل النشاطات باعتبارهم جزءاً من طبقة العلماء وكان لبعضهم نفوذ ورأي.

والواقع أن الحركة الصوفية انقسمت إلى عدة فرق، لكل فرقة طريقتها في العبادة يتزعمها شيخ، وكان لكل فرقة خوانق وزوايا خاصة بها، انتشرت في جميع المدن الإسلامية، بحسب ابن بطوطة الذي قال:" وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم من الأعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيبة"[1].

وكان الشيخ ومريدوه يقيمون حلقات الذكر أو "الحضرة" بالليل حيث يزيد جمهور المتصوفة مما يزيدها صخباً وجاذبية، فينشدون الأناشيد والتراتيل الدينية[2]. وفي القرن الخامس هجري، دخل الرقص إلى جانب الغناء والتصفيق وإلقاء القصائد الشعرية التي كان لها شأن كبير ضمن مراسم مجالس الصوفية[3]. ويحدثنا المقدسي عن حضوره مجالس الحضرة فيقول: كرّة أزعق معهم وتارة أقرأ لهم القصائد". وقد اعتبر بعض الفقهاء الصوفية كالإمام أبو بكر الطرطوشي، وابن الحاج، والقشيري هذه المراسم من باب البدع والضلالة التي يقع بها مدّعي التصوف وهو بلاء من الله وفساد في الأرض[4].

أما من حيث الهندسة، فلا يختلف مسقط الخانقاه عن مسقط المدرسة إلا أنه في بعض الأحيان كانت خلوات المريدين تقام في جناح مستقل وذلك في حال اجتمعت المدرسة والخانقاه في مجموعة واحدة[5]. كما اتبع في تنفيذ الخوانق وتشييدها الموجبات والملاحظات نفسها التي اتبعت في المدارس حيث روعيت الشروط الصحية والنظافة والتي سبق الحديث عنها في المدارس.

3-أهم الخوانق التعليمية في القاهرة المملوكية

1- ابن بطوطة: الرحلة، ص38.

2- شلبي، أحمد: موسوعة النظم و الحضارة الإسلامية ، ج6، ص209؛ متز، آدم: الحضارة الإسلامية ج2، ص89.

3- متز، آدم: المرجع نفسه، ص22.

4- ابن الحاج: المدخل، ج3، ص75-81.

5- لمعي، صالح: التراث المعماري الإسلامي في مصر، ص23.

على غرار غيرها من دور العلم، شهدت العديد من الخوانق الكبرى والمهمة حركة علمية ونشاطاً تعليمياّ مميّزاً، قام به العلماء والمشايخ الذين تولّوا مسؤوليتها ما ميّزها من غيرها، نذكر منها على سبيل المثال:

(1) **الخانكاه الصلاحية، دار سعيد السعداء**: ويقال لها أيضاً دويرة الصوفية، وهي أول خانكاه أقيمت في ديار مصر، وتقع بخط رحبة باب العيد مقابل دار الوزارة في القاهرة، أقامها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 569هـ/1173م[1]، بعد أن استتب له الأمر في مصر، وكانت في الأساس داراً للأستاذ "قنبر" وهو أحد الأساتذة المحنّكين[2]في الدولة الفاطمية ولقبه سعيد السعداء، فسميت باسمه. وقد خصّص صلاح الدين هذه الخانقاه للفقراء والمعدمين الآتين من البلاد الإسلامية الشاسعة[3]، وولّى عليهم شيخاً عرف "بشيخ الشيوخ"[4]، ليعلّمهم أمور الدين ويقرأ عليهم القرآن الكريم والحديث الشريف. وكان الفقراء[5] من أهل الطريقة يعرفون بالعلم والصلاح، يعيشون في الخانقاه منقطعين كلياً عن الخارج في تعبّد، وتأمّل، وتنسك، وصلاة مستمرة يقيمونها في قاعة خاصة بها تسمى "بيت الجماعة"[6]. وقد تولى مشيخة هذه الخانقاه أكابر العلماء الذين عُرف عنهم العلم والصلاح مثل أولاد شيخ الشيوخ بن حموية وكانوا من الوزراء والأعيان والقادة، كما وليها قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، وعلاء الدين القونوي، وغيرهم من الأعيان، كما نزل بها أكابر الصوفية ممن عرف عنهم الزهد والصلاح[7].

(2) **خانقاه ركن الدين بيبرس الجاشنكير**: من أجمل خوانق القاهرة وأوسعها وأحسنها عمارة، بناها الملك المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري قبل أن يلي السلطنة [8]. بدأ في عمارتها في سنة

---

[1]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص226؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص282؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص50؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر، ص107.

[2]- هم أصحاب الأنس للخلفاء الفاطميين والمطلعون على أسرارهم، بيدهم زمام القصر، وبيت المال وزمام الأشراف، ومنهم صاحب الدفتر وصاحب الرسالة. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص251.

[3]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص251؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية، ص107.

[4]- اختص بهذا اللقب كل شيخ استلم مشيخة سعيد السعداء حتى محن سنة 806هـ، حيث أصبح لقب كل شيخ خانكاه. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص282؛ السلوك، ج5، ص8؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص226؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج11، ص365

[5]- هو لقب كان يطلق على المتصوفين أو المريدين (انظر آدم متز، ص 23) شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص210.

[6]- حمزة، عبد اللطيف: المرجع السابق، ص105.

[7]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص282؛ المصدر السابق، ج3، ص123؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص227.

[8]- القلقشندي: مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ج2، ص135؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص 285.

706هـ/1306م، وانتهى منها سنة 707هـ/1307م[1]، وقيل709هـ/1309م[2]، وبنى بجانبها رباطا كبيرا يتوصل إليه من داخلها كما جعل بجانبها قبة بها قبره. ولما انتهى العمل بها، جعل الجاشنكير فيها أربعمائة صوفي، ومائة من الجند ومن المعدمين في الرباط[3]، وألحق بها مطبخا يقدّم لكل مقيم فيها وفي الرباط الطعام، واللحم، والخبز، والحلوى يومياً، ورتب لها وقفاً كبيراً شمل عدة ضياع من دمشق وحماه والجيزة وغيرها[4]. ومن أهم ما عمله بيبرس بهذه الخانقاه تعيين درس للحديث النبوي، يقوم به مدرّس وعدّة من المحدّثين كما عيّن فيها قرّاء يتناوبون القراءة فيها ليلاً ونهارًا[5]. وكان يرتاد هذه الخانقاه أهل العلم والصوفية إلى سنة 776هـ/1374م، حيث بدأ يتراجع حالها فتركها أهل العلم والخير، وأصبح فيها "... عدة من الصغار ومن الأساكفة وغيرهم من العامة ..."[6].

(3) **خانقاه ومدرسة الجمّالية**: بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الجمّالي سنة 730هـ/1330م قبالة داره في رأس درب ملوخيا بالقاهرة، وجعلها للفقه الحنفي، عيّن لتدريسه الشيخ علاء الدين علي بن عثمان التركماني، وكانت هذه المدرسة من أجلّ مدارس القاهرة وسكنها أكابر فقهاء الحنفية[7].

(4) **خانقاه شيخو**: تقع هذه الخانقاه في خط الصليبية خارج القاهرة، ابتدأ بعمارتها الأمير سيف الدين شيخو العمريّ سنة 756هـ/1355م، وانتهى منها سنة757هـ/1356م. عيّن فيها دروساً في فقه المذاهب الأربعة، والحديث النبوي، وآخر لإقراء القرآن الكريم بالروايات السبع، ومشيخة اسماع للصحيحين، وجعل لكل درس مدرّساً وعدد من الطلبة، وشرط عليهم حضور الدروس وحضرات التصوف، كما شرط على شيخ الخانقاه أن يكون عارفاً بالأصول والتفسير، وأن يكون مدرساً للفقه الحنفي. وقد ذكر السيوطي عدداً من أفاضل العلماء الذين توالوا على مشيخة هذه الخانقاه أو التدريس فيها، ما جعلها تجاري المدارس في تعليمها،

---

[1]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص226؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين،ج2، ص353؛ السيوطي: حسن المحاضرة،ج2، ص229؛ المقريزي: السلوك، ج2، ص415.

[2]- المقريزي: الخطط، ج4،ص285.

[3]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص285.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص286.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص285.

[6]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص 286

[7]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4،ص240؛ النويري: نهاية الأرب، ج33، ص230.

فتخرج منها الكثير من أهل العلم[1]. وقد جرت العادة عند تعيين أحد الشيوخ للتدريس في هذه الخانقاه، أن يحضر كبار أمراء الدولة وعلمائها الدرس الأول الذي ينتهي بوليمة غذاء[2].

رابعاً: **الزوايا**

مفردها زاوية، تعني الركن من الدار أو المكان عامة. وفي المصطلح الإسلامي، الزاوية هي الركن من المسجد حيث يجلس أحد العلماء عند إلقاء درسه على الناس. وقد شاع في الإسلام أن يكون لكل عالم زاوية خاصة يواظب على الحضور إليها [3]، كما لكل زاوية من زوايا المسجد شيخ خاص بها تعرف باسمه، فيقولون زاوية الشيخ فلاني، أو يقولون الزاوية الفلانية (نسبة إلى اسم شيخها، أو اسم من وقفها). وقد يختلف مصطلح الزاوية من مسجد إلى آخر، فمثلاً ما يعرف بالزاوية في المسجد العتيق، يطلق عليه اسم رواق في الجامع الأزهر[4].

وقد وردت في أمهات الكتب، أسماء الكثير من الجوامع الكبيرة التي شهدت العديد من الزوايا الشهيرة مثل الجامع العتيق، الذي اشتهر بكثرة الزوايا التي كانت محط اهتمام الملوك المصريين[5]، والتي اختصت بتدريس العلوم الدينية، قام بالتدريس فيها فقهاء وعلماء كبار على مر العصور الإسلامية، منها: زاوية الإمام الشافعي أو الزاوية "الخشابية"، والزاوية "المجديّة"، والزاوية "الصاحبيّة" وفيها مدرِّسَين أحدهما مالكي والآخر شافعي، والزاوية "الكمالية"، والزاوية "التاجية"، والزاوية "المعينية"، والزاوية "العلائية"، والزاوية "الزينية"، وغيرها الكثير[6]، حتى بلغ عدد حلقات العلم في هذا الجامع في سنة 749هـ /1348م، بضعاً وأربعين حلقة أو زاوية لبضعة وأربعين شيخاً[7].

ولما انتشرت ظاهرة التدريس خارج المساجد، وأصبح الشيوخ يتخذون أماكن مستقلة خاصة بهم ليقيموا بها حلقاتهم، ويحضر فيها طلابهم، اصطلح الناس على إطلاق اسم زاوية على هذه الأمكنة. وكما الأربطة، ما لبثت الزوايا أن أصبحت تأوي أهل التصوف المنقطعين للعبادة والزهد والتعلم، فأصبحت

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4، ص292؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص 230 -231.

[2]- المقريزي: السلوك، ج4، ص348.

[3]- الولي، طه: المساجد في الإسلام، ص91؛ مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص83.

[4]- حسين، حوري: المسجد ورسالته في الإسلام، ص117.

[5]- غالباً ما كان ملوك مصر يحبسون الأوقاف على زوايا هذا الجامع وغيره ويقيمون الدروس فيها.مثلاً في سنة 592هـ، حبس الملك العزيز عثمان على زاوية الإمام الشافعي بجامع مصر وفوّض التدريس فيها إلى البهاء بن الجميزي. السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص243

[6]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص22؛ ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص ص 100-101.

[7]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص22؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص218.

إلى جانب مهمتها التعليمية، مركزاً لأصحاب الطرق الصوفية[1]. وعندما قدم الرحالة ابن بطوطة إلى بلاد المشرق، تعرف إلى كثير من زوايا الصوفية فيها، ووصف لنا في كتابه ما رآه فيها من عادات ومراسم[2].

1- أشهر الزوايا التعليمية في القاهرة المملوكية

(1) زاوية الحلاوي: هي من الزوايا العامرة، تقع بالقرب من جامع الأزهر، بناها الشيخ علي بن مبارك الهندي السعودي الحلاوي في سنة 688هـ/1289م، وأقام فيها إلى أن مات فخلفه ابنه الشيخ عمر بن علي بن مبارك، ومن بعده ابن الشيخ جمال الدين عبد الله الذي حدّث فيها إلى أن مات فخلفه ولده[3].

(2) زاوية الطراطرية: بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون للأخوين الشيخين محمد وأحمد المعروفين بالطراطرية في سنة 740هـ/1339م ، وكانت لهما مقصورة في الجامع الأزهر[4].

(3) زاوية الجعبري: تقع هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، وتنسب إلى الشيخ برهان الدين بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري، الواعظ، يجتمع إليه الناس فيذكرهم ويروي الحديث، كما كانت لهذا الشيخ مشاركات في علم الطب وغيره من العلوم[5].

(4) زاوية الأبناسي: تقع هذه الزاوية بخط المقس، عرفت بالشيخ الفقيه برهان الدين ابراهيم بن حسين بن موسى بن أيوب الأبناسي الشافعي (ت802هـ/1400م)، الذي برع بالفقه، ودرّس بالجامع الأزهر وغيره، فأشغل الطلبة لسنين عديدة، كما ولي مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء[6].

خامساً: الربط

مفردها رباط، وهو ما يربط به. وربط الشيء ربطاً فهو مربوط وربيط. وقد ورد تفسيران لكلمة رباط، أسفر عنهما وجود نوعين من الأربطة[7].

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج1، ص182.

[2]- ابن بطوطة: الرحلة، ص38.

[3]- المقريزي: الخطط، ج4، ص309؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص35.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص310.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص313.

[6]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص314.

[7]- ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص1561؛ المنجد في اللغة، ص245؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي،ص441.

النوع الأول: وهو المرتبط بنظام الجهاد عند الإسلام [1]. والرباط والمرابطة، ملازمة ثغر العدو، أي أنها مكان إقامة الحامية عند الثغور الإسلامية حماية لها ولأرواح المسلمين [2]، وهي أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً و ربما سميت الخيل أنفسها رباطاً[3]. وقد عرّف ابن سيده[4] الرباط بأنه:"... من الخيل الخمس فما فوقها "[5]، وقد جاء في القرآن الكريم "**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ**"[6]، كما جاء في الحديث الشريف:"رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل". وقال أبو فحص السهرَوَرْدي إن الرباط هو"...ما يربط فيه الخيل..."ثم أتبع أن كل ثغر يدفع أهله عمن ورائهم رباطاً[7].

وفي صدر الإسلام، كان الرباط يعني القاعدة العسكرية مما يلي أرض العدو الذي تخشى إغارته على المواقع الإسلامية، وجنود هذا النوع من الرباط هم من المتطوّعين المجاهدين في سبيل الله من أهل التقى والورع، الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام والمسلمين، وينفقون حياتهم بالتدريب العسكري والتعبد والحراسة[8]. وبما أن الثغور كانت تشكل المواقع الأمامية الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد العدو، فإن الربط كانت في الغالب تقام على السواحل حيث يقيم فيها المرابطون، وتكون مهمتهم الأساسية مراقبة البحر وملاحظة تحركات سفن العدو[9].

وتجوز الإشارة هنا إلى أن مدينة بيروت كانت رباطاً للمجاهدين على ساحل بحر الروم، وفيها يقول ابن حوقل:"مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم، وهي فرضة دمشق وساحلها وبها يرابط أهل دمشق وسائر جندها..."[10]. وقد اختار أكابر من الصحابة والتابعين المرابطة فيها مثل: أبو الدرداء، والإمام الأوزاعي.

[1]- الموسوعة الإسلامية: مقالة الرباط، ص19.

[2]- الجزائري، جابر: العلم والعلماء، ص48.

[3]- ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص1561؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص302.

[4]- هو أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي الأندلسي المتوفى سنة 458هـ/1065م.

[5]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص302.

[6]- القرآن الكريم: سورة الأنفال، الآية 62.

[7]- السهروردي: عوارف المعارف، ص180.

[8]- مارسيه، جورج: مقالة الرباط، دائرة المعارف الإسلامية، ص21؛ الولي، طه: المساجد في الإسلام، ص105.

[9]- مارسيه، جورج، المصدر نفسه، ص22؛ الولي، طه: المرجع نفسه، ص106.

[10]- ابن حوقل: صورة الأرض، ص162.

النوع الثاني: وفيما بعد، ومع توقف المد الإسلامي، وتراجع قوة المسلمين، تغيّر مفهوم كلمة الرباط، فارتد معناه إلى الآية القرآنية "اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ"[1]، التي فسّرها العلماء بمعنى انتظار الصلاة بعد الصلاة، بما يتطابق مع الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة عن الرسول (ص) حين قال:" ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله، فقال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط"[2]. وبذلك أصبح معنى الرباط أقرب إلى مفهوم الزاوية أو الخانقاه، يأوي إليه أهل التصوف للإقامة والطعام والتفرغ للعبادة والتعليم وذكر الله[3]. قال النعيمي:"والخانكاه بالكاف، وهي بالعجمية دار الصوفية، ولم يتعرضوا للفرق بينها وبين الزاوية والرباط..."[4]، ولذلك قال المقريزي:"...الرباط هو دار يسكنها أهل طريق الله..."[5]. ومن جهة أخرى، فقد اتخذت بعض الربط معنى المؤسسة الاجتماعية، حيث كانت توضع فيها النساء المطلقات أو الأرامل صيانة لهن، ما جعل بعض الناس يعتبرون أن"...الربط هي الخوانق التي تختص بالنساء..."[6]. وقد شكّل هذا النوع من الربط نموذجاً آخر من الخوانق، عادة ما كان يبنى داخل المدن الإسلامية بعيداً عن الثغور[7].

1- التعليم في الربط

بما أن أفضل الأعمال طلب العلم، فقد شهدت الأربطة في العصر المملوكي الأول نشاطاً علمياً، يتناسب مع حجم الرباط وطبيعة الهدف من إقامته.

ففي ربط الثغور، وجب على المجاهد أن يعرف فضيلة الجهاد وكيف يجاهد وبماذا يصح له الجهاد وبماذا يفسد، وما يلزمه في جهاده من علوم ومعرفة في الأحكام المتعلقة به واللازمة له وما يجب عليه وما يحرم عليه أو يكره[8]، ولذلك، كان في كل رباط شيخ إمام يقوم بتعليم المجاهدين ما ينبغي أن يعرفونه من الأحكام الشرعية

---

[1]- القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآية 200.

[2]- ابن منظور: معجم لسان العرب، ج3، ص1561.

[3]- المقريزي: السلوك، ج1، ص184؛ مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص90.

[4]- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص152.

[5]- المقريزي: الخطط، ج4، ص302.

[6]- الولي، طه: المساجد في الإسلام، ص106.

[7]- مارسيه، جورج: مقالة الرباط، دائرة المعارف الإسلامية،، ص21؛ Jomier, J: Article Al- Kahira, EI2, T4,P453

[8]- ابن الحاج: المدخل، مج2،ج3، ص3.

المتعلقة بأمور الجهاد، إذ إن :"...لا بد للجماعة المجاهدة من إمام تنعقد عليه كلمتهم ولا يخالفونه، ويكون هو قادر على قيادة الجماعة وتعليمهم ما ينبغي عليهم تعلمه"[1].

أما الربط ذات الطابع الاجتماعي، التي انتشرت في مدينة القاهرة، فقد كانت الحركة التعليمية الفقهية فيها أكثر نشاطاً، خاصة تلك التي ألحقت بالمدارس كالرباط الذي ألحق بالمدرسة السعدية[2]، حيث يقوم فيها فقيه واعظ من كبار رجال الدين يعيّنه واقف الرباط لتعليم المقيمين فيه ووعظهم[3]. وككل دار علم، كان المستوى التعليمي في هذا النوع من الربط، يتبع مستوى الشيخ الفقيه الذي يرأسه. وقد برز من الجنود العلماء عدة، منهم الحسن بن خاص بك البدر أبو محمد الذي برع في الفقه والأصول، تصدى للإفتاء ومارس التعليم مدة فانتفع به الطلبة[4].

2- أهم الربط التعليمية في القاهرة المملوكية

(**1**) **رباط الآثار**: ويعرف أيضاً برباط الصاحبي التاجي، بدأ بعمارته الصاحب تاج الدين محمد بالقرب من بركة الحبش، لكنه توفي سنة 707هـ/1307م، فأكمله ولده الصاحب ناصر الدين محمد[5]. وقيل له رباط الآثار لأن فيه قطعة خشب وحديد يقال إنها من أثر الرسول (ص). وقد أقام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون في هذا الرباط درساً للفقه الشافعي، عيّن له الشيخ برهان الدين الأبناسي مدرساً لعدد من الطلبة. كما جهّز في هذا الرباط مكتبة عامرة، ما جعل الناس يترددون إليه بكثرة ويصيبون منافع عدة[6].

(**2**) **رباط العلائي**: أنشأه الملك علاء الدين أبو الحسن علي ابن الملك سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة، بن الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وعيّن للفقهاء يوماً في الأسبوع في هذا الرباط، وكانوا عشرة منهم شيخهم وقاريء ميعاد[7].

---

[1]- ابن الحاج: المدخل، مج2، ج3، ص20.

[2]- بناها فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل الأمير شمس الدين سنقر السعدي سنة 715هـ. المقريزي: الخطط، ج4، 254.

[3]- كان في القرافة الكبيرة عدد كبير من الربط التي كانت تقام فيها مجالس وعظ مشهورة. المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص345.

[4]- السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص90.

[5]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص235.

[6]- المقريزي: المصدر السابق ج4، ص 305؛ ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص ص 102-103.

[7]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص 305؛ ابن دقماق: المصدر نفسه، ج4، ص ص 102-103.

(**3**) **رباط ابن أبي منصور**: يقع هذا الرباط في قرافة مصر، وتولى دروس الحديث والفقه فيه الشيخ صفي الدين الحسين بن علي بن أبي المنصور، الذي صنّف كتاب "الرسالة"، ذكر فيه عدة من مشايخ عصره[1].

(**4**) **رباط البغدادية**: يقع هذا الرباط داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، بنته الست تذكرباي خاتون ابنة الظاهر بيبرس سنة 684هـ/1285م، للشيخة الصالحة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية. وكان هذا الرباط بمثابة إصلاحية توضع فيه النساء المطلقات أو المهجورات من قبل أزواجهن حتى يتزوجن أو يعدن إلى أزواجهن صيانة لهن. وكان على رأس هذا الرباط شيخة تعظ النساء وتفقههن في الدين. وقد ذكر المقريزي أنه أدرك في هذا الرباط الشيخة الصالحة فاطمة بنت عباس البغدادية (ت714هـ/1314م)"... وهي فقيهة وافرة العلم انتفع بها كثير من النساء المصريات والدمشقيات" [2].

ومن أربطة مدينة القاهرة أيضاً الرباط المعروف برواق ابن سلمان، الواقع بحارة الهلالية خارج باب زويلة، وكان شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر، يعطي فيه درس حديث.

سادساً: القبب والمشاهد والقرافة

1- القبب

مفردها قبة، وهي بناء مستدير سقفه مقعّر[3]. وكان من عادة السلاطين والأمراء المسلمين إنشاء قبب فوق قبورهم التي يبنونها قبل موتهم ليدفنوا فيها. وتؤكد المصادر التاريخية أن أكثر المدارس والمؤسسات الدينية قد بنيت ليدفن فيها أصحابها في قبب تقام فيها الدروس الدينية وتلحق بها المكتبات فتستقطب الطلاب والمدرسين[4].

(**1**) **القبة المنصورية**: تقع هذه القبة داخل باب البيمارستان المنصوري، تجاه المدرسة المنصورية. وهي من أهم القبب المملوكية في مدينة القاهرة، وفيها دفن الملك المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الملك الناصر محمد، وابنه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل. ولم تكن هذه القبة للدفن فقط، فقد عيّن الملك المنصور فيها دروساً عرفت بدروس وقف الصالح، قام بها أكابر العلماء والقضاة، وهي عبارة عن درس لتفسير القرآن الكريم، يقوم به مدرّس ومعيدان، إضافة إلى درس حديث، ودروس في المذاهب الفقهية الأربعة. كما ألحق

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4، ص304.

[2]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص303.

[3]- المنجد في اللغة، ص604؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص734.

Jomier, J: Article Al- Kahira , EI2, T4,P451-[4]

بها القبة مكتبة كبيرة احتوت على كتب ومخطوطات مهمة، وعيّن معلّمان يقرآن الأيتام القرآن الكريم ويعلمانهم الكتابة[1].

(**2**) **القبة الركنية البيبرسية**: بناها بجانب الخانقاه البيبرسية، الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، قبل أن يلي السلطنة سنة 706هـ/1306م، وفي سنة 720هـ/1320م تم تعيين درس حديث فيها تولاه الشيخ الزنكلوني[2]، يساعده معيد وقارىء[3].

(**3**) **القبة الناصرية**: أنشأها إلى جانب مدرسته الناصرية الملك الناصر محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، في سلطنته الثانية عام 698هـ/1299م، وقد عيّن فيها شيخ لإقراء الحديث لمن يقصده للعلم أو لسماع الحديث وتصحيحه[4].

2- المشاهد

مفردها مشهد[5]، وأهمها المشهد الحسيني: من المزارات الشريفة في القرافة مشهد رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[6]، بناه الإمام الفائز بنصر الله عيسى بن الظافر بدين الله العبيدي الفاطمي سنة 553هـ/1158م[7]. ولما ملك السلطان الناصر صلاح الدين، بنى مدرسة بجوار هذا المشهد الشريف لتدريس الفقه الشافعي[8]، كما أقام في داخله حلقة أخرى عيّن لها الفقيه البهاء الدمشقي الشافعي الذي كان يجلس للتدريس عند المحراب أمام الضريح، وبعد ذلك بنى معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4، ص226، 269؛ السلوك: ج3، ص389؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص73-74 ؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص ص 52-54.

[2]- هو أبو بكر بن اسماعيل بن عبد العزيز الزنكلوني، فقيه شافعي، ولد في زنكلون، في شرق مصر، وعاش وتوفي في القاهرة سنة 740هـ/1339م. العسقلاني: الدرر الكامنة، ج1، ص441؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص125.

[3]- المقريزي: السلوك، ج3، ص101؛ النويري: المصدر السابق ج33، ص181.

[4]- النويري: المصدر نفسه، ج33،ص44.

[5]- سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص902.

[6]- ابن بطوطة: الرحلة، ص39.

[7]- ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج1، ص232.

[8]- السيوطي: حسن المحاضرة،ج2، ص235؛ ابن الشحنة: روض المناظر،ص 222؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج2، ص402.

بن حموية فيه إيواناً للتدريس وبيوتاًً خاصة للفقهاء في الدور العلوي منه[1]. وقد درّس في هذا المشهد الشريف مشاهير العلماء منهم: شمس الدين الأصبهاني[2]، وجمال الدين المصري[3] وغيرهما.

3- قرافة مصر:

هي كما وصفها ابن بطوطة بأنها"...من جملة جبل المقطم، تبنى فيها القباب والحيطان فتكون كالدور ويبنون فيها البيوت، ويرتبون القراء ليلاً نهاراً، ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة"[4]. ويقول ابن جبير:"من العجيب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء" [5]. نستطيع أن نستنتج من ذلك أن قرافة مصر شكلت مركزاً ثقافياً مهماً للمذاهب السنية، حيث أقيمت فيها مدارس العلوم الدينية، والقبب، والزوايا، حتى أصبحت معقلاً للعلماء والطلبة وأهل الدين والتصوف. ومن أشهر من أقرأ فيها، خليل بن عثمان القرافي[6]، وشيخ يقال له أبو الجود[7]. أما من أشهر مدارسها، المدرسة الناصرية الصلاحية[8] التي بناها صلاح الدين الأيوبي، والتي بقيت في عز نشاطها العلمي حتى العصر المملوكي الأول[9].

سابعاً: حوانيت الورّاقين

لم تكن دكاكين الوراقين مجرّد أمكنة لبيع الكتب، بل كانت في أغلب الأحيان أمكنة يجتمع فيها أهل العلم والأدب، خاصة وأن أصحابها كانوا من الأدباء وذوي الثقافة والفكر.

1- المقريزي: الخطط، ج2، ص 323-324.

2- هو العلامة أبو عبد الله محمد بن محمود بن محمد بن عياد العجلي الشافعي. كان إماماً في الأصول والمنطق والنحو. ولد بأصبهان سنة 616هـ، وبدأ علمه في بغداد ثم رحل إلى حلب ومنبج ثم قدم إلى القاهرة، حيث اشتغل بالتدريس في المشهد الحسيني والمسجد الشافعي. له مصنفات كثيرة. توفي في رجب سنة 688هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص382؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص750؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص260؛ السبكي: طبقات، ج5، ص41.

3- هو يحيى بن عبد المنعم بن حسن، شافعي المذهب،. تبحّر في الفقه حتى أصبح حافظاً لكثير من مسائله. درّس بالمشهد الحسيني، وتوفى فر رجب سنة 680هـ. السبكي: المصدر نفسه، ج5، ص149.

4- ابن بطوطة: الرحلة، ص39.

5- ابن جبير: الرحلة، ص18.

6- السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص178.

7-ابن تغري بردى: المصدر السابق، ج7، ص356.

8- Jomier, J: Article Al- Kahira, EI2, T4,P443

9- المقريزي: الخطط، ج4، ص200؛ النويري: نهاية الأرب، ج28، ص241؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص391؛ السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص42، ص224؛ أبو الفداء: المختصر، ج3، ص50؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج5، ص385؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص402-403؛ Pedersen,J: Article Madrassa, EI2,T5, p1124

ولقد اكتظت مدينة القاهرة بدكاكين الوراقين، لتؤسس سوقاً خاصة للكتب علوم الدين والعقل، وقع في البداية بمدينة مصر تجاه جامع عمرو بن العاص في أول زقاق القناديل. وبعد سنة 700هـ/ 1303م، انتقل هذا السوق إلى ما بين المدرسة الصالحية وسوق الصّاغة، إلا أن بضعة دكاكين بقيت في السوق القديم إلى ما بعد سنة 780هـ/1378م. وكان هذا السوق مقصداً لأهل العلم يترددون إليه ويجتمعون فيه للقراءة والمناظرة[1]، شأنهم في ذلك شأن كبار العلماء والمفكرين المسلمين في المدن الإسلامية الأخرى مثل: ابن النديم صاحب الفهرست، والجاحظ، وياقوت الحموي وغيرهم[2].

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج3، ص185؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman, P36

[2]- شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص63؛ الجاحظ، كتاب الحيوان، ص6؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P414

الفصل الرابع: مدارس التعليم الدنيوي في مدينة القاهرة المملوكية

أولاً: مكانة العلوم الدنيوية في عصر المماليك البحرية

لم تتطرق المصادر التاريخية إلى حديث مفصّل عن حركة تعليم العلوم العقلية في العصور الاسلامية بشكل عام باستثناء الكتب الطبية، وفي العصر المملوكي بشكل خاص، ولعل ذلك يعود إلى أن هذه العلوم لم تكن موضع عناية حكام المسلمين، كما كانت عليه العلوم الدينية التي شكّلت المرتكز الأساسي الذي قامت عليه الدولة الإسلامية. إلاّ أن ذلك لا يعني أن المسلمين كانوا على غير اهتمام بتلك العلوم، وإن لم ينتشر هذا الاهتمام بين مختلف طبقات الناس[1]. فالمسلمون خاضوا في مجمل العلوم العقلية التي عرفوها، وأحرزوا تقدماً كبيراً فيها، خاصة وأن القرآن الكريم قد شكل بالنسبة لهم دافعاً كبيراً للبحث في هذا النوع من الدراسات من خلال آيات كثيرة تدلل على أن الطبيعة مصدر هام من مصادر العلم، وأيضاً بعد أن اطلعوا على الحضارات السابقة لهم، كالهندية، واليونانية، والفارسية، ونقلوا عنها ما عرف باسم علوم الأوائل[2]، فترجموها ودرسوها ونقّحوها، ومن ثم طوّروها وزادوا عليها الكثير من اكتشافاتهم واختراعاتهم[3]، التي حققوها من خلال تطور فكري تدريجي في البحث العلمي[4]، القائم على منهج الملاحظة والتجربة الذي كان لهم الفضل في اكتشافه[5]، في وقت كانوا فيه قد بدأوا يؤمنون بفكرة التخصص العلمي مقابل مبدأ التبسط[6].

ونتيجة ذلك، ظهر في العصر المملوكي الأول، علماء مسلمون أفذاذ نبغوا في مختلف علوم العقل[7] وأجادوا فيها، وسجّلوا نتائج رائعة في علوم الطب، والهندسة، والفلك، والكيمياء، والرياضة، والصيدلة، والجغرافيا وغيرها، ونقلوها إلى طلبتهم[8]. ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال ابن جماعة[9]، الذي أتقن علوماً

1- كان بعض الآباء يمنعون أولادهم من الاشتغال بالعلوم العقلية. السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص99.

2- وتشمل علوم المنطق، الرياضة، الفلك، وصف الأرض، الطبيعة، الكيمياء، والطب، والنجامة. المقريزي: الخطط، ج2، ص292؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P P306-316

3- سيديو : خلاصة تاريخ العرب، ص208؛ شلبي، أحمد: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج2، ص ص 58-61؛ Hitti, Philip: Ibid, P P363-407

4- روزنتال، فرانتز: مناهج العلماء المسلمين، ص ص 187-188؛ شلبي، أحمد: المرجع السابق، ج2، ص21-23.

5- روزنتال، فرانتز: المرجع نفسه، ص175؛ عاشور، سعيد: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص436.

6- روزنتال، فرانتز: المرجع نفسه، ص ص 163-178.

7- عددها ابن خلدون في مقدمته وحددها كما يلي: المنطق، الأرثماطيكي ويتضمن الحساب، الهندسة، الهيئة، الموسيقى، الطبيعيات ومنها ما يتعلق بالإنسان والحيوان والنبات، والفلاحة. ابن خلدون: المقدمة، ص435

8- Hitti, Philip: Ibid, PP683-693.

9 – هو محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد بن سعد الله المصري الشافعي الحموي الأصل المولود سنة 746هـ.

عدة، وضع فيها تصانيف كثيرة وأفاد طلاب كثر. وكان يقول:" أنا أقرىء في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها"[1]، ومنهم أيضاً أبو الفتوح ابن قطب الذي برع بالفقه، والمنطق، والبيان، والجبر والفرائض، والحساب، والمقابلة، والميقات، والعربية[2].

ثانياً: أماكن التعليم الدنيوي في القاهرة المملوكية

كانت للعلوم العقلية أنظمتها الخاصة، كما كان لها مدرّسوها وطلابها الذين كان لهم الفضل في رواجها وتطوّرها. وإذا كانت المصادر التاريخية قد أغفلت التصريح عن أماكن تدريسها، إلا أننا نستطيع أن نستعين بكثير من الدلائل الواردة فيها، لنتبيّن بأن هذه العلوم كانت تدرّس في أماكن عدة كالمدارس الدينية منها والمتخصصة، ومنازل العلماء، والحوانيت، والمكتبات، والمجالس العامة، وغيرها، دون أن ننسى طبعاً دور المسجد في هذا المجال[3].

فعلى الرغم من أن أكثر المدارس المملوكية ركّزت نشاطها على تعليم العلوم الدينية وخاصة الفقه، إلا أنه من الواضح أن بعضها قد شهد تعليم العلوم العقلية، وخاصة مدارس مدينة القاهرة [4]. فالنجاح الذي حققته المدرسة كمكان للتعليم، جعلها تستقطب التعليم الدنيوي إليها، ليدرَّس فيها، إلى جانب العلوم الدينية، التي تحتاج في كثير من الأحيان، إلى علوم العقل، كالمنطق، والحساب وغير ذلك لشرحها وتعليلها. ولذلك، كثيراً ما كانت حلقات الفقه والحديث والتفسير خصوصاً، تشهد بعض التعليم العقلي نظراً لما يحتويه القرآن الكريم من دلائل وآيات تشير إلى العلوم العقلية. فكان كثير من المدرسين يستطردون في دروسهم إلى فوائد علمية متنوعة بحسب إلمامهم وطاقتهم[5].

ومن المدارس التي شهدت الدروس العقلية، مدرسة "منازل العز" الشافعية، التي نزل بها العالم علي بن أبي السيف الآمدي[6] في ذي القعدة من سنة 592هـ/ 1196م، فحاضر ودرّس تصانيفه في علوم الأوائل

---

[1] – الشوكاني: البدر الطالع، ج2، ص62.

[2]– السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص114.

[3]– مهما يقال عن دور حوانيت الوراقين، ومنازل العلماء، وقصور الخلفاء، وغيرها، فإن هذه الأماكن لم تكن مفتوحة الأبواب أمام الجميع وفي كافة الأوقات، بحيث يطرقها أي طالب بسهولة.فالوراق فتح حانوته بهدف الربح أولاً، والبيوت لها حرمتها، والقصور لا يسمح لكل الناس بدخولها وكذلك المدارس،.لذا يظل المسجد أفضل أماكن التدريس. عاشور، سعيد:بحوث ودراسات، ص437.

[4]– سيديو: خلاصة تاريخ العرب، ص207.

[5]– القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص464.

[6]– عراقي الأصل، ولد بعد سنة 550 هـ، قرأ المذهب الشافعي على مشائخ بلده، وأخذ علم المناظرة والجدل عن ابن بنت المنى المكفوف، كما أخذ علم الأوائل عن نصارى الكرخ ويهودها.

وأصول الفلسفة، ونقلها عنه كثيرون ومنهم ابن القفطي[1]. وكذلك المدرسة الحسامية التي تصدّر فيها تاج الدين أبا الحسن عبد الله الأردبيلي الشافعي القاهري، وكان عالماً في الفقه والعربية، والأصول، والحساب، والمنطق، لتدريس هذه العلوم، فانتفع به كثيرون[2]. وكذلك المدرسة الجانبكية التي جلس فيها ابن المجدي[3]، وكان من أهم علماء وقته في الحساب، والهندسة، والهيئة، والفرائض ليدرّس علومه[4].

ولما كانت المعلومات السابقة تفيد بقيام بعض المدارس القفهية بتدريس علوم الأوائل، والتي وبحسب ابن النديم، يعتبر علم الطب واحداً منها[5]، فلا يستبعد أن تكون هذه المدارس قد شهدت دروساً في الطب. وإذا ما دققنا قليلاً في كلام المقريزي عن المدرسة المهذبية[6] الواقعة في حارة حلب، والتي بناها مدِّرس الطب في البيمارستان المنصوري ابن أبي حليقة، نستنتج أن هذه المدرسة كانت مدرسة للطب، أو أنها قد تكون شهدت دروساً في الطب.

ومع ذلك لا نستطيع القول أن الإقبال على التعليم الدنيوي في المدارس الدينية كان بحجم الإقبال على التعليم الديني، لأن مفهوم العلم في ذلك الوقت اقتصر بشكل أساسي على التعليم الديني من جهة[7]، ولأن علوم العقل كانت لها أماكنها الخاصة التي تدرس فيها، بدليل ما ذكره ابن دقماق عن مدرسة تعرف باسم مدرسة ابن يعقوب تقع في آخر زقاق القناديل، فقال:"... لم أعلم أن أحداً درس فيها ولا اشتهر لها طلبة قال ابن المتوج رأيت على بابها إنسان يقال له الفقيه إسماعيل يعلّم الحساب..."[8]. وهذا فيما يتعلق بتعليم العلوم العقلية في المدارس الدينية.

أما فيما يتعلق بالمدارس المتخصصة، فقد تنوعت بتنوع العلوم التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت، وكانت عبارة عن مجالس خاصة يقيمها العالم في منزله على الأرجح. إلا أن المصادر قد أوردت ذكر ثلاثة أنواع من المدارس المتخصصة التي اتخذت لنفسها مكاناً مستقلاً وهي البيمارستانات، ومدارس الطباق

1- ابن القفطي: أخبار الحكماء، ص161.

2- المقريزي: السلوك، ج4، ص12.

3- هو أحمد بن رجب بن طنبغا المجد بن الشهاب القاهري الشافعي المولود سنة 767هـ، والمتوفى سنة 850هـ.

4- الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص41-42.

5- ابن النديم: الفهرست، ص398.

6- المقريزي: الخطط، ج4، ص209؛ بدوي، أحمد: الحياة العقلية، ص299،77.

7- Gradin, Nicole: La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman,P14, Hitti, Philip: History Of Arabs, P 410

8- ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص95.

العسكرية، والمراصد الفلكية التي كانت بمثابة معاهد خاصة لتعليم الفلك[1]، كمرصد ابن يونس الذي أقيم على جبل المقطم في مدينة القاهرة في العهد الفاطمي[2].

وبما أن علم الطب هو أحد العلوم العقلية، وما ينطبق عليه يصح تطبيقه على العلوم العقلية الأخرى، ونظراً لأهمية هذا العلم وتأثيره على حياة الإنسان، رأيت أن أتخذه أنموذجاً للتدليل على مدى تطور العلوم العقلية ورواجها في مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول، وأن أقدم من خلاله، لمحة عامة عن أماكن وطريقة تدريس هذه العلوم، علّ ذلك أن يشكل إضافة مفيدة لهذا البحث.

كانت البيمارستانات[3]، من أهم المدارس المتخصصة بتعليم الطب في مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول، على أن هذا التعليم لم يقتصر على البيمارستانات وحدها، فقد ذكرت المصادر التاريخية أن الأطباء قد استخدموا منازلهم ودكاكينهم لتدريس الطب، تماماً كما استخدموا المكتبات والحوانيت، وهذا طبعاً دون أن ننسى دور الجوامع في هذا المضمار. والواقع أننا نستطيع أن نستنتج من خلال مطالعة أمهات الكتب، أنه أينما تواجد العالم أو الطبيب كان طلابه يلازمونه ويأخذون عنه[4].

1- البيمارستانات

اهتم المسلمون بعلم الطب اهتماماً كبيراً وأولوه أهمية قصوى لما له من تأثير على حياة الإنسان و وجوده، فعملوا على تطويره ونشر علومه، فبنوا المشافي الكبرى في مدنهم الأساسية، وألحقوا بها المدارس الطبية حتى كثرت وانتشرت شرقاً وغرباً موفرين لها كل ما يلزمها من آلات طبية، وتجهيزات، ومواد أولية، وأدوية، وتكاليف مادية وأطباء ومدرّسين وصيادلة. وكما في العصر الحديث، كانت البيمارستانات عبارة عن مستشفيات تعليمية، فكانت في الوقت نفسه مكاناً للاستشفاء، ومدارس لتعليم الطب[5].

---

[1]- Jacqueline Sublet: La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman,P16;Hitti, Philip: History Of Arabs, P 410.

[2]- سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص889-890.

[3]- مفردها بيمارستان، أطلق العرب هذا اللفظ على المشفى، وكانوا يقولون "مارستان" للتخفيف. والبيمارستان كلمة فارسية الأصل تتكون من مقطعين: بيمار وتعني مريض، وستان وتعني مكان، فتصبح مكان المرضى، عممها في بلاد العرب الأطباء النساطرة الذين طببوا فيها.

[4]- Pedersen,J: Article Madrassa, EI2, T5, P1126

[5]- بحسب ابن أبي أصيبعة كانت البيمارستانات منذ عهد الرشيد أمكنة لتعليم الطب. عيون الأنباء، ص187؛ Pedersen, J: Ibid, P1126 ; Hitti, Philip: Ibid, P365.

وقد حظيت القاهرة، كغيرها من المدن الإسلامية الكبرى، بتقدم كبير في المجال الطبي رافق التطور العلمي والفقهي، الذي انطلق فيها بعناية أمرائها وسلاطينها الذين أنشأوا البيمارستانات منذ أيام الأمير أحمد ابن طولون، الذي بنى في سنة 259هـ/872م، البيمارستان العتيق، أو البيمارستان الأعلى[1]، مروراً بالبيمارستان الناصري الصلاحي الذي أنشأه الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ/ 1171م، في إحدى قاعات القصر الفاطمي[2]، وصولاً إلى البيمارستان المنصوري الكبير الذي بناه المنصور قلاوون، وشكّل علامة فارقة في تاريخ الطب المصري- الإسلامي في ذلك الوقت.

(1) **البيمارستان المنصوري**: هو من أهم وأكبر البيمارستانات والمدارس الطبية في مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول[3]. أنشأه الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي[4]، بخط ما بين القصرين من القاهرة، وكان في الأصل قاعة ست الملك، ابنة العزيز بالله نزار الفاطمي، أمر المنصور قلاوون بتحويلها سنة 682هـ /1283م، إلى مجمّع تعليمي كبير، يضم مدرسة[5]، وقبة[6]، ومارستاناً[7]، ومكتب سبيل[8]، بعد أن اشتراها من مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقطبية. وقد أشرف على انجاز العمل في هذا البيمارستان في فترة لم تتجاوز الأحد عشر شهراً وأيام، الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وكان قد شرع في تنفيذها في أول ربيع الآخر من سنة 683هـ/1284م[9].

---

[1] _Hitti, Philip: History Of Arabs, P365 ابن دقماق: الانتصار، ج4، ص99؛ المقريزي: الخطط،ج4، ص267.

[2]-ابن جبير: الرحلة، ص19؛ المقريزي: الخطط، ج2، ص287؛ الشطي، شوكت: تاريخ الطب، ص36.

[3]- قال المنصور قلاوون في كتاب تعيين أحد الأطباء المدرسين:" ... وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب...وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس". القلقشندي: صبح الأعشى،ج11، ص250.

[4]- هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي النجمي الصالحي العلائي، من جنس القبجاق، جُلِب على القاهرة وهو صغير، فاشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقي العادلي، أحد مماليك العادل أبي بكر بن أيوب بألف دينار، ولما مات علاء الدين، صار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وأصبح من جملة مماليكه، فعرف لأجل ذلك بهذا الاسم.المقريزي: السلوك، ج2، ص122؛ الكتبي:فوات الوفيات، ج3، ص203-204؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، تحقيق محمد الخطيب، ص 122-124؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص ص 15-27؛ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ص 61-67؛

[5]- الحداد، محمد: المرجع السابق، ص ص 160-182.

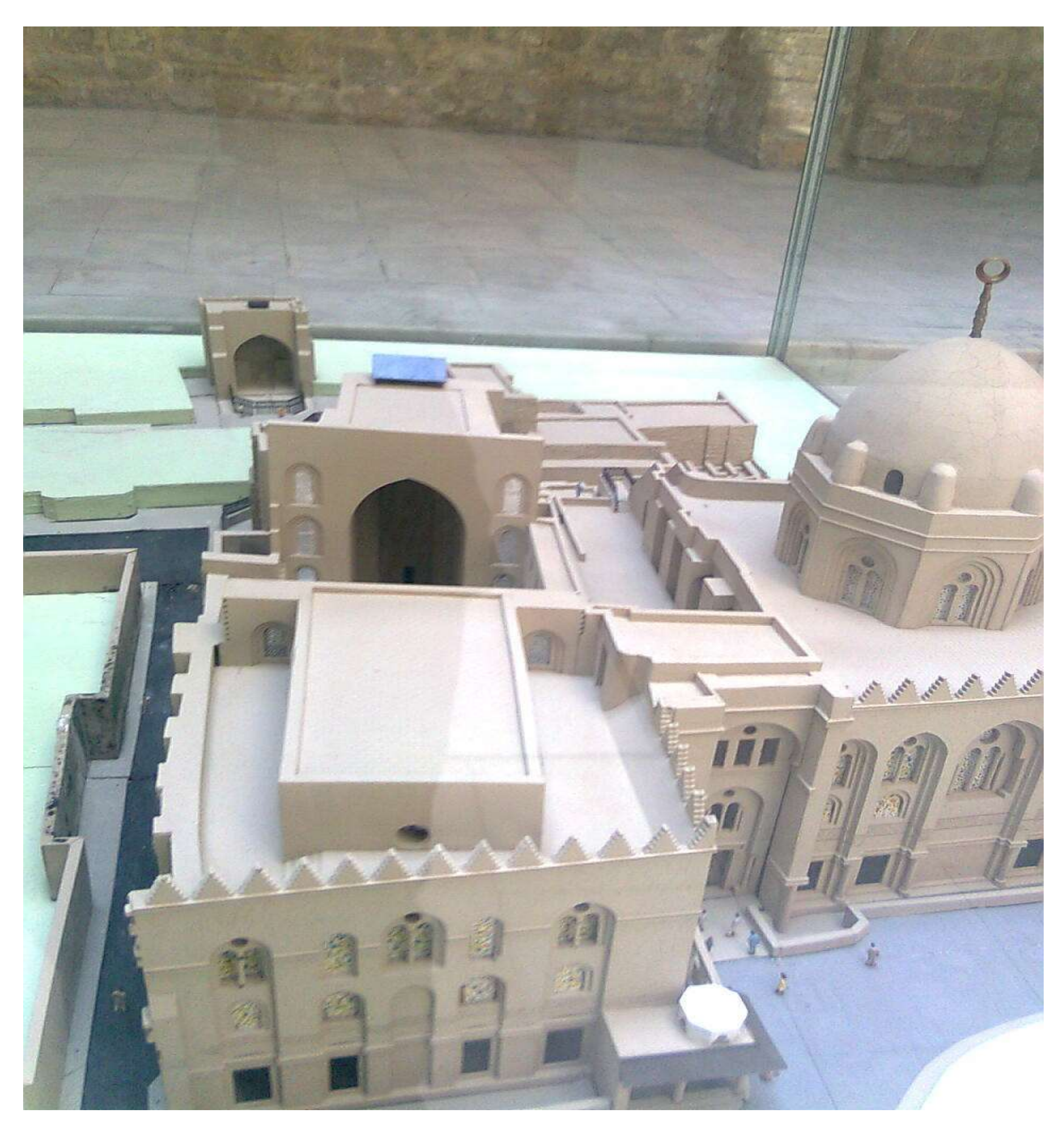
[6]- الحداد، محمد: المرجع نفسه، ص ص 140-158.

[7]- الحداد، محمد: المرجع نفسه، ص ص 121-138.

[8]- الحداد، محمد: المرجع نفسه، ص ص 54-55.

[9]- القلقشندي: صبح الأعشى،ج4، ص39؛مآثر الأناقة في معالم الخلافة،ج2، ص124؛ بيبرس المنصوري: المصدر السابق،ص152؛ المقريزي: الخطط، ج4،ص268؛ Hitti, Philip: History of Arabs, P 678

وصف ابن بطوطة هذا البيمارستان بقوله:"... أما البيمارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور يعجز الواصف عن محاسنه وقد أعدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر"[1]. أما المنصور قلاوون فقد أعلن يوم افتتاحه:"...قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني على الملك والمملوك الكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى..."[2].



مجسّم لمجموعة قلاوون (البيمارستان والمدرسة والقبة)   عن شبكة الأنترنت

[1]-ابن بطوطة: الرحلة، ص37.

[2]- المقريزي: الخطط، ج4، ص269.

(2) **أقسامه**: كجميع البيمارستانات، يتألف البيمارستان المنصوري من عدة أقسام هي:

أ- القسم الداخلي: يتألف هذا القسم من أربعة أواوين، قسّمت إلى جناحين: جناح للذكور وآخر للإناث، وقسّم كل جناح إلى عدة قاعات، لكل مرض قاعة خاصة به، فكان فيه مثلاً قاعة للرمد وأمراض العين، وقاعة للجراحة والعمليات، وقاعة للأمراض الداخلية ، كما كان فيه أيضاً قاعة للأمراض النفسية والعصبية (الممرورين)، وقاعة للأمراض المعدية، إضافة إلى أمكنة خاصة للعزل[1]. وكان كل جناح وقسم مجهزاً بما يحتاجه من معدات وخدم وفراشين ومشرفين وغيره[2].

ب- العيادة الخارجية: وفيها كان يجلس الطبيب على دكة، فيدخل إليه المريض ويعرض حالته، فيصف له الطبيب الدواء اللازم على "روشتة" خاصة، يقدمها لصيدلية البيمارستان التي تصرف له الدواء والشراب الموصوف من الطبيب ثم ينصرف إلى بيته[3]. وكان المريض يخضع للفحص من قبل الطبيب المختص وبحضور تلامذته الذين يدوّنون ملاحظاتهم ويسجلون الوصفات والأدوية المعطاة له، ليتم بعد ذلك درسها والبحث فيها مع أستاذهم. وإذا واجهتهم حالة مستعصية، كان الأطباء يعقدون لها مجالس استشارية ليتدارسوا فيها الحالة بحضور تلامذتهم.

ح-الشرابخانة: أو الصيدلية الملحقة بالبيمارستان، وفيها من الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة، وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة، كما فيها من الآلات والأدوية، والمعدات الطبية، والأواني والبراني وغير ذلك مما يستعمل في تحضير الأدوية والأشربة الشيء الكثير. وكان يديرها صيدلاني طبيب، يعاونه مساعدون وتجار يجمعون له الأعشاب الطبية، ويزودونه بالبخور والتوابل وغيرها[4].

وفي هذا السياق، لابد من الحديث عن التطور الذي حققه علم الصيدلة، والمستوى العلمي الهام الذي توصل إليه صيادلة ذلك الوقت، فقد لمع الكثير منهم وكانوا على درجة عالية من الكفاءة والمعرفة، منهم على سبيل المثال: الحكيم العالم ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي النباتي المعروف بابن البيطار. كان علامة وقته في معرفة النبات وتحقيقها ومواضع نباتها ومعرفة أسمائها على اختلافها وتنوعها. سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، حيث لقي جماعة يشتغلون بهذا العلم فأخذ عنهم الكثير، كما عاين

---

[1]- الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، ص217؛ الشطي، شوكت: تاريخ الطب، ص10.

[2]- المقريزي: الخطط، ج4، ص269؛ الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه، ص217؛ الشطي،شوكت: المرجع نفسه، ص37؛ شعبان، منى: تدريب أطباء بغداد،ص ص 68-71؛ مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص73.

[3]- لمعي، مصطفى: التراث المعماري ،ص55؛ الشطي، شوكت: المرجع نفسه، ص37؛ الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه، ص236.

[4]- المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص269؛ الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه، ص221.

كثير من النبات في موضعه واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات وعاين منابته وتحقق ماهيته، وقرأ كتاب ديقوريدس فأتقنه إتقاناً بلغ فيه إلى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيه..."[1].

– **المكتبة**: ككل مدرسة ودار علم، احتوى البيمارستان على مكتبة كبيرة ضمت جميع المخطوطات والكتب المتعلقة بالطب والصادرة عن كبار أطباء العرب المسلمين وغير المسلمين مثل الرازي، وابن سينا، وأبقراط، وجالينوس وغيرهم. وكانت الكتب متنوعة، منها ما هو موسوعي يتناول أمراض الجسم كلها مثل كتاب "القانون" لابن سينا، ومنها ما هو مخصص لمرض واحد أو عضو واحد من جسم الإنسان ككتاب "الكافي في أمراض العين"[2]. وكانت هذه المكتبة تتلقى الدعم والتبرع من الكتب إضافة لما هيأه لها قلاوون. فكثير ما كان العلماء والأطباء يوصون بوقف مكتباتهم الخاصة لصالح مكتبة البيمارستان بعد مماتهم كما فعل الطبيب ابن النفيس[3].

(3) **إدارة البيمارستان**: كباقي البيمارستانات،كان يدير البيمارستان المنصوري رئيس الأطباء ويسمى "ساعور الأطباء" ، يعاونه رؤساء الأقسام، حيث كان يدير كل قسم رئيس خاص به، يعاونه طلبته ومعاونون يراقبون المرضى ويعطونهم الوصفات الطبية اللازمة، ويسجلون ملاحظاتهم المتعلقة بتطور حالة المرضى بشكل يومي على سجلات خاصة بالمرضى تحفظ في مكان خاص بها، يدون فيها تاريخ المريض الصحي وعوارض المرض وتاريخه، ليتطلع عليها الطبيب عند الحاجة[4]. وكان في كل قسم عدد لا بأس به من الأطباء المختصين، منهم من يلازم البيمارستان ليلاً ونهاراً، ومنهم من يداوم دواماً جزئياً. وفي بعض الأحيان، كان يؤتى بطبيب من قسم أو من مارستان آخر للإستشارة[5].

[1]– ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص555-556.

[2]– الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، ص273.

[3]– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج7 ،ص377؛ المقريزي: السلوك ،ج1، ص746؛ السيوطي: حسن المحاضرة ،ج1، ص260؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص55؛ الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه، ص230.

[4]– الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه، ص219؛ الشطي، شوكت: تاريخ الطب، ص12؛ مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص73.

[5]– الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه، ص236.

أما الأطباء الذين طببوا ودرّسوا في هذا البيمارستان، فكانوا من المشهورين المشهود لهم بالكفاءة من الطبائعية[1]، والمجبّرين، والكحالين[2]، والمزيّنين[3]الذين جلبوا إليه من مختلف الجهات الإسلامية، منهم العلامة علاء الدين ابن النفيس[4]، والشيخ ركن الدين بن القوبع[5]، وسراج الدين البهادري[6]، وعمر بن عبد الله السراج[7]، والرئيس مهذب الدين بن أبي حليقة[8]، ومهذب الدين ابن الموفق اليهودي[9] وغيرهم. وكان هذا البيمارستان محط اهتمام السلاطين الذين كانوا يعينون فيه الأطباء والمدرسين والطلبة[10].

وبالإضافة إلى الفريق الطبي، كان هناك عمال يقومون بالأعمال غير الطبية كالقومة والطباخين والفراشين والوكلاء والحاس والبوابين والمحاسبين وغير ذلك[11].

(4) إيرادات البيمارستان: كانت البيمارستانات تعتمد في ماليتها بشكل أساسي على الوقف المسجل في حجة مكتوبة تبيّن الهدف الذي لأجله أنشئ البيمارستان والوقف المرتب له من قبل السلطان أو الخليفة، الذي غالباً ما كان يتولى إدارته المالية بنفسه أو من خلال من ينوب عنه من كبار الأمراء الذي يذكر اسمه في كتاب الوقف[12]. أوقف المنصور قلاوون لهذا البيمارستان وقفاً كبيراً يقوم بتلبية حاجاته ومصاريفه الكاملة، بحيث بلغ ريعه السنوي ما يقارب الألف درهم بالسنة، تصرف على البيمارستان والمدرسة والقبة المنصورية[13].

---

[1]- مفردها طبائعي وهو طبيب الأمراض الداخلية.

[2]- الكحالون هم الذين يفصدون الأكحل. والأكحل عرق في اليد يُفصَد. قال ابن سيده يقال له عرق النسا بالفخذ، والأبهر في الظهر، وقيل عرق فيوسط الذراع يكثر فصده. لسان العرب(كحل) ويعني بالكحالين هنا أطباء العيون.

[3]- يقصد بالمزينين الجراحين. فقد ذكر المقريزي أن الملك المعظم تورانشاه استدعى المزين ليداوي جرحه بعد أن حاول المماليك قتله. السلوك، ج1، ص458.

[4]- هو علي ابن أبي الحزم القرشي الدمشقي الشافعي (ت689هـ) شيخ الطب في الديار المصرية وأحد أهم أعلامه، كما برع في علوم الفقه والأصول، والحديث، والعربية، والمنطق. اشتغل في البيمارستان المنصوري حيث سطع نجمه في طب العيون، وكرّس نفسه للإفادة ليلاً ونهاراً حتى صار عميداً للمدرسة الطبية، فعلّم وخرّج كثيراً من الأطباء الأكفاء في القاهرة قبل أن يعود إلى دمشق. الشطي، شوكت: تاريخ الطب، ص169.

[5]- تونسي الأصل، ولد سنة 664هـ، وجاء إلى مصر سنة 690هـ و تولى تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري سنة738هـ وكان عمره أربع وسبعين سنة.

[6]- هو عمر بن منصور بن عبد الله القاهري الحنفي المولود سنة 762هـ، اشتغل بالفقه والطب، فدرّس الأول في جامع ابن طولون، والثاني في البيمارستان المنصوري. الشطي، شوكت: المرجع السابق، ص42.

[7]- السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص126.

[8]- المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص189؛ الخطط، ج4، ص253.

[9]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج11، ص249.

[10]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج10، ص79.

[11]- شعبان، مني: تدريب أطباء بغداد في العصر العباسي، ص ص 73-75.

[12]- القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص40.

[13]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص269.

(5) **نظام المعالجة في البيمارستان:** طبق في هذا البيمارستان نظام صحي ورعائي على درجة عالية من الرقي يراعي صحة المرضى وحالتهم النفسية والبدنية. فبالإضافة إلى نظام العيادة الخارجية، كان البيمارستان يستقبل كل مريض بحاجة إلى العلاج داخله، مهما كان لونه أو دينه أو جنسه أو عمره. وكان النظام المتبع بأن يأتي المريض إلى البيمارستان، فيعرض حالته على الطبيب، ويعطى الأدوية اللازمة له. وإذا كانت حالته تستدعي دخوله إلى البيمارستان، يرسل به إلى القسم الخاص بحالته، حيث يسجل اسمه على سجل خاص به، ثم تنزع عنه ثيابه، ويعطى ثياباً نظيفة خاصة بالمرضى، وتؤخذ منه نقوده وما معه من أغراض خاصة فتودع لدى صندوق الأمانات حيث تحفظ باسمه. وبعد ذلك يبدأ العلاج اللازم، فيعطى الأدوية والأشربة الضرورية، ويقدم له الطعام المناسب بإشراف الطبيب مجاناً إلى أن يبرأ. وكانت علامة البرء أن يأكل المريض فروجاً ورغيف خبز[1].

أما المعاينة الطبية فكانت تعتمد بشكل أساسي على فحص البول للمريض وجس نبضه[2]، ومراقبة العوارض المرضية الظاهرة كالحرارة، وقابليته للطعام، وانتفاخ البطن و غير ذلك. كما يتم درس نمط حياة المريض ونظام عائلته ومناخ المنطقة التي يعيش فيها، وأوجه التغيير فيها وأسباب هذا التغيير إذا ما تم وغير ذلك من الأمور[3] التي تؤخذ في عين الاعتبار عند دراسة حالة المريض وتشخيص مرضه. ولقد تفنن الأطباء العرب في معالجة المرضى، وراعوا وضع المريض الجسدي والنفسي حتى إنهم اهتدوا إلى العلاج بالموسيقى، ورواية القصص، ومشاهدة الرقص، والتمثيل [4].

(6) دروس البيمارستان: حرص المنصور قلاوون على توضيح أهمية تعليم الطب في البيمارستان، فاشترط في كتاب الوقف" الانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به"، فأمر ناظر الوقف بتعيين شيخ من الحكماء يكون عارفاً بالطب وأوضاعه وعالماً بأسباب المرض وعلاجاتها، ليدرس الطب، فيجلس هو وطلبته على المسطبة الكبرى ليلقي عليهم درسه[5]. وبموجب ذلك الشرط، كان على المدرسين إعطاء طلابهم كل ما يعرفونه من علم ومعرفة من أجل تخريجهم أطباء متخصصين في الجراحة والعيون والعظام والأمراض الباطنية، وكذلك فيما

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج4،ص269.

[2]- ابن الحاج: المدخل، ج1، ص 38.

[3]- الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، ص237-240.

[4]- الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه، ص ص 245-250.

[5]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص229؛ المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص269؛ حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية، ص164؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص ص 55-57.

يتعلق بتدريب مجموعة من الصيادلة لتحضير الأدوية ، فعلم الصيدلة متصل بعلم الطب وهو جزء لا يتجزأ منه، فالأول يشخّص والثاني يعالج .

وكانت مدرسة الطب عبارة عن قاعة كبيرة خصصت لإلقاء المحاضرات والدروس على الطلبة، إضافة إلى صالة يجتمع فيها الأطباء ورئيسهم للتداول في الحالات الطبية المختلفة[1].

وقد عرّف الرازي علم الطب بأنه علم يقوم نظري وعملي، فكان تعليمه يقوم على مرحلتين نظرية وعملية. وبحسب ابن رضوان، كانت الدروس تستمر ثلاث سنوات، يدرس فيها الطالب في البداية دروساً في الحساب والمنطق، لأنه"... من عرف المنطق أمكنه فهم كتب جالينوس، وأن يضع من تلقاء نفسه لكتب جالينوس جوامع وشروحاً". وبعد ذلك يدخل الطالب في دروس الطب فيقرأ كتب أبقراط، وجالينوس وديسقوريدس، ويتدرب في أثناء ذلك على الأعمال الطبية المختلفة تحت إشراف أساتذته[2]. وكانت الدراسة النظرية كما قسّمها الرازي تتم على ثلاث مراحل، تبدأ بقراءة الكتب الطبية العامة واستيعابها جيداً، فلما يحفظ الطالب مبادىء علم الطب وعمومياته مثلاً، يبدأ بعدها بالانشغال بكتب جالينوس وأبقراط وغيرهما من أساطين الطب ليتعمق أكثر فأكثر في هذا الفن. وبعد ذلك يتوجب على طالب الطب أن يتصل بالفلاسفة والمفكرين، وأن يقرأ على الشيوخ، ويناظرهم ويتعلم منهم على ما صعب عليه فهمه. وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في معرض كلامه عن الطبيب رشيد الدين أبي سعيد أنه:"...اشتغل بعلم الطب على عمي الحكيم رشيد الدين علي بن خليفة ... وقرأ عليه... وهو دائم الاشتغال عليه إلى أن أتقن حفظ جميع ما ينبغي أن يحفظ من الكتب التي هي مبادئ لصناعة الطب، ثم قرأ عليه كثيراً من كتب جالينوس وغيرها وفهم ذلك فهماً لا مزيد عليه..."[3].

وإذا أتم الطالب هذه المراحل الثلاث، يكون قد أنهى المرحلة النظرية من دراسة الطب وهي المرحلة الأهم ليس في علم الطب فحسب، بل في مختلف العلوم والصناعات والمهن ومن بعدها ينتقل الطالب إلى التطبيق العملي[4] الذي يستوجب العمل قرب أسرة المرضى داخل البيمارستان، ومرافقة مدرّسيهم في عيادة مرضى البيوت ليتعلموا الفحص الطبي والعلاج وليدوّنوا ملاحظاتهم[5]. وفي هذه المرحلة أيضاً يتوجب على

---

[1]- المقريزي: الخطط، ص269.

[2]- الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، ص255.

[3]- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص554.

[4]- شعبان، مني: تدريب أطباء بغداد في العصر العباسي، ص84.

[5]- شعبان، مني: المرجع نفسه، ص ص 91-94.

الطالب أن يجري التجارب الطبية في البيمارستان ويطّلع على كل جديد، مع مداومة النظر والبحث في الكتب الطبية خاصة في أوقات الفراغ، لأنه برأي الرازي متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل.

وبعد انهاء دراساته النظرية والعملية، كان الطالب يخضع لفترة تدريب (stage)، يمارس خلالها نشاطه الطبي تحت إشراف أستاذه[1]، تنتهي بامتحان يخضع له الطالب، ويحصل بموجبه على إجازة تصدر عن المحتسب، تسمح له أن يتسلم مهامه الطبية وأن يمارس المهنة حسب اختصاصه[2].

2- عيادات الأطباء

غصّت المصادر التاريخية بالشواهد التي تؤكد اتخاذ الأطباء المسلمين عيادات خاصة بهم مستقلة عن البيمارستانات، استقبلوا فيها المرضى للعلاج. وقد سموا هذه العيادات "الدكان". فقد أورد ابن أبي أصيبعة أنه كان للطبيب ابن جميع دكان عند سوق القناديل بالفسطاط [3]. وربما استقبل الأطباء طلابهم في دكاكينهم لمتابعة الحالات المرضية والدراسة الميدانية [4]، وقد تكون العيادات مستقلة في الأسواق، وقد تكون غرفة من غرف منزل الطبيب[5].

3- منازل العلماء

لم يعدّ العلماء المسلمون المنازل مكاناً للتعليم العام، معتبرين أن للمنازل حرمة واجبة لا تتوافق مع حركة دخول الطلاب وخروجهم في أي وقت. كما أن حلقات الدرس وما ينتج عنها من أصوات ونقاشات، تتعارض مع الهدوء والسكينة التي ينشدها أهل البيت وكانت حجّتهم في ذلك الآية الكريمة "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقّ**"[6]. وبالرغم من أن هذه الآية خصّصت الحديث عن منازل الرسول (ص)، فإن المسلمين عمّموا مدلولها

---

[1]- شعبان، مني: تدريب أطباء بغداد في العصر العباسي،ص ص 96-101.

[2]- ابن القفطي: أخبار العلماء، ص130؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص278؛ الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، ص275.

[3]- ابن أبي أصيبعة: المرجع نفسه، ص533.

[4]- شعبان، مني: المرجع نفسه، ص75.

[5]- شعبان، مني: المرجع نفسه، ص60.

[6] – القرآن الكريم: سورة الأحزاب، آية18.

على كافة المنازل، خاصة وأنها نزلت بعد قيام المساجد واتخاذها مكاناً عاماً يقوم المسلمون فيه بجميع نشاطاتهم الدينية وغير الدينية.

وقد شرح ابن الحاج سبب عدم قدرة المنزل على أن يكون موضعاً للتعليم بخلاف المسجد، مبيّناً الفرق بين الاثنين قائلاً:" إن أفضل مواضع التدريس هو المسجد، لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة، أو تخمد به بدعة، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوفراً، لأنه موضع لاجتماع الناس، رفيعهم ووضيعهم، وعالمهم وجاهلهم، بخلاف البيت، فإنه محجور على الناس إلا من أبيح له، والبيوت تحترم وتهاب حتى لو أبيحت للجميع"[1]. ولكن كما أن لكل قاعدة استثناء، وعلى قاعدة للضرورة أحكام، فقد عاد ابن الحاج وأورد استثناءً في هذا الموضوع، فأشار إلى أن:" المنزل مكان للدرس عند الضرورة فقط "[2]، وبشرط أن يكون موضع الدرس في البيت بعيداً عن مكان تواجد أهل البيت، ويكون وقته معلوماً وثابتاً.

واستناداً إلى ذلك، شكّلت المنازل مكاناً للتدريس في بعض الحالات الاستثنائية التي كانت أحياناً خاصة تتعلق بالمدرّس نفسه، وأحياناً عامة تتعلق بالمجتمع. والحالات الخاصة قد تكون صحية أو شخصية منها مثلاً، أن أبا سليمان السجستاني المنطقي كان أعوراً، فانقطع عن الناس واتخذ منزله مكاناً يستقبل فيه طلبته وكل من يرغب بالتعلم والاستفادة منه[3]. وكذلك قام الشيخ عز الدين ابن عبد السلام بالتدريس في بيته بعد أن عزله السلطان نجم الدين أيوب عن الخطابة في الجامع العتيق[4].

أما الأسباب العامة، فمنها ما كان دينياً نوعاً ما. فقد شكّل المجتمع العربي في مصر في العصر الوسيط خليطاً متمازجاً بين المسلمين وأهل الذمة. ونحن إذا أمعنا النظر في تاريخ العلوم العقلية، ومنها الطب الإسلامي، نجد أن معظم الأطباء البارعين في صنعتهم المشهورين في القرون الإسلامية الأولى وحتى العصر المملوكي الأول، كانوا من النصارى واليهود[5]. ولما لم يكن مسموحاً لهؤلاء الدخول إلى المساجد لتعليم صنعتهم، كان لابد لهم من إيجاد مكان آخر يستطيعون استقبال الطلبة فيه، وإلقاء محاضراتهم وإجراء التجارب والعمليات الطبية، فلم يكن أمامهم سوى منازلهم التي شكّلت حلاً طبيعياً لهذه المعضلة. وهذا ما فعله الطبيب

[1]- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص96.

[2]- ابن الحاج: المصدر نفسه،ج2، ص97، ص298.

[3]- ابن القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص186.

[4]- الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص351.

[5]- Hitti, Philip: History Of Arabs, P685؛ أنظر أيضاً كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي؛ شعبان، منى: تدريب أطباء بغداد في العصر العباسي، ص 53-54.

أبو البيان ابن المدور اليهودي، الذي فتح بيته في القاهرة لكل من أراد التطبب أو تعلم الطب والتمرن عليه من التلاميذ، بعد أن تقاعد من خدمة السلطان صلاح الدين في آخر عمره[1]. أما الطبيب ابن جميع اليهودي أيضاً[2]، فقد خصص مجلساً لتعليم الطب، وكان طلابه والمشتغلين عليه يقصدونه فيه لأخذ دروسهم[3].

ومن أشهر الأطباء المسلمين الذين درّسوا الطب في منازلهم، الرئيس ابن سينا، إذ يذكر تلميذه أبو عبيد الجوزاني أنه كان يجتمع كل ليلة في دار ابن سينا طلبة العلم، وكان يقرأ هو (أي الجوزاني) من كتاب الشفاء نوبة، وكان غيره يقرأ من كتاب القانون نوبة[4].

وكما في الطب، فإن التعليم في المنازل ينطبق على كافة العلوم العقلية الأخرى، فقد ذكر ابن القفطي أن منجماً يدعى عليوي الديري، وهو من أهل قرية دير البلاص، إحدى قرى صعيد مصر، كان مقيماً في داره يقصده فيها من يريد أن يأخذ عنه علمه ويتعلم علم التقاويم[5]. كما ذكر القاضي محمد بن علي الشوكاني، صاحب كتاب "البدر الطالع"، بأن العالم أحمد بن الشهاب الشافعي وكان أبرع علماء عصره في الحساب، والهندسة، والهيئة والفرائض، وعلم الوقت، كان يعطي دروساً في هذه العلوم في منزله لمن يرغب من الطلبة، وقد اشتغل عليه كثيرون[6].

4- مدارس الطباق العسكرية المملوكية[7]

(**1**) **تأسيس مدارس الطباق**: بعد مقتل آخر السلاطين الأيوبيين المعظم توران شاه، ابن السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة 648هـ/1250م، اتفق أمراء المماليك البحرية على تولية زوجة أبيه شجر الدر مكانه،

---

[1]- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص535.

[2]- واسمه أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن إفرائيم بن يعقوب بن جميع الإسرائيلي.

[3]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص532.

[4]- ابن القفطي: أخبار العلماء، ص273.

[5]- ابن القفطي: المصدر نفسه، ص167.

[6]- الشوكاني: البدر الطالع، ص ص 41-42.

[7]- مفردها طبقة، وهو المكان الذي كان يتربى فيها صغار المماليك حيث يتلقون التدريبات العسكرية والحربية والرياضية كما يتلقون التعاليم والدروس الدينية. المقريزي: الخطط، ج3، ص358؛ ضومط، انطوان: الدولة المملوكية، ص28-29؛ Holt, P. M: Article Mamluk, EI2, T5, P302-303

لكنها لم تحظ بقبول الخليفة العباسي ولا السكان المصريين، فتم الاتفاق على أن تتزوج من قائد الجيش وأحد الأمراء "المماليك"[1]، عز الدين أيبك التركماني[2]، وأن تفوض إليه أمور الدولة[3].

وعندما جلس أيبك على كرسي السلطنة، فرض عليه أمراء المماليك البحرية[4] اتخاذ الملك الأشرف مظفر الدين موسى الأيوبي وكان عمره عشر سنين[5]، شريكاً له في الحكم حتى لا يضطروا إلى الانصياع لأوامره[6]، فحنق عليهم وبدأ يخطط للتخلص منهم. وفي سنة 653هـ /1255م، بطش أيبك بالمماليك البحرية وشتت شملهم[7] وهدم قلعة الروضة[8]ونقل الباقي إلى قلعة الجبل[9].

وبزواج أيبك من شجر الدر، وانتقال الحكم في ديار مصر من البيت الأيوبي إلى طائفة المماليك، دخل تاريخ مصر في مرحلة جديدة، ربما اختلف المؤرخون في تقييمها[10]، إلا أن الثابت فيها أنها كانت مرحلة جهادية بلغت فيها حركة الجهاد مبلغ الذروة.

---

[1]- سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص ص 934-938.

[2]- هو السلطان عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالتركماني أول ملوك الترك بديار مصر الذين مسهم الرق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج7، ص3؛ ابن دقماق: الانتصار، ق1، ص92؛ المقريزي: الخطط،ج3، ص413؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق محمد الخطيب، ص42.

[3]- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج6، ص373-374؛ سرور، محمد جمال الدين: دولة الظاهر بيبرس، ص29؛ طقوش، محمد: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ص35-43. موير، وليم: تاريخ دولة المماليك، ص43. ؛ Maalouf, Amin:Les Croisades Vues Par Les Arabes,P259 ; Holt, P. M: Ibid, P305

[4]- منهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير شمس الدين سنقر الرومي وغيرهم.

[5]- هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى، ابن الملك الناصر يوسف ابن الملك أقسيس ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. بيبرس المنصوري: المصدر السابق، ص44.

[6]- كان أيبك جاشنكير (متذوق الطعام) الملك الصالح نجم الدين أيوب.ابن تغري بردي: المصدر السابق،ج6،ص 374.

[7]- ابن تغري بردي: المصدر نفسه؛ج7،ص12، 34؛ المقريزي: المصدر السابق،ج3، ص323؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص18؛ طقوش، محمد: المرجع السابق،ص45-51؛ ؛ ماجد، عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ص 9-13؛ Hitti,Philip: History Of Arabs,P P671-682

[8]- تسمى أيضاً قلعة المقياس، وقلعة الجزيرة، والقلعة الصالحية. المقريزي: المصدر نفسه،ج3، ص322؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6،ص320؛ موير، وليم: المرجع السابق،ص39-40؛ الحداد، محمد: المرجع السابق،ص17؛ Maalouf, Amin: Les Croisades Vues Par Les Arabes, P254-263 ; Bosworth,C.E: The Islamic Dynasties,P65

[9]- قلعة الجبل: هي غير قلعة الروضة، شرع في بنائها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 572هـ وأتم بناءها الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة 604هـ، وصارت منذ ذلك الحين مقراً للدواوين الرسمية والوزارة ودار النيابة ومقر بيت المال وخزانة السلطان. كما كانت تشتمل على كثير من الحدائق والإيوانات والقصور والطباق والمدارس والحمامات وغيرها. المقريزي: المصدر نفسه،ج3، ص358؛ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج6،ص89؛ الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص26؛ الرزاز، حسن: عواصم مصر الإسلامية، ص175- 180.

[10]- انظر حسنات عصر سلاطين المماليك وسيئاته. ضناوي، مأمون: الناصر محمد بن قلاوون،ص ص 172-198.

والواقع أنه كان لابد لنظام حكم قام على رأسه سلاطين أرقاء وجيش من المماليك، أن يعمل على تثبيت نفسه وتمكين حكمه عبر دفع مبالغ طائلة لجلب المزيد من الأرقاء وتربيتهم تربية دينية- عسكرية وفق نظام منهجي خاص كان الأول من نوعه في تربية المماليك، ليصار إلى ضمهم فيما بعد إلى الجيش المملوكي ليصبح أكثر قوة وأكبر عدداً، فيستطيع مواجهة مجمل التحديات الخارجية والداخلية على السواء[1].

ولقد اتصف عناصر هذا الجيش- وفيهم من الروم، والترك، والفرس، والجركس، والسودان، والتتار، والأرمن وغيرهم[2]- بالقوة البدنية والشجاعة وشدّة البأس، وهو ما نشأوا عليه في الطباق الواقعة في قلعة الجبل، حيث تربوا في ظل نظام شديد القسوة وكثير الانضباط.

وأول من بنى الطباق[3]، وهو بمثابة المدرسة الحربية اليوم، كان الظاهر بيبرس[4]، حين استقر مقامه في قلعة الجبل، فأقام عدّة طباق ليسكن فيها المماليك. عمّر في البداية طبقتين مطلتين على رحبة الجامع، وأنزل فيها الأمراء البحرية الذين عادوا معه إلى القاهرة مع عائلاتهم[5]، ثم عمّر طباقاً عدة بجوار دار الذهب[6]، إضافة إلى دار كبيرة داخل باب القرافة، تشتمل على عدة قاعات صغار أعدّها لسكن المماليك أيضاً، وجعل فوقها

---

[1]- حسن، علي ابراهيم: تاريخ المماليك البحرية، ص27؛ طقوش، محمد: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام،ص 20؛ ضومط، انطوان: الدولة المملوكية، ص ص 18-38؛ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك، ص38؛ سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي ص ص39-57؛ Bosworth,C.E: ibid ,P66; Maalouf, Amin: Ibid, P254-276 ;Hitti, Philip: Ibid, PP 655-658 ; Holt, P. M:Article Mamluk, EI2, T5,P300

[2]- المقريزي: الخطط، ج3، ص376؛ النباهين، علي: نظام التربية الإسلامية في عهد المماليك في مصر، ص160.

[3]- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج4، ص10؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص225.

[4]- هو السلطان الأعظم والمؤسس الحقيقي للدولة المملوكية الملك القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحجازية وهو الرابع من ملوك الترك ومؤسسها الحقيقي. ولد سنة 625هـ بصحراء القبجاق تخميناً، ومات سنة 676هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص94؛ المقريزي: الخطط ،ج3، ص415؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص ص 235-247؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص3؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق محمد الخطيب،ص116؛ موير، وليم: المرجع السابق، ص ص 47-50 ؛ Maalouf, Amin: ibid, P266; Hitti,Philip: Ibid, PP675-677 ; Holt, P. M:Article Mamluk, EI2, T5,P306

[5]- ابن تغري بردي: المصدر نفسه،ج7، ص190؛ الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص190؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص340؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص45.

[6]- ابن شداد: المصدر نفسه ،ص339.

طباق لسكن المتزوجين منهم[1]، كما أنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة، وأنشأ بجواره طباقاً آخر خصصه للمماليك الجدد[2] الذين أكثر من شرائهم[3] لإعداد جيش مملوكي جديد قوي بعديده وعتاده[4].

وحين تسلطن الملك المنصور قلاوون الألفي، زاد من بناء الطباق وجعلها مقراً للمماليك السلطانية بعيداً عن المماليك البرجية[5]الخاصين به[6]. وفي سنة 712هـ/1312م، عمّر السلطان الناصر محمد بن قلاوون برجاً بجوار الإسطبل لتوسيع سكن المماليك ونقل إليه بعضهم. أما طباق ساحة الإيوان بقلعة الجبل، فقد بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 715هـ /1315م، إثر حريق كبير شبّ في الأطباق الواقعة قرب البرج المنصوري[7]، وهي عبارة عن بناء يتألف من اثنتي عشرة طبقة، اشتملت كل طبقة على مساكن تتسع لألف مملوك[8]، جعل لكل جنس طبقة[9]، منها طبقة الذهبية، والزمردية[10]، وطبقة الحسامية[11]، وطبقة الزمزم[12]، وطبقة الطازية[13]، وطبقة الحوش[14]، وطبقة الرفرف[15]، وأعلاها طبقة الأشرفية.

1-ابن شداد: المصدر نفسه، ص341.

2- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7، ص191؛ الظاهري: المصدر السابق، ص191.

3- يقول الظاهري أن عدد المماليك السلطانية أيام الملك الظاهر بيبرس بلغ ستة عشر ألف مملوك. زبدة كشف الممالك، ص116؛ في حين يقول ابن شداد:" له أربعة آلاف مملوك منهم أمراء اسفهسلارية، ومفاردة، وخاصكية داخل الدور وخارجها وجمدارية وسلاحدارية وكتابية. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص244.

4- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص191؛ الظاهري: المصدر نفسه، ص191. المقريزي: الخطط، ج3، ص 415.

5- كان عددهم ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك من الأمراء الجراكسة أسكنهم المنصور قلاوون بالقلعة وسماهم البرجية. ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج7، ص330. ورأي آخر بأن الأشرف خليل بن قلاوون هو الذي أفرد طائفتي الأرمن والجركس وسماها البرجية لأنه أسكنهم في أبراج القلعة. وقدّر عددهم بستة آلاف وسبعمائة مملوك. المقريزي: المصدر نفسه، ج3، ص373؛ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك، ص66؛ Bosworth,C.E: The Islamic Dynasties, P65

6- المقريزي: المصدر نفسه، ج3،ص372؛ الظاهري: المصدر السابق، ص26؛ سرور، محمد: دولة الظاهر بيبرس ص 134.

7- المقريزي: السلوك، ج2، ص 157؛ الظاهري : المصدر نفسه، ص 27.

8- الظاهري: المصدر نفسه، ص31-32؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص90؛ Holt, P. M: Article Mamluk, EI2, T5, P302

9- المقريزي: المصدر السابق، ج3، ص374؛ الظاهري: المصدر نفسه، ص27؛ حسن، علي ابراهيم: تاريخ المماليك البحرية، ص28؛ سليم، محمود رزق: عصر السلاطين المماليك ونتاجه الأدبي والعلمي، ج1ص97.

10- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج9، ص22.

11- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص188.

12- السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص65؛ ابن أياس: بدائع الزهور، ج2، ص 216.

13- السخاوي: المصدر نفسه، ج6، ص182؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7، ص 817

14- الظاهري: المصدر السابق، ص112

15- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص217.

وفي سنة 729هـ/ 1329م، ردم الأمير بكتمر الساقي وبموافقة السلطان الناصر محمد، الجب[1]، بعد أن نقل من فيه من المحابيس إلى الأبراج وعمر فوقه طباقاً[2].

وكانت تحكم هذه الطباق أنظمة شديدة الصرامة، يشرف على تطبيق هذه الأنظمة السلاطين أنفسهم بمساعدة الطواشية[3]. فقد كان في كل طبقة من الطبقات طواشي أو آغا خاص بها يقوم بتأمين طلبات واحتياجات المماليك فيها، ويشرف على تطبيق القوانين المتبعة بكثير من الدقة والصرامة[4]. فإذا ما صدرت مخالفة من أحد أو هفوة مهما كانت صغيرة، كأن يتخلف أحدهم عن العرض[5]، أو يقصّر في تحصيله العلمي أو يتكاسل في أداء الصلاة أو التمارين الرياضية والعسكرية، كان عقابه شديداً[6]. وهذه الشدة في المعاملة، لم تقتصر على المماليك فقط، بل شملت أيضاً مقدميهم وطواشيهم في حال قصّروا عن النهوض بواجباتهم، خاصة فيما يتعلق بنزول المماليك إلى مدينة القاهرة وانخراطهم بأهلها[7]. وغالباً ما كان عقاب المقصرين في واجبهم الضرب[8]، أو الطرد من الخدمة[9]، أو حسم من راتب[10]، وأحياناً القتل شنقاً[11].

1- كان في قلعة الجبل جب، عمّره الملك المنصور قلاوون سنة 681هـ، وكان يحبس في الأمراء وكان مظلماً كريه الرائحة، مليء بالوطاويط، يعاني فيه المحابيس ما هو أشد من الموت. المقريزي: المصدر السابق، ج3، ص371.

2- المقريزي: السلوك، ج3،ص371؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج9، ص138،74.

3- مفردها طواشي، هي لفظة تركية أصلها طابوشي، وهو الخادم الخصي. المقريزي: الخطط، ج4، ص227؛ Holt, P. M:Article Mamluk, EI2, T5, P302-303

4- ضومط، انطوان: الدولة المملوكية، ص34-35؛ في يوم الخميس عاشر ربيع الآخر، دخل الأمير كرجي على السلطان المنصور لاجين وأعلمه أنه قد بيّت البرجية وغيرهم من المماليك في أماكنهم وغلق عليهم الأبواب ورتب جماعة في أماكن بالدهليز. المقريزي: المصدر السابق ج2، ص300؛ ضناوي، مأمون: الناصر محمد بن قلاوون،ص 16.

5- أمر بيبرس بشنق مجموعة من الأجناد بسبب تخلفهم عن العرض وحبس آخرين. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر،ص133.

6 - المقريزي: الخطط، ج3، ص373؛ السلوك، ج3، ص46؛ ابن شداد: المصدر نفسه، ص98.

7- المقريزي: السلوك، ج3، ص5؛ سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك،ج1، ص99؛ سرور، محمد: دولة الظاهر بيبرس، ص134؛ Holt, P. M:Article Mamluk, EI2, T5,P302-303

8- حين وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن بعض مماليكه قد نزل من القلعة إلى القاهرة دون علمه وسكروا، غضب غضباً شديداً وضرب الطواشية ضرباً مبرحاً حتى أشرف كثيراً منهم على الموت فلم يجسر بعد ذلك أحد بمخالفة النظام والخروج من القلعة أو حتى يتجاوز طبقته إلى أخرى. ابن تغري بردي: المصدر السابق،ج9،ص ص61-79، ص78.

9-ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج9، ص78؛ المقريزي: السلوك، ج2، 299.

10- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج9،ص62. وكان يطلق على الراتب اسم الجامكية. حلاق، حسان: معجم الجامع، ص35.

11- بلغ الملك الظاهر وهو بالشام، أن الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز، وهو من خواص الخدام ومفوض إليه تربية المماليك، يشرب الخمر في القلعة مع جماعة من الخدام، فأمر بشنقه في الحال، كما أمر بقطع أيدي وأرجل من كان معه على الشراب وكانوا أربعة عشر نفراً. ابن شداد: المصدر السابق ص98؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص95.

(2) **التعليم في مدارس الطباق**: تكمن أهمية الطباق، أنها أعدّت جيشاً نظامياً على درجة عالية من الانضباط والتقيّد بالقوانين والأنظمة الصارمة، ساعدته على تحقيق انتصارات كبيرة على أعداء الدولة الإسلامية من الفرنج والمغول، بقيادة سلاطين كبار، برهنوا عن شجاعة نادرة وكفاءة عالية[1]، ما جعل ابن تغري بردي يصفهم بقوله:"...كان بهم منفعة للمسلمين ومضرة للمشركين وقيامهم في الغزوات معروف وشرهم عن الرعية مكفوف "[2]، أما المقريزي فقال:"إنهم كانوا سادة يدبرون الملك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل[3]".

ومع ذلك، لم تستثن حركة التعليم المزدهرة التي شهدتها ديار مصر في العهد المملوكي الأول، طبقة المماليك، بل كان لهم حظ وافر منها، وهم أصحاب فضل في بعثها وتفعيلها[4]. فالمماليك لم يكتفوا بأن يكونوا قادة عسكريين، وأمراء كبار ونواب السلطنة في الشام والحصون الإسلامية[5]، بل عمد الكثير منهم بعد تخرجهم من الطباق[6] إلى تلقي دروس خاصة على أيدي مدرسين علماء في الفقه والحديث، أو بالتردد إلى حلقات العلم[7]، حتى صار منهم من هو في رتبة محدّث أو مؤرخ[8]، أو فقيه[9]، أو مدرس فقه[10]، أو حاسب ماهر[11]. ومنهم من درّس في الكتاب[12]، أو تصدى لتعليم الكتابة في الجامع الأزهر[13]، في حين أن بعضهم

1- Holt, P. M:Article Mamluk, EI2, T5,P306

2- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص328.

3- المقريزي: الخطط، ج3، ص373.

4- Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P93

5- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص327.

6- كان المملوك إذا تخرج من الطباق يحصل على إجازة بانتهاء تعليمه عليها قرار إعتاقه من الرق. العريني، السيد: المماليك، ص123

7- Berkey, Jonathan: Ibid, P109

8- راجع صفحة 29 و 30 من الفصل الأول.

9- كالملك الناصر محمد الذي درس الفقه والقانون في دمشق ونال إجازة فيهما، ولذلك كان يشارك العلماء في كل امر يتباحثون فيه. موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص101؛ والأمير شيخو الذي كان يجمع العلماء والفقهاء عنده كل ليلة للمذاكرة والدرس. المقريزي: السلوك، ج4، ص157.

10- كالأمير أرغون بن عبد الله الناصري، نائب السلطنة. وكان من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، أدبه وأمره بملازمةالاشتغال، فاشتغل بالفقه والحديث وبرع بهما.حتى أذن له بالتدريس والفتيا. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج9، ص210.

11- المقريزي: الخطط، ج3، ص373.

12- كشهاب الدين غازي بن قطلوبغا التركي شيخ الكتاب الذي تخرّج على يده كثيرون. المقريزي: السلوك، ج4، ص394.

13- كعز الدين أيبك بن عبد الله التركي عتيق طرغاي الجاشنكير الناصري. المصدر نفسه،ج4، ص384.

شهر بحبه للعلم والاتطلاع على كثير من العلوم، كالأمير سيف الدين طشتمر العلائي الدوادار[1]، والأمير صرغمتش الذي ذاكر الفقه واللغة[2]. والحقيقة أن أكثر سلاطين هذا العصر كانوا متذوّقين للشعر [3].

وكان الظاهر بيبرس أول من بدأ بتعليم المماليك، حين تملّك سنة 658هـ/1260م، وبنى الطباق، فعيّن لكل طائفة من المماليك الصغار فقيهاً يعلمهم القرآن ومبادئ الدين الحنيف كما يعلمهم القراءة والكتابة. أما البالغون، فكانوا يتمرنون على القتال ويقومون بالتدريبات العسكرية لينضموا فيما بعد إلى الجيش المملوكي[4].

وعلى هذا الأساس، انقسم تعليم المماليك في الطباق إلى مرحلتين تعليميتين أساسيتين هما:

– **المرحلة الأولى**: تمتد من الصغر حتى سن البلوغ، فهي إذن مرحلة الكتّاب، وكان المتعلمون فيها يسمون "المماليك الكتابية"[5]. وكان السلطان إذا اشترى مملوكاً صغيراً، وكانت العادة وقتذاك أن لا تجلب التجار إلا أرقاء صغار السن[6]، ينزله في طبقة جنسه، فيستلمه الطواشي الذي يلحقه بحلقة تعليم تناسبه. وكان لكل طائفة من المماليك فقيه خاص يحضر إليها كل يوم.

وكأولاد الأحرار، كان المماليك الصغار يبدأون بدروس الكتّاب، فيتعلمون قصار السّور من القرآن الكريم وما يحتاجون تعلمه من الحديث الشريف والقراءة والكتابة، وبعض مبادئ الحساب وقواعد اللغة العربية، إضافة إلى بعض الواجبات الدينية كالصلاة والوضوء وبعض الأدعية إضافة إلى تعليمهم الأخلاق الحميدة[7].

– **المرحلة الثانية**: تنقسم بدورها إلى مرحلتين، وتبدأ من سن البلوغ. يقول المقريزي:"...فإذا شب الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه..."[8]. فعندما ينهي المملوك دروس الكتاب، يبدأ ببعض التمارين الرياضية كرمي السهام ولعب الرمح

1- المقريزي: المصدر نفسه، ج5، ص174.

2- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج10، ص257.

3- بدوي، أحمد: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، ص730.

4- سرور، محمد: دولة الظاهر بيبرس، ص135؛ سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي، ص28؛ ضناوي، مأمون: الناصر محمد بن قلاوون، ص15.

5- استعمل هذه التسمية مؤرخون مثل الظاهري وابن تغري بردي والمقريزي وابن شداد والسخاوي.

6- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص299؛ المقريزي: الخطط، ج3، ص347؛ ابن أياس: بدائع الزهور، ج1، ص266؛ ج2، ص 70؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص232؛ Holt, P. M:Article Mamluk, EI2, T5,P 302

7- سليم، محمود رزق: عصر السلاطين المماليك،ج1ص98؛ حسن، علي ابراهيم: تاريخ المماليك البحرية، ص 28، 30.

8- المقريزي: الخطط، ج3، ص372.

وغير ذلك من الفنون القتالية. ويبدأ أيضاً بدروس التعليم الديني العالي، فيحضر حلقات الفقه والحديث وغيرها من العلوم الدينية التي تساعده على اكتساب المعلومات التي يجب أن يعرفها، فإن أتمّها، انطلق إلى المرحلة الثانية.

في هذه المرحلة، يكون المملوك قد اشتد ساعده ونما عوده، فيبدأ بتعلم التمارين العسكرية المتقدمة والفنون الحربية والحيل القتالية، والمبارزة بالسيف والرمي بالسهام والقذف بالأطواق والرماح، كما يتمرن على ألعاب القوى والفروسية والألعاب الرياضية المكثفة للحفاظ على اللياقة البدنية والمرونة الجسدية وذلك تحت إشراف مدربين وقادة عسكريين متخصصين[1]. ولا يسقط من منهاج هذه المرحلة ألعاب الذكاء كالشطرنج وغيرها، حتى تتماشى القدرة الذهنية وسرعة البديهة مع القدرة العسكرية والقوة الجسدية. وهكذا يتم تحضير المماليك ليتسلموا فيما بعد مراكز الدولة ومناصبها العسكرية التي انحصرت بهم وحدهم دون غيرهم من فئات الشعب[2].

ولم تكن هذه المرحلة تنتهي بسن معين، بل كانت تمتد رهناً بقدرة المملوك على التعلم والتطور، حتى إذا ما برزت مواهبه وذاع صيته، يصبح مؤهلاً للترقي في مناصب الدولة المملوكية، فينضم إلى الحرس السلطاني أو إلى غلمان السلطان وهم أصحاب الوظائف المهمة في البلاط. وقد يستمر المملوك في التقدم والتطور حتى أنه قد يصبح هو نفسه سلطاناً، إذ إن السلطان ليس إلا مملوكاً تقدم على سواه بقوة شخصيته وكثرة أنصاره وتغلبه على منافسيه[3].

ولابد هنا من إضافة سريعة تتناول مكانين تعليميين في قلعة الجبل إضافة إلى الطباق، وهما: جامع القلعة، ومكتبتها. أما الجامع، فقد أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 735هـ/1335م، وقرر فيه دروس فقه[4]. وأما المكتبة، فقد احتوت على كثير من كتب التاريخ، والفقه والحديث، والسِّيَر وعامة العلوم الشيء الكثير، وقد ورد ذكرها مع المكتبات.

---

[1]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص311- 312؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص249 العريني، السيد الباز: المماليك، ص ص97- 127؛ Holt, P. M:Article Mamluk, EI2, T5, P302

[2]- سرور، محمد: دولة الظاهر بيبرس في مصر ص 152؛ حسن، علي: تاريخ المماليك البحرية، ص28.

[3]- حسن، علي: المرجع نفسه، ص26؛ سرور، محمد: المرجع نفسه، ص135؛ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك، ص39؛ ضومط، انطوان: الدولة المملوكية، ص ص 19-22؛ زقلمة، أنور: المماليك في مصر، ص23.

[4]- المقريزي: الخطط، ج3، ص370؛ طقوش، محمد: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص294.

الفصل الخامس: النظم الإدارية والتعليمية في مدارس القاهرة المملوكية

أولاً: مناهج التعليم وطرائق التدريس

1- مناهِج التعليم

قام النظام التربوي في مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول على مبادرات فردية، لم يكن للدولة الرسمية فيها أي دور أو تخطيط، ما جعله عرضة لانتقادات كثيرة، منها عدم وجود منهج تعليمي واضح وموحد بين المدارس، يحدد ثوابت هذا النظام ومراحله[1]. ولذلك، اختلفت مناهج التعليم باختلاف دور العلم ومستوياتها التعليمية، فانقسمت إلى قسمين أساسيين:

(1) مناهج التعليم في الكتّاب: لم تتبع الكتاتيب منهجاً تعليمياً موحداً، إلا أنها التزمت بمستوى معيّن من التعليم يتناسب مع قدرة الناشئة الذهنية والعقلية. **وقد** أوصى بهذا المنهج كبار العلماء المسلمين، ويتمثل بكل ما كان يتلقاه الطفل في الكتّاب من المعارف الأساسية الواجب عليه تعلمها منذ الصغر من الآداب الإسلامية كحسن الأخلاق والسلوك والآداب الاجتماعية العامة [2]. فمنذ نعومة أظافره، يتلقى الطفل جملة تعاليم، وأنظمة، وأعراف تتناسب مع تطوره العمري والذهني حتى إذا كبر وناهز سن البلوغ، يكون قد اكتسب معارف وقواعد أخلاقية وسلوكية ودينية تؤهله للانخراط في المجتمع، كما تهيئه للتعمق في علوم الدين، بعد أن يكون قد أنهى مرحلة الطفولة، وأنهى معها مرحلة التعلم في الكتّاب، ليدخل مرحلة أكثر تقدماً فيحفظ مختصراً واحداً من كل علم دون أن يهمل ما أوراده اليومية[3].

ومنهج هذه المرحلة، الذي اتبعته جميع كتاتيب مصر[4]،يقوم على المحفوظات أكثر من المسموعات ويتمثّل بشكل أساسي بحفظ القرآن الكريم كاملاً لأنه أول ما ينبغي أن يكلّف به الصبي، فإنه يثبت ويختلط باللحم والدم[5]، وهو ينبوع كل علم نافع فـ "...صار القرآن أصل التعليم..."[6]، وبعض الحديث النبوي الذي يحتاجون إلى معرفته، إضافة إلى القراءة والكتابة، وبعض سير العظماء وقصص الأنبياء والأشعار الخالية من

---

[1]- حطيط،أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص226؛ سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك، مج3، ج2، ص76.

[2] – طاش كبر زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة،ج3، ص340- 342؛ ابن الحاج: المدخل، ج4، ص462-464.

[3]- ابن جماعة: تذكرة السامع،ص110-111؛ الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1،ص51؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن: الحث على حفظ العلم، ص17؛ طاش كبرى زادة: المصدر نفسه،ج1، ص27؛ ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص162؛ الخطيب البغدادي: الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع، ص ص 27-31.

[4]- ابن خلدون: المقدمة، ص538.

[5]- ابن الجوزي: المصدر السابق، ص162.

[6]- ابن خلدون: المصدر السابق، ص537.

الغزليات وآراء الأخيار وحكايات الأبرار[1]، وشيء من مبادئ الحساب وقليل من مبادئ النحو واللغة[2]، لينصرف الصبي بعد ذلك إلى طلب المزيد من العلم في أحد المساجد، أو إلى اكتساب صنعة أو حرفة في حال لم يتطلع إلى طلب المزيد من العلم، لأن الصبي إذا بلغ ولم تكن له همّة على اكتساب العلم فلا فلاح له[3]. وتعليم القرآن الكريم للأولاد يكون بالتلقين وفي مكتب مستقل عن مكتب تعليم الخط والكتابة[4]. وعلى الرغم من أن ابن حزم الأندلسي قدّم بالضرورة تعلّم الكتابة على تعلم القراءة وهذا أمر بديهي[5]، فقد عرض ابن خلدون في "مقدمته"، تحت عنوان "تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه" أن الدول الإسلامية اختلفت في مناهج تعليم الأولاد، فمثلاً تعليم أولاد أهل المغرب اقتصر على القرآن الكريم فقط دون الحديث والفقه والشعر واللغة، في حين أن أهل الأندلس كانوا يعلمونها لأولادهم إضافة إلى القرآن وتجويد الخط. أما في أفريقية فكانوا يشددون على اختلاف القراءات إضافة إلى حفظ القرآن الكريم ودراسة الحديث وبعض قوانين العلوم وبعض مسائلها. أما عن أهل المشرق، فيقول ابن خلدون أنهم كانوا يفصلون تعليم الخط عن تلقين القرآن الكريم، إذ إن "... لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد...ولا يتداولونها في مكاتب الصبييان وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة ..."[6]، وهذا ما يؤكده ابن جبير الذي يذكر في رحلته ما نصه: "... وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عزّ وجلّ عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد المُلَقِّنْ على حدة، والمُكَتِّبْ على حدة، فينفصل الصبي من التلقين إلى التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذلك يأتي لهم حسن الخط لأن المعلم لا يشغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم.."[7]. وكذلك يقول ابن بطوطة إن:"معلم الخط غير معلم القرآن ويعلمهم بكتب الأشعار وسواها ولا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً له[8]، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب لأن معلم الخط

[1]- الغزالي: إحياء علوم الدين، ج3، ص57-59؛ ابن الحاج: المدخل، ج4، ص462؛ ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص39.

[2]- ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص162؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص55، ابن مسكويه: المصدر نفسه، ص20.

[3]- ابن الجوزي: الحث على حفظ العلم، ص17؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص222.

[4]- يذكر السخاوي أن ابن الملقن أبو حفص عمر بن عثمان إنما سمي بابن الملقن نسبة إلى زوج أمه الذي كان يلقن الأولاد القرآن الكريم بجامع ابن طولون. السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص91.

[5]- ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ج2، ص65.

[6]- ابن خلدون: المقدمة، ص538-539؛ ابن حزم: المصدر نفسه، مج2، ج2، ص65.

[7]- ابن جبير: الرحلة، ص272؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P 408

[8]- اشترط الصاحب تاج الدين بن حنا في كتاب وقف مكتب سبيل عمّره في تربته،أن يكتب الصبيان القرآن الكريم على الألواح ثم يغسلونها فوق قبره. الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص256.

لا يعلم غيره"[1]. وهكذا، يتبين لنا أن مكاتب الصبيان فصلت تعليم القرآن الكريم والحديث الشريف عن تعليم الكتابة واللغة وكان الأولاد يترددون على مدرسين أو نوعين منفصلين من الكتاتيب، إلا إذا كان الفقيه بارعاً في علوم اللغة وقادراً على تعليمها للأولاد، فقد يكون ذلك استثناءً[2]. وبحسب ابن حزم، فإن منهج التعليم لهذه المرحلة يكون على ثلاث مراحل، تبدأ المرحلة الأولى بتعليم الخط والكتابة في حدود قدرة الصبي على كتابة وتركيب الكلمات والجمل بخط واضح ومقروء وصحيح دون أن يتكلّف في تزويد حسنه. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تعلم القراءة وحدها، وحدودها أن يعرف الطالب قراءة كل كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها، ويحفظ مع ذلك القرآن الكريم ويتدرّب على قراءته. فإذا نفذ في الكتابة والقراءة، ينتقل إلى المرحلة الثالثة، وفيها يتعلم اللغة والنحو معاً. ويكون التعلم في هذه المرحلة بحفظ بعض كتب ومؤلفات اللغويين والنحويين التي حددها ابن حزم في رسالة مراتب العلوم[3].

وقد شرط العلماء على المؤدبين عدم استعمال الشدة على المتعلمين، وخاصة الصغار[4]، بل حضّوا المؤدب على أن يراعي الأطفال وقدراتهم الذهنية في الحفظ والمذاكرة فلا يقسو عليهم ولا يضربهم بل يصبر عليهم ويعاملهم بالتي هي أحسن ويترأف بهم، خاصة وأن عملية تأديب الولد يجب أن لا تخرج عن حدود الحنان والعطف الأبوي إلى حد الاستبداد في التأنيب، فلا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط[5].

(2) **مناهج التعليم في المدارس والدور العلمية الأخرى:** انقسم التعليم في هذه المرحلة إلى نوعين، التعليم العالي الديني، والتعليم الدنيوي، ما جعل المناهج التعليمية بدورها على نوعين[6]، جمعت بينها سمة الثقافة الموسوعية الشاملة التي قامت على التنوع في العلوم والخبرات التي ينقلها العالم إلى طلبته من خلال عملية تثقيف شاملة تساعد المتعلم أن يتكيّف مع مجتمعه وأن يطوّر نفسه[7].

ولما كانت حرية التعلّم مباحة لمن يرغب، كان يرتاد الحلقة العلمية الواحدة طلاب تختلف أعمارهم، ومستوياتهم الفكرية خاصة في المساجد. ولكي يستطيع العالم أن يفيد طلابه جميعاً في هذه الحالة، رأى

1- ابن بطوطة: تحفة الأنظار، ج1، ص213.

2- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص464؛ Hitti, Philip: History Of Arabs, P 408.

3- ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ج2، ص ص65-69.

4- ابن خلدون: المقدمة، ص540.

5- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص39، ص ص 58-66؛ شمس الدين، عبد الأمير: الفكر التربوي عند ابن الأزرق، ص110.

6- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص 225؛ ابن حزم: المصدر السابق، مج2، ج2، ص ص 78-90.

7- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص110؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ص27؛ ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص282.

المفكرون المسلمون ضرورة توفير الحرية الكاملة للشيخ في تحديد منهج التدريس الذي يتبعه وتعيين الخبرات التعليمية التي يقوم بتدريسها في حلقاته عبر اختيار ما يراه مفيداً من الكتب والمختصرات والرسائل[1]. ولهذا حدد ابن خلدون في خطبة ألقاها في مدرسة الأمير صرغمتش يوم تولّيه التدريس فيها، أسباب انتقاء الكتاب الذي يدرس فيه:"... وقد رأيت أن أقرر للقراءة في هذا الدرس، كتاب "الموطأ" للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، فإنه من أصول السنن، وأمهات الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه"[2].

أ- **مناهج العلوم الدينية**: إلتزمت المدارس المملوكية بالتعليم الديني، وقد قامت مناهج العلوم الدينية بشكل أساسي على دراسة المذاهب الفقهية الأربعة. فقد نجد مدرسة ما قد اختصت بتدريس فقه مذهب واحد (أو أكثر) علماً أن لكل مذهب مناهجه وكتبه الخاصة به، وقد تضاف إليه علوم دينية أخرى كعلم القراءات، وعلم التفسير والحديث، أو أحد العلوم المساعدة لها كعلوم العربية مثل النحو واللغة والأدب[3]، وعلم التاريخ لعلاقته المباشرة بسير الرسل والأنبياء وملوك الأمم الغابرة[4]. وقد حدد ابن حزم الكتب والمصنفات الدينية التي يجب على الطالب أن يقرأها ويدرسها في هذه المرحلة[5]. ولصاحب الوقف وحده حرية تحديد الدروس في مؤسسته التعليمية.

ب- مناهج العلوم الدنيوية: أمّا فيما يتعلّق بمناهج هذه العلوم، وإن كان التخصص فيها بعيداً عن العلوم الدينية، إلاّ أن هذه الأخيرة، دخلت في صلب منهجها التعليمي. إذ كان لزاماً على طالب الطب مثلاً أو الهندسة، أو الكيمياء، أو الفلك، أن يدرس علوم الدين من الفقه والحديث، وأن يطّلع على قدر من الدراسات الإسلامية تعرّفه بمسؤولياته وواجباته الدينية وأن يأخذ قسطاً من علوم اللغة والأدب وربما يبرع في الشعر أو النثر قبل دراسة المادة التي يريد التخصص فيها[6].

---

[1]- سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي والعلمي، مج3، ج2، ص76.

[2]- ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص234.

[3]- يعتبر ابن خلدون أن مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. المقدمة، ص545؛ Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P112

[4]- ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ج2، ص ص 72-73؛ يقول ابن خلدون:"إن فن التاريخ فن عزيز المذهب جمّ الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الإقتداء لمن يرومه". المقدمة، ص9.

[5]- ابن حزم: المصدر نفسه، مج2، ج2، ص ص 69-80.

[6]- ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ج2، ص ص 65-90؛ ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص53. شلبي، أحمد: تاريخ المناهج الإسلامية، ج1،ص94؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص229.

وكما الحال في العلوم الدينية، اعتمدت جميع العلوم الدنيوية، وبخاصة علم الطب، على المؤلفات الطبية الموسوعية التي توفر للأطباء معرفة طبية كاملة، ومنها الكتب والمؤلفات الطبية اليونانية المترجمة إلى العربية مثل كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون[1].

أما فيما خصّ علم الهندسة، فمن الواضح أن المماليك اهتمّوا اهتماماً كبيراً بفن العمارة الذي استطاعوا بواسطته تكريس حضارتهم وتثبيت أركانها من خلال الجوامع والمدارس والقلاع والخوانق والقبب والجسور والأسوار التي أكثروا من تشييدها في مصر وباقي الحواضر التي خضعت لسلطانهم، معتمدين في ذلك أيضاً بشكل أساسي على المؤلفات اليونانية المترجمة إلى العربية مثل كتب ثاودسيوس وأوقليدس، التي وضعوا لها عدة مختصرات وشروحات وعلقوا عليها، وطوروها حتى استطاعوا إدخال ثلاثة علوم إضافية إلى منهج علم الهندسة، هي علم المخروطات وعلم المساحة وعلم المناظرة[2].

ج- الرحلة في سبيل العلم: يفيد في هذا السياق أن نورد ملاحظة تتعلق بالرحلة من أجل العلم، حيث لم يوفر الطلاب المسلمين جهداً في طلب العلم، فكانوا إذا ما اكتفوا من العلم على مشايخ بلدهم، ينتقلون إلى بلد آخر سعياً وراء مشاهير العلماء وكبار المحدثين. ولذلك راجت حركة التنقل والرحلة في طلب العلم رواجاً كبيراً، فكانت سبباً ونتيجة لازدهار الحركة العلمية الإسلامية في الوقت نفسه، خاصة وأن المرتحل في سبيل العلم كان يلقى رعاية و اهتماماً كبيرين. فحيثما يحلّ الطالب كان يجد المأوى والمأكل والملبس، إضافة إلى مخصص مالي من ريع وقف المؤسسة التي نزل فيها[3].

ولم تختص الرحلة بالعلوم الدينية فقط، فكان طالب العلوم العقلية يرتحل أيضاً لتحصيل العلم وخاصة طالب الطب. يتبيّن لنا ذلك مما ذكره ابن القفطي، أن رشيد الدين أبي حليقة اشتغل بصناعة الطب في أول أمره على عمه مهذب الدين أبي سعيد بدمشق، ثم انتقل للعمل بالديار المصرية، حيث قرأ على مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، ثم وبناء على أمر من الملك الكامل ابن العادل، عاد إلى دمشق ليدرس الطب على الحكيم أبي سعيد[4].

2- طرائق التدريس

---

[1]- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ص512.

[2]- ابن خلدون: المقدمة، ص486-487.

[3]- Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1128

[4]- ابن القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص545.

تأثّرت طرائق تدريس العلوم الدينية بطبيعة المواد الدراسية التي انحصرت بشكل أساسي بالعلوم الدينية التي لا يصلح فيها الشك ولا تخضع لآراء أو تجارب، إضافة إلى العلوم التي اعتبرت مساعدة لها والتي عادة تتأتى ملكتها بالتكرار[1].

ولم يختلف تدريس العلوم العقلية، عما كان متبعاً في تدريس العلوم الدينية، إذ كان لزاماً على الطالب أن يبدأ تعلمه بقراءة كتب في مبادىء العلم الذي يبتغيه على شيخه، على أن تقرن هذه القراءة بالحفظ ليمتلك الفن على أصوله. فقد ورد في كتاب "عيون الأنباء" أن الطبيب رشيد الدين أبي حليقة[2]، قد أقام في مدينة دمشق مدة سنة كاملة ليحفظ كتاب "الفصول" لأبقراط وكتاب "تقدمة المعرفة"[3]، وكذلك الطبيب رشيد الدين أبي سعيد الذي حفظ جميع ما ينبغي أن يحفظه من كتب مبادىء صناعة الطب، ثم عاد فقرأ على أستاذه كتب جالينوس وفهمها جيداً[4]. لكن ذلك لا يعني أن تدريس الطب قد اقتصر على الحفظ، بل قامت دروسه أيضاً على التشريح والتجربة، تزامناً مع الأبحاث والعناية بالمرضى تفي البيمارستانات. فالمسلمون كانوا لا يقيمون وزناً لطبيب لا يجمع بين التجارب والخبرة[5] من جهة، ودرس التصانيف الطبية من جهة أخرى[6]. ولذلك يعتبر الرازي أنه:"متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل"[7].

(**1**) **طرائق التدريس في الكتّاب:** لعل أكثر مرحلة تعليمية تطبق فيها طريقة الحفظ، هي المرحلة التعليمية الأولى التي تتمّ في الكتاتيب حيث يحفظ فيها الأطفال الذين أتمّوا الخامسة من عمرهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية عن ظهر قلب دون أن تشرح لهم أو أن يفهموا شيئاً مما يحفظونه[8]. وطريقة ذلك تكون بأن يجلس أطفال الكتّاب وأمام كل واحد منهم لوحة خشبية مغطاة بطين أبيض أو طباشير منقوعة بالماء، كتبت عليها بعض الآيات القرآنية ويستمرون بتكرارها حتى يحفظوها غيباً فإن فعلوا، تمحى ليكتب لهم غيرها وهكذا

[1]- ابن خلدون: المقدمة ،ص577؛ Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1126

[2]- هو الحكيم العالم رشيد الدين أبو الوحش بن الفارس أبي الخير بن أبي سليمان داود بن أبي المنى المعروف بأبي حليقة أوحد زمانه في صناعة الطب والعلوم الحكمية والآداب. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص545-555.

[3]- ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص545؛ ابن القفطي: المصدر السابق، ص 545.

[4]- ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص554.

[5]-كان الطبيب أبو المنصور يجلس عند باب داره ويفصد كل يوم جماعة من الناس حتى يتمرن على الفصد. المصدرنفسه، ص528.

[6]- روزنتال فرانتز: مناهج العلماء المسلمين، ص176.

[7]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص385.

[8]- ابن الجوزي: الحث على حفظ العلم، ص17.

دواليك حتى يحفظوا السورة بأكملها، فينتقلوا إلى أخرى، حتى ينهوا الجزء كله لينتقلوا بعد ذلك إلى جزء آخر، وأخيراً يكملون حفظ الكتاب كله[1].

ولكي يتأكد المدرس من أن الصبي قد حفظ ما هو مطلوب منه فعلاً، كان عليه أن يقرئ الجميع بنفسه، وإن لم يجد الوقت، كان يستطيع الطلب من أكبر الأولاد سناً وأكثرهم حفظاً للقرآن، أن يساعده على الإقراء والتسميع[2].

أما فيما يتعلّق بطريقة تعليم الخط والكتابة وهي بنظر ابن الحاج ضرورية لأنها تسهّل على الصبي الحفظ والفهم، وتساعده على مطالعة الكتب[3]، وهي أكثر عملانية تقوم على التطبيق والتمرّن. وقد شرحها ابن خلدون، ومفادها أن يلقي معلم الخط على المتعلمين قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف، ثم يقوم بتكتيبهم ما تعلّموه حتى يتمكنوا منه[4]. وتعليم الكتابة يتم على ثلاثة مراحل، حيث يقوم الأولاد في المرحلة الأولى بكتابة ما يمليه عليهم المدرس، ثم يصححون ما كتبوه، ثم بعد ذلك يقومون بعرض ما صححوه على المدرس[5].

(2) **طرائق التدريس في المدارس**: كان المدرّس حراً في تحديد منهج التدريس الذي يتبعه، كما كان حراً في انتقاء طريقة التعليم التي تناسب مادته ومستوى طلابه بشكل عام. ولقد تنوعت طرائق التعليم بتنوّع المدرسين والمشايخ، كما تنوعت وسائلهم ومناهجهم، إلا أنهم في الطرق جميعها اعتمدوا على الكتاب الذي ما برح يقوم بدور هام في العملية التعليمية أكثر من أية وسيلة أخرى.

ولذلك، فإن طرائق التعليم في هذه المرحلة لا تختلف كثيراً عن المرحلة السابقة وهي بحسب ابن الحاج تكون إما تلقيناً أو عرضاً[6]، أي أنها أيضاً تعتمد على الحفظ عن طريق التكرار[7]، لجميع العلوم، وفيها، يطلب الشيخ من الطالب أن يعيد درسه ويكرر الإعادة حتى يحفظ ما هو مطلوب منه، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الناس

---

[1]- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص458؛ غودفروا، موريس: النظم الإسلامية، ص188؛ حطيط، أحمد: قضايا منتاريخ المماليك، ص230.

[2]- ابن الحاج: المصدر نفسه، ج2، ص458.

[3]- ابن الحاج: المصدر نفسه، ج2، ص460.

[4]- ابن خلدون: المقدمة، ص418.

[5]- ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، 459.

[6]-ابن الحاج: المدخل، ج1، ص69.

[7]- Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman, P 39 ; Hitti, Philip: History Of Arabs, P412; Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5 ,P1126

يتفاوتون في سرعة الحفظ، فمنهم من يحتاج إلى كثرة الإعادة والتكرار ليثبت معهم المحفوظ[1]، ومنهم من يحفظ مع قلة التكرار. ولذلك، اعتمد بعض مشايخ العصر مع طلابهم طريقة القراءة الجماعية بصوت واحد جهراً كطريقة أساسية لجعلهم يحفظون ما يريدون أن يحفظوه بسرعة[2]. وكانت الطريقة الآنفة الذكر الأكثر إتّباعاً مع المبتدئين، وهي برأي ابن خلدون الطريقة الأصلح لهذه المرحلة، وتقوم على التنقل بين ثلاث مراحل من التقريب إلى الاستيعاب الكامل ثم الإحاطة والتحصيل بمسائل الفن[3]. ومن شروطها أن يراعي المدرس قدرة الطالب المبتدىء على الحفظ[4]، فكان عليه أن يقوم أولاً باختبار قدرته "..ويجرّب ذهنه ويعلم حاله..."[5]، فإن وجده نبيهاً وحاذقاً يطلب منه حفظ مختصر واحد في علم واحد يناسب عقله وعمره[6]، ومن ثم يزيد عليه حفظ الكتب تدريجيا، شرط أن يشرح له ما هو بصدد حفظه حتى يفهمه تماماً، فالعلم علم رواية ودراية فلا يجب أن يكتب أو يحفظ المتعلم شيئاً لا يفهمه كي لا يضيع وقته[7]، وقد قيل:"العلم مدينة، أحد بابيها العلم والآخر الدراية".

وقد حرص طلاب العلم على حفظ الكتب القيّمة والمؤلفات الهامة أو مختصراتها،وقد برز هذا الاهتمام واضحاً في تراجم العلماء التي يقال فيها إن فلاناً حفظ كتاب كذا وكذا وكذا. ومن أهم الكتب التي حازت على اهتمام الطلاب فحفظوها نجد مثلاً ألفية ابن مالك وصحيحي البخاري ومسلم والمنهاج الأصلي للنووي، والشاطبّيتان في القراءات والعمدة في أصول الدين لحافظ الدين النّسفي، والكافية في العربية لابن الحاجب، وجمع الجوامع والهداية لابن الجزري، والكنز في فقه الحنفية، والمنارة في الأصول وغيرها الكثير من أمهات الكتب[8].

---

[1]- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص184؛ كان أبو اسحاق الشيرازي يعيد الدرس مئة مرة، في حين كان الحسن بن أبي بكر النيسابوري لا يحصل له الحفظ حتى يكرر خمسين مرة. ابن الجوزي،: الحث على حفظ العلم، ص21.

[2]- ابن الحاج: المصدر السابق، ج1،ص67-83. وقد انتقد ابن الحاج هذه الطريقة لأنها لا تسمح للمدرس أن يتبيّن من حفظ الدرس ومن لم يحفظه، كما أنها خرجت عن تقليد السلف. المصدر نفسه، ج2، ص461.

[3]- ابن خلدون: المقدمة، ص 533.

[4]- غودفروا، موريس: النظم الإسلامية، ص164؛ ابن جماعة: المصدر السابق، ص61.

[5]- ابن جماعة: المصدر نفسه، ص56.

[6]-كان علماء السلف يحذرون الطلبة المبتدئين من المطالعة في أكثر من مصنف واحد في الوقت عينه، فقد يتسبب له ذلك بتشتيت الذهن وضياع الوقت. ابن جماعة: المصدر نفسه،ص111؛ الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1، ص51.

[7]- الغزالي: المصدر نفسه، ج1،ص51. ابن جماعة: المصدر نفسه، ص61 ؛ Pedersen, J : Article Madrassa, EI2,T5, P1126

[8]- الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي، ص ص 430-432؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص227.

وقد عرفت طرائق أخرى أكثر ملاءمة لطلاب التعليم العالي الذين تخطوا مرحلة المبتدئين، اعتمدت جميعها بشكل أساسي على نظام الإعادة الذي لازم جميع الحلق التعليمية من خلال طبقة خاصة من المدرسين كانت مهمتهم الأساسية إعادة الدروس والمحاضرات على الطلاب الذين فاتهم شرح الدرس أو صعب عليهم فهمه. وقد عدّد الإمام أبو سعيد السّمعاني هذه الطرائق وأنواع الإجازات فيها[1] فقال:"...وأخذ الحديث عن المشايخ يكون على أنواع منها أن يحدّثك به المحدث ومنها أن تقرأ عليه ومنها أن يُقرَأ عليه وأنت تسمع ومنها أن تعرض عليه وتستجيز منه روايته ومنها أن يكتب إليك ويأذن لك في الرواية فتنقله من كتابه أو من فرع مقابل بأصله، وأصَحّ هذه الأنواع أن يملي عليك وتكتبه من لفظه لأنك إذا قرأت عليه ربما تغفل أو لا يستمع وإن قرأ عليك فربما تشغل بشيء عن سماعه وإن قُرِىء عليه والحضّر سماعه فكذلك"[2]. ويعود السمعاني فيستطرد بأنه"...إن عرضت عليه وأذن لك أو كتب إليك فهو دون هذه الأنواع ولهذا اختلفوا في صحته حتى أن بعضهم ما كاد يرى الإجازة"[3].

أ- **من أولى هذه الطرائق**، طريقة السؤال والجواب، نستنتجها من قول ابن الحاج في كتاب"المدخل" "...حلق التعليم وما يتحاورون فيه ويتراجعون من سؤال وجواب..."[4]، والتي يبدو إن المسلمين استوحوها من قول الله تعالى :"**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونْ**"[5]. وهذه الطريقة كانت من الطرق التعليمية الناجحة فهي واضحة وذات جدوى، كونها مباشرة بين العالم والمتعلم، ولذلك كانت الأكثر إتباعاً خاصة في حلقات تعليم التشريع الإسلامي والفقه[6].

ب- أما الطريقة الثانية: فهي طريقة الإملاء التي أجمع عليها فقهاء الأمة واعتبروها أسلم الطرق وأقلّها تعرضاً للأخطاء. فالمحدّث إذا أملى وكتب الطالب من لفظه مباشرة، فلا يرتكب أخطاءً لأن المحدث يعرف ما يملي والطالب يسمع ويفهم ما يكتب"[7]. وأكثر ما اعتمدت هذه الطريقة في دروس الحديث والتفسير، ودروس اللغة والأدب[8]، حيث اتبعها المدرّسون بكثرة. نستنتج ذلك مما ذكره السيوطي عن الحافظ العراقي

1- يتحدث الإمام السمعاني هنا عن طرق درس الحديث و الإجازة فيه وهو ما يمكن تطبيقه على سائر العلوم. وانظر أيضاً Sublet, Jacqueline: La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman,P15-25

2- السمعاني: أدب الإملاء واللإستملاء، ص8.

3- السمعاني: المصدر نفسه، ص10.

4- ابن الحاج: المدخل، ج1،ص73؛ Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1127

5- القرآن الكريم: سورة النحل،آية43.

6- ابن الحاج: المدخل، ج1،ص57.

7- السمعاني: أدب الإملاء واللإستملاء ،ص10؛ Pedersen, J : Ibid, P1126

8- أملى محمد بن عبد الواحد أكثر من ثلاثين ألف كراس في اللغة من ذاكرته. ياقوت الحموي، أدباء، ج7، ص26.

(ت816هـ/1413م) أن الله تعالى أحيا به سنة الإملاء وأنه أملى أكثر من أربعمائة مجلس، أما ابن حجر العسقلاني فقد أملى ألف مجلس[1] . وفي العادة كان المدرسون يحددون يوماً أو أكثر من أيام الأسبوع للإملاء خاصة ويتركون بقية الأيام للقراءة.

وفي حلقات الإملاء، كان الشيخ يعتمد على ما اختزنه في ذاكرته من المعلومات القيّمة، أو على مرجع بين يديه أو مدونات[2] كان قد سجّلها سابقاً في درسه عن شيخه، وقد يزيد عليها هو عند تحضيره لدرسه في منزله قبل إملائه على طلابه. وكان المدرس يبدأ مجلسه بإملاء مقطع من الدرس ثم يقوم بشرحه وتفصيله وتوضيح العبارات الصعبة الواردة فيه، ومن ثم يطلب من طلابه تسجيل ملاحظاتهم في هامش النص الذي كتبوه[3].

ج- الطريقة الثالثة: هي طريقة السماع والقراءة التي رأى العلماء جواز الوقوع في الخطأ فيها أكثر من غيرها مما يستوجب إعادة القراءة مرات عديدة. وقد روى السمعاني أن يحيى بن يحيى النيسابوري، لما فرغ من قراءة كتاب "الموطأ" على الإمام مالك قال له ما سكن قلبي إلى هذا السماع، قال مالك ولم؟ قال لأني خشيت أنه سقط منه بعيّي، فقرأ مالك فلما فرغ قال ما سكن قلبي إليه لأني أخشى أنه سقط من أذني شيء، قال فما تريد، فقال يحيى اقرأه أنا ثانياً فتسمعه، فقرأ فتمّ له سماع ثلاث مرات[4].

ورغم ذلك، فقد اعتمد طريقة القراءة كثير من المشايخ والمدرّسين، بدليل إنه كثير ما ورد في أمهات الكتب عبارة "بقراءتي عليه"[5]، أو فلان قرأ كذا على فلان. وفيها يقرأ الطالب على شيخه الكتاب المطلوب بحضور طلاب آخرين يستمعون للمدرّس الذي يقوم بالشرح والتعليق[6].

د- الطريقة الرابعة: طريقة المحاضرة وفيها، يطلب الشيخ من تلامذته قراءة موضوع ما مسبقاً قبل أن يأتوا إلى الحلقة، ليبدأ هو بشرح الدرس بطريقة الشرح المتدرّج فيعطي بداية فكرة بسيطة وعامة عن الموضوع، ومن ثم يعرض الأفكار الرئيسة دون أن يدخل في التفاصيل، ليعود بعد ذلك إلى قراءة الدرس كاملاً على أن يتابع

---

[1]- السيوطي: حسن المحاضرة ،ج1،ص168.

[2]- وكانوا يسمونها " الجزازات " و "التعاليق" و " التمالي" و" المسودات".ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص185.

[3]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص231؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman,P39

[4]- السمعاني: ادب الإملاء والإستملاء ،ص8-9.

[5]- وردت هذه العبارة كثيراً في طبقات السبكي، ص189، 190، 213، 220؛ 206 وغيرها.

[6]- روزنتال، فرانتز: مناهج علماء المسلمين في البحث العلمي، ص74؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص511.

الطلبة القراءة في كتبهم. وبين الحين والآخر، يوقف المدرّس الشرح ليجيب على أسئلة طلابه أو ليوضح بعض الأمور والأفكار التي تحتاج إلى شرح وتعمق[1].

هـ- الطريقة الخامسة: طريقة المعارضة التي اختلف العلماء في أمرها. وفيها يجوز للطالب أن يحضر حلقات الدرس، كما يجوز له التغيب عنها ويكتفي بحضور حلقة المعارضة التي يخصص لها العلماء يوماً معيّناً[2]. ولذلك، اعتبرها بعض العلماء أسوأ الطرق وهي بنظرهم لا تفيد ولا يستحق متّبعها الإجازة لأنه لم يحضر حلقات العلم واكتفى بدرس الكتب. ومع ذلك، فقد اتبعها كثيرون الذين اعتبروا أنه ليس من الضرورة أن يحضر الطالب حلقات المشايخ وأنه يستطيع أن يحصّل العلم من قراءة الكتب فقط. وأكثر ما استعملت هذه الطريقة للتثبت من صحة نص مخطوطة ما بمعارضتها معارضة دقيقة مع نسخة أو نسخ أخرى لنفس المخطوطة[3]، فكانت منهج بحث وطريقة أساسية للمشتغلين بعلم التاريخ وبالعلوم الدينية، وخاصة علماء الحديث الذين اعتمدوا معارضة النسخ للتوصل إلى معرفة مختلف الروايات ولإثبات النص الصحيح من المزوّر[4].

و- الطريقة السادسة: طريقة المناظرة، وهي أهم الطرائق التي اعتمدت في المراحل المتقدمة من التعليم، مرحلة إعداد المدرسين وتهيئتهم لمهام التعليم لأهميتها في التدريب على سرعة الفهم والتعبير عن الأفكار وتعزيز الثقة بالنفس. ويشترط في المناظر أن يكون على دراية في المسائل الفقهية، وأن يمتلك الأجوبة عليها، وأن يراعي أصول التناظر على قاعدة حق الاختلاف في الرأي، ولكن ضمن حدود التهذيب والإحترام[5]. وقد اعتمد علماء العصر الوسيط المناظرة كطريقة أساسية لحل بعض الخلافات التي كانت تقوم في المسائل الدينية واللغوية والتي كان يتخللها طروحات ومداخلات جعلتها مادة دسمة، ساهمت في إغناء الحركة الفكرية والثقافية، خاصة وقد نتج عنها كتب وضعها كبار علماء العصر تحدد أسس المناظرة وشروطها، وتبحث فيها مثل: كتاب "اللباب المنتخل في الجدل" للغزالي.

---

[1]- ياقوت الحموي: الأدباء، ج1، ص225؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص232؛ Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1127

[2]- الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص62.

[3]- روزنتال، فرانتز: المرجع السابق ص72؛ حلاق، حسان: مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص115.

[4]- روزنتال، فرانتز: المرجع نفسه، ص74، 130-133؛ حلاق، حسان: المرجع نفسه، ص115؛ البغدادي: الجامع لآداب الراوي، ص ص 141-138.

[5]- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص184؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ص31-32؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص 360؛ حطيط، أحمد: المرجع السابق ، ص232؛ Pedersen, J : Ibid, P1126

وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن المصادر التاريخية حفلت بكثير من الشواهد والأدلة التي تبيّن اعتماد المسلمين لطريقة المراسلة عن بعد خاصة بين العلماء، كشكل من أشكال التعلم وتداول المعلومات وتبادل الخبرات والمعارف.

يستفاد مما سبق، أن طرائق التدريس في مدينة القاهرة في العصر المملوكي، قامت على نظام يشبه النظام المتبع في أيامنا الحاضرة، فتدريس الصغار قائم على الحفظ والتكرار، أما حلقات التعليم العالي فقامت على نظام المحاضرات المتبع في الجامعات الحديثة من حيث أن بعض المدرسين يلقون محاضراتهم أو يملونها على طلابهم الذين يسجّلون ملاحظاتهم على أوراقهم الخاصة ليرجعوا إليها فيما بعد، فيعاودوا قراءتها ويذاكروها مستعينين بما علق في أذهانهم من شرح المدرّس.

ثانياً: الإجازات

1- منح الإجازة

لم يعرف نظام التعليم في مدينة القاهرة، في العصر المملوكي الأول مفهوم الامتحان الفصلي أو السنوي أو المرحلي، فكانت المراحل التعليمية متداخلة فيما بينها، لا يخضع الطالب في نهاية أي منها لامتحان تحصيلي أو غيره. وجلّ ما في الأمر أنه كان ثمة ما يشبه الشهادات الدراسية، تعطى في نهاية مرحلة التعليم العالي، وهي عبارة عن إجازة شخصية[1]، يمنحها الشيخ أو المدرِّس لأحد طلابه، يفيد فيها أن الطالب الفلاني قد قرأ عليه كتاب كذا رواية ودراية، أو أنه استملى منه الكتاب، وأنه يأذن له بتدريسه[2]. وعادة ما كانت الإجازة تكتب على الغلاف الداخلي[3] للكتاب الذي استملاه أو عرضه الطالب[4]، وقد تصدر عن مدرِّس صدر واحد فقط[5]، فترتبط باسمه ويوقع عليها[6]، أو قد تصدر عن عدة مدرسين، يأذنون فيها للطالب

[1]- تعتبر الإجازة دليل إثبات أن الطالب قرأ ما قرأ أو سمع ما سمع، وبدونها لا يستطيع أن يزاول التدريس. السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص35.

[2]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج1، ص253، ج2، ص272؛ Jacqueline Sublet: La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman,P14; Hitti, Philip: History Of Arabs, P 409

[3]- الغلافات الداخلية للمخطوطة هي عبارة عن بضع وريقات بيضاء يتركها مجلِّد المخطوطة لكتابة ملاحظات وفوائد تتعلق بموضوع المخطوطة قد يكتبها أحد العلماء المتطلعين عليها. روزنتال، فرانتز: مناهج علماء المسلمين، ح1، ص56.

[4]- Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1128

[5]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص233؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص ص 260-269؛ Pedersen, J : Ibid, P1121

[6]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص364.

بأن يفتي ويقرئ، على أن تكتب هذه الإجازة بخط أحدهم ويوقع بالإذن عليها الباقون[1]. وخير مثال على ذلك، الشهادة التي كتبها ابن حجر العسقلاني على بعض الآذنين لتلميذه زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الزّين بالإفتاء والإقراء[2]. وقد تكون الإجازة محصورة بإقراء وتدريس كتاب واحد، وقد تكون شاملة متنوعة، يأذن فيها الشيخ لطالبه بإقراء جميع كتبه وتآليفه وما صدر عنه وتدريسها[3]، كما أجاز الشيخ سراج الدين ابن الملقن، لتلميذه أحمد بن علي القلقشندي عام 778هـ/ 1376م، أن "...يدرِّس مذهب الإمام الشافعي ...وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث حلَّ وأقام، وكيف ما شاء ومتى شاء وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطّاً ولفظاً على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه: لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته... وأجزت له مع ذلك أن يروي عني مالي من التآليف، ومنها "جامع الجوامع" ...وشرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري"، ومنها " البدر المنير، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي، وبه تكمل معرفة الفقيه ويصير محدثاً فقيهاً"... ثم يتابع فيقول:" وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني وروايته بشرطه عند أهله... ومنها الكتب الستة: "البخاري" و"مسلم" و"أبو داوود" و"الترمذي" و"النسائي" و"ابن ماجة"، والمسانيد: "مسند أحمد" و"مسند الشافعي " وغير ذلك[4].

وإذا ما حصل الطالب على إجازة لا يعني أنه قد أنهى مرحلة التعليم العالي التي كانت تمتد على ثلاث أو أربع سنوات متتالية، وتنتهي بامتحان الإجازة، فإذا ما نجح الطالب واستطاع لفت نظر أستاذه، قد يختاره ليصبح معيداً عنده، فيخضعه لفترة تمرين ومراقبة (صحبة) غير محددة قد تمتد عشرين سنة قبل أن يصبح بدوره مدرساً[5]. وفي فترة "الصحبة"، يتمكن الطالب من المادة التي يتخصص فيها ويتعرف على طرق المناظرة فيها، وتتكون لديه أجوبة على كل الأسئلة التي تتعلق فيها والتي يمكن أن تتطرح عليه. وهذا التدرج قد يتم عند مدرس واحد أو عدة مدرسين[6]، أما إذا كان الشيخ غير راض عن أداء الطالب فلا يجيزه[7]. هذا

---

[1]- العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري، ص164.

[2]- السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص209.

[3]- Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1128

[4]- القلقشندي: المصدر السايق، ج14، ص ص 364-369؛ وكذا أنظر العيني: المصدر السابق، ص198

[5]- Pedersen, J : Ibid, P1126؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman , P56-62

[6]- Pederson, J : Ibid, P1128

[7]- يتبين لنا ذلك من كتب الببليوغرافيا التاريخية عند تعداد مشايخ أحدهم فيقال مثلا: أجازه فلان وفلان وفلان وغيرهم ممن لم يجزه.

فيما يتعلق بالعلوم الشرعية والفقهية، أما فيما يتعلق بعلم الحديث، فكان طلبته ينتقلون من بلد إلى آخر سعياً وراء الحديث الصحيح وجمعه من المحدثين الثقاة الأسناد الذين غالباً ما يكونون آخر حلقة في تسلسل السند والذين يحملون وحدهم الإذن بسرد الحديث، وإعطاء حق روايته للآخرين. وكان طالب الحديث يعمل على جمع أكبر قدر ممكن من الإجازات من المحدثين الثقاة الذين يستطيع الوصول إليهم[1].

أما فيما يتعلق بالعلوم العقلية، فإننا نستطيع أن نأخذ علم الطب مثلاً مهماً، حيث كان الطالب يخضع لامتحان تقييمي على يد مدرّسه أو رئيس الأطباء، يحصل بنتيجته على شهادة تعلن أن الطالب قد أصبح قادراً على مزاولة هذه المهنة[2]. وقد باشر المسلمون بإخضاع أطبائهم لامتحان تقييمي قبل أن يسمحوا لهم بمزاولة المهنة، منذ سنة 319هـ/931م، في عهد الخليفة المقتدر بالله العباسي، بعد أن مات رجل من جراء غلطة طبيب[3]. والامتحان عبارة عن جزأين، الجزء الأول نظري، يطرح فيه الطبيب الممتحن على الطالب أسئلة يعتبرها ضرورية جداً وقد تكون عامة وشاملة، وقد تكون متخصصة طبية بحتة. أما الجزء التطبيقي، فيكون في الأعمال التي يجب على الطالب معرفتها وإتقانها، كأن تعرض عليه حالة مرضية ويطلب منه وضع العلاج اللازم لها، أو أن يطلب منه خلط عقار ما، أو غير ذلك من الامتحانات العملية[4]. وبعد أن يجتاز الطبيب امتحانه ويحصل على ثقة أستاذه المشرف عليه، يقسم اليمين الطبي قبل أن يسمح له بمزاولة اختصاصه ويصبح طبيباً ممارساً.

وبحسب كتاب "امتحان الطبيب"، فإن الطالب كان يخضع أيضاً لامتحان شخصي يحدد ما إذا كان الطبيب متيقظاً ذكياً قادراً على استعمال القياس ويستخرج الوجوه للعلاج من تلقاء نفسه[5].

2- أنواع الإجازات

---

[1]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج7، ص174؛ صحيح البخاري، باب العلم، ص19،7، 26؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P113 ; Sublet, Jacquline: La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman,P14-16; Pederson, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1128

[2]- على الرغم من إصدار قانون يمنع مارسة مهنة الطب من دون إجازة طبية، إلا أننا نجد أن مهنة الطب بقيت من العلوم التي اعتمدت فقط على الخبرة، ويستطيع أي كان ممارستها حتى لو كان لم يتجاوز سن الطفولة. يتضح لنا ذلك من نصيحة أوردها ابن الحاج في كتابه للنساء المسلمات باتخاذ طبيبة أو صبي دون سن المراهقة، وليس طبيباً رجلاً. ابن الحاج: المدخل، مج2،ج4، ص 315.

[3]- ابن القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص130؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص278؛

[4]- الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، ص ص 104-111.

[5]- ابن القفطي: أخبار العلماء، ص94.

كانت الإجازة بشكل عام، على ثلاثة أنواع: **الإجازة العامة** أو **إجازة الفتيا، وإجازة السماع، والإجازة التحريرية** وتتوزع على ثلاث فئات هي: **إجازة بعراضة الكتب، وإجازة بالمرويات، وإجازة بالمناولة**. ويختلف الأسلوب الذي تكتب فيه الإجازة، باختلاف الشيخ الذي يكتبها ومكانته العلمية، وبحسب الشخص المكتوبة له[1]، وفيها يشرح المجيز سبب إجازته للمجاز له[2]، فقد كتب السراج البلقيني إجازة بخطه يجيز فيها ولده عبد الرحمن، جاء فيها أنه رأى منه البراعة في فنون متعددة من الفقه وأصوله والفرائض وغيرها مما يظهر من مباحثه على الطريقة الجدلية والمسالك المرضية والأساليب الفقهية والمعاني الحديثة، وأنه اختبره بمسائل مشكلة وأبحاث معضلة فأجاد[3].

(**1**) **إجازة الإفتاء والتدريس**:كان الشيخ يختار من أمهات الكتب كتاباً ليدرسه لطلابه، فإذا لازمه أحدهم وتابع سماعه ودرسه عليه دراسة وافية، يمنحه الشيخ شهادة، يشهد له فيها أنه قرأ عليه الكتاب الفلاني للشيخ فلاني قراءة تدبير وفهم، أو أنه مهر في الفقه وأصبح مؤهلاً للفتيا، أو أنه سمع عليه جملة من الأحاديث الشريفة بسندها فحفظها بهذا السند وأجاز له الرواية وأصبح محدثاً ثقة، أو أنه برع في الأدب وأصبح قادراً على رواية كتاب أو ديوان[4]. وتعطى الإجازة للطالب المتخرج حديثاً بعد أن يتجاوز امتحان يكون عبارة عن مناظرة تقوم بين الطالب واستاذه، أو بين الطالب وأحد رفاقه وتحت إشراف الأستاذ، وكانت تكتب إما على الكتاب الذي قرأه الطالب، أو على ورقة مستقلة من القطع العريض. وبذلك يصبح الطالب قادراً على مزاولة مهنة التعليم أو الرواية أو الفتيا[5].

(**2**) **إجازات السماع أو السماعات**:كانت مجالس السماع من أهم المجالس العلمية العامة التي تبين مدى انتشار العلم في المجتمع المملوكي ومدى إقبال الناس عليه. وفيها يقوم فيها أحد العلماء والشيوخ الثقة بإقامة مجلس سماع للرواية والحديث[6]. وكان الشيخ يدوّن في ذيل كتاب المتعلم شهادة يذكر فيها اسمه وكنيته واسم

[1]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص364.

[2]- العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري، ص198.

[3]- السخاوي: الضوء اللامع، ج4، ص97.

[4]- Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1121,P1128؛ القلقشندي: صبح الأعشى،ج14، ص364؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص233؛ سليم،محمود: عصر سلاطين المماليك،ج2،مج3،ص29، ص76؛ Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P113

[5]- Pederson, J : Ibid, P 1120, P1128

[6]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص235-236؛ Sublet, Jacquline:La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman, P17

الطالب وكنيته، وتواريخ إقامة مجالس السماع وأمكنتها، وأسماء الحضور، وعناوين الرسائل والكتب التي سمعها عليه الطالب أثناء حضوره جلسات السماع، كما يدوِّن أسماء مؤلفيها أو رواتها[1] والأجزاء التي فاتت السامع بعبارة " بفَوَتْ"[2]. وهذه الشهادة تثبت متابعة الطالب لمسلسل السماع، وكانت على نوعين: إجازة عامة، تمنح بالسماع المباشر، وإجازة خاصة من دون سماع، تمنح دون اتصال مباشر بين الطالب وشيخه[3]. ومن الأمثلة على هذه الإجازة تلك التي منحها خليل بن أيبك الصفدي لمحمد بن أبي الفتح المنذري وآخرين برواية كتابه "أعيان العصر وأعوان النصر" إضافة إلى ما له من تأليف وتصنيف واختصار واختيار وما أنشأه من فنون النظم والنثر...[4].

(3) الإجازات التحريرية: وهي على ثلاثة أنواع، حررها العلماء لطلبتهم وهي:

أ- إجازة العراضة: تعطى هذه الإجازة للطالب الذي أنهى حفظ كتاب في الحديث أو الفقه أو غيره، ثم يعرضه على مشايخ العصر،"... فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً ومواضع، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب..."، فيكتب له بذلك كل شيخ يعرض عليه، بما يتناسب مع مقام الطالب العلمي والكتاب الذي حفظه. وباختصار، يفيد الشيخ في العراضة بأن:"عرض علي فلان"، أو " عرض علي وكتبه فلان" أو غير ذلك مما يفيد المعنى[5]. ومن الأمثلة على هذه الإجازة ما ورد في الضوء اللامع أن المدعو زكريا بن حسن بن محمد الزين، عرض على المحب بن نصر الله، والقلقشندي، والعيني، وابن الديري، وأجازوه في سنة 839هـ/1435م[6].

---

[1]- Sublet, Jacquline : Ibid, P P18-19

[2]- مثلاً يقول السخاوي عن محمد بن أبي بكر بن أيدغدي، أنه سمع على النجم بن رزين والتقي بن حاتم والصلاح البلبيسي والعراقي... ومما سمعه على الأول والرابع البخاري بفوت المجلس الأول على ثانيهما، وعلى الثاني الشفا بفوت وعلى الثالث صحيح مسلم...السخاوي: المصدر السابق، ج7، ص139.

[3]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص236؛ Berkey, Jonathan: Ibid, P113

[4]- Sublet, Jacquline: Ibid, P24

[5]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص369-370؛ العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري، ص164؛ حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص234؛ Sublet, Jacquline: Ibid,P17

[6]- السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص207.

ب- **الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات**: يقصد بها الإجازة بالمراسلة، يمنحها العالم لأحد الطلاب الذين أصبحوا في مرحلة متقدمة من العلم، والمقيمين بعيداً عنهم[1]. ويذكر السخاوي أن حسن بن علي السفطي، كان يراجعه فيمن تأخر من أهل الروايات ليأخذ خطوطهم على الاستدعاءات[2].

ج- **المناولة**: بموجب هذه الإجازة، يناول الشيخ الطالب كتاباً أو حديث رواه ويطلب منه أن يرويه بدوره قائلاً له:"هذه روايتي فاروها عني" أو يقول له:" خذ روايتي فانسخها، وقد أجزت لك أن تحدّث بها عني". وقد تكون المناولة مصحوبة بالسماع، فتصبح أكثر أهمية[3]، على سبيل المثال، يقول السخاوي أنه قرأ على حسن بن محمد المعروف بالشريف النسابة كثيراً من تصانيفه، وناوله إياها جميعها[4].

ثالثاً:جلسة الدرس وآدابها

كانت حلقات العلم، وخاصة في الجوامع مباحة لمن يرغب من الناس الذين كانوا يجلسون إلى الشيوخ بأعداد تختلف بحسب شهرة الشيخ المدرّس وتعمقه في مادته. وكان الشيخ يجلس على سجادة أو مرتبة صغيرة، ظهره إلى الحائط، ويتربع الطلاب أمامه على شكل نصف دائري[5]، متنبهين لما يقوله حتى لا يضطروه إلى الإعادة[6]. وكانت تحكم جلسة الدرس آداب عامة وجب على الجميع احترامها، بعضها يتعلق بالمدرس وبعضها الآخر بالطلاب.

وكانت جلسة الدرس تسير على الشكل التالي:

- بداية، على المدرّس أن يتطهر ويتطيب ويلبس أفخر ثيابه وأنظفها قبل أن يذهب إلى مجلس الدرس[7]، فالمجلس مجلس دين وعلم. فإذا خرج من منزله ووصل إلى مكان الحلقة يسلّم على طلابه[8]، ثم يجلس على

---

[1]- القلقشندي: المصدر السابق،ج14، ص374؛ حطيط، أحمد: المرجع السابق، ص235.

[2]- السخاوي: المصدر السابق،ج3، ص100؛ Berkey, Jonathan: ibid, P113؛ Sublet, Jacquline: Ibid,P18

[3]- حطيط، أحمد: المرجع السابق، ص235؛ Berkey, Jonathan: Ibid, P113؛Sublet, Jacquline :Ibid, P17

[4]- السخاوي: المصدر السابق، ج3، ص110.

[5]- ابن جماعة: تذكرة السامع، ص97، البغدادي: الجامع لآداب الراوي، ص ص 71-75؛ ابن الحاج: المدخل،ج1، ص144؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص205؛ Pederson, Josh: Article Masdjid, EI2, Tome 6, P695

[6]- ابن جماعة: المصدر نفسه ص98؛ البغدادي: المصدر نفسه،ص ص 83-90؛ الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1، ص11؛ Pedersen, J : Ibid, P1129

[7]-كان الإمام مالك رضي الله عنه إذا حدَّث اغتسل وتطيَّب ولبس ثياباً جدداً. ابن جماعة: آداب العالم والمتعلم،ص39.

[8]- ابن جماعة: المصدر نفسه، ص40-41؛ ابن الحاج: المدخل،ج1،ص33؛ البغدادي: الجامع، ص ص 202-221؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman ,P P47-48

ينبغي على الطالب أن يدخل حلقة العلم طاهر البدن والثوب، صافي الذهن، مرتاح البال والجسد، حاضراً لتلقي العلم وحفظ الدرس. ابن جماعة: المصدر نفسه، ص96؛ البغدادي: المصدر نفسه، ص ص 55-60.

سجادته متربعاً مستقبلاً القبلة[1]، على أن يكون طلابه في انتظاره، فإذا جاء أحدهم متأخراً، عليه أن يستأذن قبل الدخول[2]، وإذا بدأت الحلقة يمنع الدخول إليها أو الخروج منها.

– وبعد أن يفتتح المدرّس حلقة الدرس[3]، يبدأ بحثه بالمواضيع التي تهم الطلبة في معاشهم وحياتهم اليومية، والتي يفتقرون فيها إلى المعلومات، شرط أن تتوافق مع أعمارهم ومستواهم العلمي، وإلا فيبدأ بما يريد هو البدء فيه[4].

– وخلال شرح الدرس، كان على المدرّس أن يعطي طلابه على قدر عقولهم ومداركهم، خاصة إذا بما كانوا من المبتدئين أو كان من بينهم من العوام [5]. كما عليه أن ينتبه لصوته، فلا يرفعه إلا على قدر الحاجة حتى يسمعه الجميع بوضوح. وكان من المستحب أن يعيد الشيخ كلامه ثلاثاً أسوة برسول الله (ص)، وإذا فرغ من مسألة سكت قليلاً ليتسنى لطلابه التعقيب والسؤال كي لا يضطروا إلى قطع كلامه فذلك كان مكروهاً [6].

– أما الطلبة فيسجلون على كراريسهم ملاحظات المدرِّس وشروحاته حول الدرس ومختصر ما قرئ في الحلقة. وعندما يعودون إلى البيت، يعيدون قراءة ما كتبوه فيثبت في أذهانهم[7]. وقد وضع المسلمون ملاحظات خاصة لعملية كتابة هذه الملاحظات، وللكتابة بشكل عام، تناولت الخط، والترتيب، وتثبيت أسماء كل من المدرس والمعيد والحاضرين من الطلبة وغير ذلك[8].

– ولما يفرغ الشيخ من شرح درسه، يطرح على الطلبة أسئلة تتعلق بالدرس ليمتحن فهمهم واستيعابهم، فإن تبين له أن أحدهم لم يفهم الدرس جيداً أعاده له[9].

---

[1]– آداب جلوس العلماء عند ابن جماعة: المصدر نفسه، ص41؛ البغدادي: المصدر نفسه، ص 270.

[2]– ابن جماعة: المصدر نفسه، ص94؛ البغدادي: المصدر نفسه، ص61-67؛ طاش كبري زادة: مفتاح السعادة،ج1 ص 21.

[3]– افتتاح الحلقة له آداب وأصول يجب مراعاتها. انظر ابن جماعة: المصدر نفسه، ص43؛ النويري: نهاية الأرب،ج32، ص46؛ البغدادي: المصدر نفسه، ص 286؛ ابن الحاج: المصدر السابق،ج1،ص86؛Chamberlain, Ibid, P48

– طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة،ج3، ص18-20.[4]

[5]– طاش كبرى زادة: المصدر نفسه، ص48؛ ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص303؛ ابن جماعة: المصدر السابق، ص45.

[6]– ابن جماعة: المصدر نفسه، ص46؛ ابن الحاج: المصدر نفسه، ج1، ص87؛ البغدادي: المصدر السابق، ص ص 91- 102.

[7]– البغدادي: المصدر نفسه، ص 122.

[8]– البغدادي: الجامع، ص ص 128-137.

[9]– ابن جماعة: تذكرة السامع، ص59؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ،ج1،ص 48؛ ابن الحاج: المدخل ،ج1،ص 88.

– وكان من واجب المدرِّس أن يحترم الدور في إقراء الطلاب[1]، وأن لا يطيل مدة الدرس تطويلاً يملّ، ولا يقصرها تقصيراً يخلّ، بل يراعي مصلحة الطلبة[2].

– وفي نهاية الحلقة، كان المدرِّس يختم درسه بعبارات توحي بمعنى الانتهاء وختم الدرس مثل، وهذا آخره، أو ما بعده يأتي إنشاء الله، أو بعظة أو تذكير، ومنهم من كان يختم بالحكايات والنوادر شرط أن لا يخلّ بالأصول المراعاة[3]. وكان من المستحب أن لا يستعجل الشيخ بمغادرة المجلس ليتسنى لمن يريد الاستفهام عن شيء فاته فهمه أن يسأل[4].

– أما على صعيد الانضباط داخل الحلقة، فكان من واجب المدرِّس أن يضبط مجلسه فلا يسمح باللغط وإثارة الفوضى، أو التزاحم في طرح الأسئلة. كما من واجبه أن يزجر من يسيء الأدب وتظهر منه إساءة، أو تعدٍّ في بحث أو مسالة[5]، وفي نفس الوقت عليه أن ينصف في معاملة الطلاب ويحترمهم، وأن ينصت إلى الجميع بنفس المقدار، ويسمع السؤال من سائله مهما بلغ سنه ومستواه[6].

رابعاً: توقيت الدروس والعطل

فيما يتعلق بمكاتب السبيل، فإنها وإن راعت الأولاد لصغر سنهم، كانت أيضاً كثيرة المرونة بحيث يسمح للصبي أن يترك الحلقة ويذهب إلى بيته للراحة أو الأكل. وفي العادة، كانت دروس الكتاتيب تبدأ من بعد طلوع الشمس وتمتد حتى العصر باستثناء يومي الثلاثاء والخميس، فتكون الدراسة فيها حتى الظهر، يقسمها المؤدّب بين الدرس والكتابة على الألواح، وبين التصحيح والعرض[7].

أما في المدارس والجوامع، فإذا كان الواقف قد اشترط وقتاً معيناً للدروس فهذا التوقيت هو الأولى بالاتباع[8]، وإلا فيعيّن المدرس وقت انعقاد الحلقة كما يناسبه، شرط أن يراعي مصلحة الطلبة وظروفهم كيلا

[1] – ابن جماعة: المصدر نفسه، ص147.

[2] – ابن جماعة: المصدر نفسه، ص 180؛ ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص303.

[3] – ابن جماعة: المصدر نفسه، ص 51،44؛ ابن الحاج: المصدر نفسه،ج2، ص316؛ طاش كبرى زادة: المصدر السابق،ج1،ص49.

[4] – ابن جماعة: المصدر نفسه، ص52.

[5] – ابن جماعة: المصدر نفسه، ص48؛ طاش كبرى زادة: المصدر السابق،ج1، ص86؛ البغدادي: المصدر السابق، ص 223-224.

[6] – ابن جماعة: المصدر نفسه،ص49؛ طاش كبرى زادة: المصدر نفسه، ص48؛ البغدادي: المصدر نفسه،ص138؛ ابن الحاج: المصدر السابق، ج2،ص303.

[7] – ابن الحاج: المدخل، ج2، ص ص 457-459؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص57.

[8] – مثلاً فقد شرط السلطان الأشرف شعبان أن يكون ميعاد الدرس في مدرسته الأشرفية من بعد العصر، أما الأمير علاء الدين مغلطاي، فقد اشترط أن يجلس شيخ خانقاته (العلائية) لتدريس الفقه الحنفي فيها أول النهار، على أن يخصص بعد الظهر لحلقات التصوف. النويري: نهاية الأرب، ج 33، ص230.

ينقطعوا عن أشغالهم وليستعدوا لها. وكان العرف أن يكون موعد الدرس ضمن الفترة الممتدة ما بين طلوع الشمس وحتى زوالها، فلا يعيّنه قبل طلوع الشمس أو يؤخره إلى ما بعد الظهر فإن ذلك فيه مشقة على الطلاب ومخالفة للعرف، على أن يراعي وقت فرض الجمعة تحديداً[1]. وكان درس يوم الجمعة يؤجل إلى ما بعد إقامة الفرض وحتى صلاة العصر[2]، باستثناء درس الحديث الذي رأى العلماء جواز إقامته في المسجد يوم الجمعة قبل الفرض[3]. ومتى حدد موعد الدرس فلا يجوز للمدرّس أن يؤخره مهما كانت الظروف والأسباب[4].

وبشكل عام، كان المدرِّسون يوزعون نشاطهم العلمي والأكاديمي وفق جدول متعارف عليه، يقضي بتخصيص ما بين الفجر أو طلوع الشمس إلى الضحوة في الإفادة والتعليم. ومن ضحوة النهار إلى العصر، في وقت التصنيف والمطالعة التي اعتبرت من ضرورات المشتغلين بالعلم؛ وأما من بعد العصر، كان العلماء يهتمون بسماع ما يقرأ بن يديهم من تفسير أو حديث أو غيره من العلوم النافعة حتى الاصفرار[5]، فيتفرغون بعد ذلك بالتسبيح والاستغفار حتى يحين وقت صلاة المغرب[6].

وفي الليل، فكان التقسيم الذي اتبعه الإمام الشافعي أولى بالإتباع، حيث جعل الثلث الأول للمطالعة، والثلث الثاني للصلاة، والثلث الثالث للنوم[7]. وبشكل عام هذا التوقيت هو نفسه الذي اتبع في التعليم الدنيوي، مع بعض الفروقات بحسب اندفاع الطلاب ورغبتهم في العلم، وخاصة في علم الطب الذي غلب على طلبته حب التعلم والانتفاع من مدرسيهم، فنجد طلبة الطبيب أبو البيان ابن المدور يقرأون عليه في أكثر الأوقات، حتى وهو راكب لتفقد مرضاه في منازلهم[8].

---

[1]- النويري: المصدر نفسه،ج32،ص46؛ ابن جماعة: آداب العلم والمتعلم، ص51؛ ابن الحاج: المصدر السابق،ج1، ص73؛ العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري،ص357؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman ,P 45

[2]- ابن الحاج: المصدر نفسه، ج2، ص331؛ وكذا ورد عند المقريزي: الخطط، ج4، ص52. وهذا كان وقت دروس جامع الأزهر التي أطلقها ابن كلس.Sauvaget, Jean: Historiens Arabes, P160

[3]- البغدادي: الجامع، ص ص 270-272.

[4]- ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص 309.

[5]- أما المفتين فكانوا يجلسون فيما بين العصر والمغرب للفتوى.

[6]- ابن الحاج: المصدر السابق، ج1، ص150؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج6، ص282؛ ابن جماعة: المصدر السابق، ص76؛ ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص ص 121-138؛ البغدادي: المصدر السابق، ص267؛ وكان بعض العلماء يعتمدون تقسيماً آخر، إذ كانوا يقسمون نهارهم في التعليم والإقراء بين جامع وآخر أو مدرسة وأخرى. السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص24.

[7]- القزويني: آثارالبلاد وأخبار العباد، ص227؛ البغدادي: المصدر نفسه، ص 405.

[8]- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص536.

أما فيما يتعلق بالعطل المدرسية والأعياد، فقد وجد المسلمون أن الأولاد إذا استراحوا من الدرس يومين في الأسبوع، نشطوا في الأيام الأخرى. لذلك، كانت الكتاتيب تعطل يومين في الأسبوع من ضمنها يوم الجمعة، إضافة إلى يومين أو ثلاثة قبل الأعياد وبعدها[1]. أما العطلة السنوية الأساسية لجميع المراحل فكانت تمتد من شهر رجب وحتى العاشر من ذي الحجة أي ثلاثة أشهر وعشرة أيام متواصلة [2].

الفصل السادس: الموارد البشرية للمدرسة المملوكية

أولاً: الهيئة التعليمية

1- تعريف العالم

[1]- ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص462.

[2]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص46.

"العالم" لقب اختص به أهل العلم، وهو خلاف الجاهل، إنما نعت به الملوك للتعظيم[1]. أطلق هذا اللقب على مختلف العلماء في شتى المجالات والعلوم. وقد اتخذ لنفسه معنيين متلازمين بحيث إنه أطلق أيضاً على المدرسين في المدارس وفي دور العلم[2].

وقد شكّل العلماء ومنهم المدرّسين، طبقة النخبة المثقفة والمتعلمة في المجتمع الإسلامي في العصر المملوكي الأول. وشملت هذه الطبقة بشكل أساسي رجال الدين من القضاة، والفقهاء، وحفظة القرآن الكريم، ورواة الحديث، وبعض المتصوفة وخطباء المساجد وأئمتها. وكان من ضمن هؤلاء العلماء نخبة بلغت مرتبة الاجتهاد وكانوا أسناداً وأئمة في علومهم ومذاهبهم الدينية، نذكر منهم على سبيل المثال: شيخ الإسلام عزّ الدين ابن عبد السلام (ت660هـ/1262م)[3]، ونجم الدين ابن الرفعة (ت710هـ /1310م)[4]، وتقيّ الدين السبكي (ت756هـ/ 1355م)[5] وتقيّ الدين ابن دقيق العيد (ت702هـ/1303م)[6]، والسراج البلقيني

---

[1]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج6، ص20.

[2]- مراد، يحيى: آداب العالم والمتعلم، ص12.

[3]- هو الإمام العلامة شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز ابن عبد السلام بن ابي القاسم بن الحسن المعروف بإبن عبد السلام. ولد سنة 578هـ و تفقّه على الإمام فخر الدين ابن عساكر و قرأ الأصول و العربية و درّس وأفتى وصنّف حتى بلغ رتبة الإجتهاد. قصده الطلبة من الآفاق وتخرّج به أئمة كبار. تولى قضاء مصر القديمة مدة و درّس بعدة بلاد، وتوفى سنة 660هـ.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج7، ص208؛ المقريزي: السلوك،ج1، ص545؛ السيوطي: حسن المحاضرة،ج1، ص272-273؛ أبو الفداء: المختصر ج3، ص215؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، رقم287، ج2،ص350-352؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج5،ص80- 107؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص ص 40-47.

[4]- هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الإمام العالم الشافعي فقيه عصره وثالث الشيخين الرافعي والنووي في الاعتماد عليه في ترجيح الرأي. ولد بالفسطاط سنة 645هـ،تفقّه على العديد من كبار العلماء مثل ابن رزين وابن بنت الأعز وتقي الدين ابن دقيق العيد، وسمع الحديث من عبد الرحيم الدميري وعليّ بن محمد الصّواف . وولّي التدريس بالمدرسة المعزية والطيبرسية وتصدّى للإفتاء، صنّف "الكفاية" في عشرين مجلّداً والمطلب في ستين مجلداً. العسقلاني: الدرر الكامنة،ج1، رقم370، ص284؛ السيوطي: المصدر نفسه،ج1، ص276-277؛ابن العماد: شذرات الذهب،ج6 ،ص163؛ الذهبي: العبر،ج4،ص25؛أبو الفداء: المصدر نفسه،ج4،ص63؛ السبكي: المصدر نفسه،ج5، ص177-178؛ الشوكاني: البدر الطالع،ج1، ص79-80؛ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج9، ص150.

[5]- هو العلاّمة تقي الدين أبو الحسن عليّ بن عبد الكافيبن سوار بن سليم الأنصاري. ولد بسُبْك من أعمال المنوفية سنة 683هـ، تفقه على ابن الرفعة وأخذ الحديث عن الشريف الدمياطي والتفسير عن العَلَم العراقي والنحو عن أبي حيّان والقراءات عن التقي ابن الصائغ. انتهت إليه رياسة العلم في مصر فكان من أجمع أهل العلم للعلوم وأحسنهم كلاماً في الأشياء الدقيقة.له كثير من المصنفات الجليلة المعروفة منها الدرّ النظيم في تفسير القرآن العظيم، والإبتهاج في شرح المنهاج، ورفع الشقاق في مسألة الطلاق وغيرها الكثير. السيوطي: المصدر نفسه، ج1،ص277-282؛ العسقلاني: الدرر الكامنة،ج3، ص63-71؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص28-29؛ سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي،ص ص 177-191.

[6]- هو تقيّ الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين عليّ بن وهب بن مطيع القشيري القوصيّ الشافعي المالكي. ولد سنة 625هـ،نشأ بقوص ثم رحل إلى مصر والشام.أخذ من الشيخ عز الدين بن عبد السلام، حقق العلوم و وصل إلى مرحلة الاجتهاد، انتهت إليه رياسة العلم في زمانه.كان عالم زمانه بالحديث،جمع العلوم العقلية وبرع في فنونها.قال الشيخ تاج الدين السبكي عنه أنه العالم المبعوث على رأس المائة السابعة. درّس بالشافعي والكاملية وصنّف كتب عدة منها الإلمام في الحديث و الإقتراح في أصول الدين. ابن العماد: شذرات الذهب،ج6، ص 139؛

(ت805هـ/1403م)[1] والرشيد العطّار (ت662هـ/ 1264م)[2]، والقطب القسطلاني (ت686هـ/1287م)[3]، وتاج الدين ابن بنت الأعز (ت665هـ/ 1267م)[4]، وتقيّ الدين ابن رزين (ت680هـ/1281م)[5] وشمس الدين المقدسي الحنبلي (ت676هـ/1277م) [6]، وغيرهم.

ومن العلماء من اختصّ في علوم العربية، حيث برز كثير منهم[7]، أكثرهم من جمعها إلى جانب علوم الدين كشمس الدين بن الصائغ (ت776هـ/1374م) النحوي الحنفي[8]، وبعضهم برع فيها إلى جانب

السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص274-275؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص207؛ الذهبي: العبر، ج4،ص6؛ العسقلاني: الدرر، ج4، رقم 256،ص91-96؛ أبو الفداء: المختصر، ج4،ص50؛ الكتبي:فوات الوفيات: ج3، رقم 486، ص442-350؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج6، ص2-23؛ النويري: نهاية الأرب، ج32، ص11-12.

[1]- هو سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكنانيّ، مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة.ولد سنة 724هـ، وأخذ الفقه عن ابن عدلان والتقي السبكي، والنحو عن أبي حيّان.برع في الفقه والحديث والأصول، فبلغ مرحلة الاجتهاد وانتهت إليه رياسة المذهب والإفتاء.له عدة تصانيف في الفقه والحديث والتفسيرمنها حواشي الروضة، وشرح البخاري، وشرح الترمذي وغير ذلك. ولّي تدريس المدرسة الخشابية كما درّس التفسير في الجامع الطولوني. السيوطي: المصدر نفسه، ج1،ص282-283؛ ابن العماد: المصدر نفسه، ج7 ص51؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص343-344؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص78-82.

[2]- هو الإمام الحافظ، رشيد الدين أبو الحسين يحيى بن علي بن عبد الله الأموي النابلسي ثم المصري المالكي.ولد سنة 584هـ، وتخرّج بابن المفضّل، سمع من البوصيري واسماعيل بن ياسين وغيرهم.انتهت إليه رياسة الحديث بمصر كما تولّى مشيخة الكاملية. السيوطي: المصدر نفسه، ج1،ص304؛ الحافظ الذهبي: المصدر السابق، ج3،ص260؛ الكتبي: المصدر السابق، ج4، رقم573 ،ص295.

[3]- هو أبو بكر محمد بن أحمد بن علي المصري.ولد سنة614هـ.تفقّه بالدين وأفتى جامعاً بين العلم والعمل.برع في الحديث فولّي مشيخة دار الحديث الكاملية. السيوطي: المصدر نفسه، ج1،ص352؛ الذهبي: المصدر نفسه، ج3،ص363؛ ابن العماد: المصدر السابق ج6،ص59؛ المقريزي: السلوك، ج2،ص200؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7،ص373؛ الكتبي: المصدر نفسه، ج3،ص310.

[4]- هو قاضي القضاة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن أبي القاسم العلامي الشافعي المعروف بابن بنت الأعز.صدر الديار المصرية ورئيسها.كان ثاقب الذهن صائب الحدس نزيهاً في أحكامه تولّى قضاء مصر ودرّس بعدة أماكن منها المشهد الشافعي والمدرسة الصالحية.كما ولّي الوزارة. المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص45؛ السيوطي: المصدر نفسه، ج1،ص349؛ الذهبي: المصدر نفسه ،ج3، ص313؛ النويري: المصدر السابق، ج30، ص ص 91-94؛ سلام، محمد: المرجع السابق ص ص 163-166.

[5]- هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين العامري. إمام بارع في الفقه والتفسير وله مشاركة في كثير من العلوم.ولد بحماة سنة 603هـ أخذ النحو عن ابن يعيش والفقه عن ابن الصلاح.انتقل إلى مصر فولّي قضاءها ودرّس في المشهد الشافعي حيث انتفع فيه كثير من الطلبة. السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص351؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج6، ص25؛ الذهبي:المصدر نفسه، ج3، ص345؛ السبكي : المصدر السابق، ج6،ص130؛ المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص155؛ النويري: المصدر نفسه، ج31، ص55.

[6]- هو أبو بكر، وأبو عبد الله، محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد بن علي سرور نزيل مصر وشيخ الشيوخ وقاضي قضاة الحنابلة، يعرف بابن العماد الحنبلي.ولد سنة 603هـ، بدمشق تفقه على الشيخ موفق الدين الحنبلي وغيره.أقام بمصر حتى مات.برع بمذهبه . ولّي قضاء الحنابلة مدة و هو أول من تولّاه من رجال مذهبه في عهد الظاهر بيبرس. جذب الطلاب إليه يتفقهون به، ولّي مشيخة خانقاه سعيد السعداء كما درّس بالمدرسة الصالحية حيث عكف على الفتيا والتدريس. المقريزي: السلوك، ج2، ص648؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7،ص134؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6،ص7؛ الذهبي: العبر، ج3، ص332.

[7]- سلام، محمد: الأدب في العصر المملوكي، ص ص 204-214.

[8]- هو محمد بن عبد الرحمن بن علي الزمردي. مدرّس اللغة والنحو والفقه بالجامع الطولوني. السيوطي: حسن المحاضرة، ص222؛ العسقلاني: الدرر الكامنة، ج3، ترجمة رقم1347، ص499.

علوم الدنيا كشمس الدين ابن الجزري (ت711هـ/1311م)[1] الذي برع بالنحو والأدب والبيان والمنطق، كما برع بالطب والرياضيات، ومنهم من اختصّ بها كشيخ النحاة في مصر شمس الدين الغماري الذي قصده الطلاب من مختلف المدن الإسلامية لتعلّم النحو[2]، والشيخ بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي شيخ العربية بالديار المصرية، والمدرس بالجامع الطولوني وبالقبة المنصورية[3].

وفيما يتعلّق بالعلوم الدنيوية كالهندسة والفلك والكيمياء والكلام وما إلى ذلك، فقد نبغ فيها أيضاً جلّة من العلماء، ولكنهم لم يكونوا بمثل كثرة علماء الدين واللغة بالرغم من التطور الكبير الذي أحدثوه في هذه العلوم وخاصة في علم الهندسة الذي شهد عصراً ذهبياً لشدة عناية سلاطين المماليك في تشييد ما يخلّد ذكرهم في البلاد من قصور ومساجد ومدارس وخوانق وغيرها من العمائر التي كلّفتهم الأموال الطائلة. ومن أشهر المهندسين الذين وردت أسماءهم في أمهات الكتب، كان رئيس المهندسين في الأيام الناصرية "ابن السيوفي"[4]، الذي بنى الكثير من العمائر منها المدرسة الأقبغاوية، وجامع الأمير ألطنبغا المارديني[5]، وأحمد بن رجب المجدّ بن الشهاب الزهري الشافعي، وكان من أهم علماء عصره في الهندسة، والحساب، والهيئة والفرائض وعلم الوقت[6].

أما فيما يتعلق بعلوم الطب والصيدلة، فقد اشتهر فيها حشد من العلماء الذين زاولوا التدريس مثل: نور الدين الأسنائي(ت721هـ/1321م)[7]، الذي برع في الجبر والطب والمقابلة، وركن الدين ابن القوبع (ت738هـ/1337م)[8]، الذي درّس الطب بالبيمارستان المنصوري ودرّس بالمدرسة المنكوتمرية وأعاد

[1]- هو محمد بن يوسف ابن عبد الله، خطيب جامع القلعة والطولوني. انتصب للإقراء والتدريس فقرأ عليه المسلمون واليهود والنصارى العسقلاني: المصدر نفسه، ج4، رقم830، ص299؛ السبكي: طبقات، ج6، ص31؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص156.

[2]- هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الغماري المالكي النحوي المصري.

[3]- الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص ص 294-296.

[4]- هكذا ورد اسمه في الخطط.

[5]- المقريزي: الخطط، ج4، ص232.

[6]- الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ص41.

[7]- هو ابراهيم بن هبة الله ابن علي بن الضبعة الحميري الشافعي . ولد بإسنا، وتفقّه فيها على الشيخ بهاء الدين القفطي. وفد إلى القاهرة حيث تتلمذ لكثير من الأئمة ثم تصدى للتدريس. العسقلاني: الدرر الكامنة، ج1، رقم198، ص74؛ ابن العماد: شذرات، ج6،ص54.

[8]- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن يوسف الجعفري التونسي المالكي. العسقلاني: المصدر نفسه، ج4،رقم491، ص181-184.

بالناصرية، وصلاح الدين ابن البرهان الكحال والطبيب[1]، وضياء الدين بن البيطار النباتي[2]، وشمس الدين محمد بن عبد الله المصري مدرّس الطب بجامع ابن طولون وغيرهم.

وقد زاول العلماء المدرسين مهنة التدريس إما في المساجد، وإما في المدارس ودور العلم الأخرى (كالخوانق والربط) رغبة منهم أولاً في نقل علومهم إلى الراغبين فيها، وثانياً سعياً وراء لقمة العيش، إذ إن رواتب المدرّسين والمنح والحوافز التي كانت تتحصّل لهم مقابل التعليم (خاصة في المدارس)، كانت مغرية وعلى قدر طموحهم، وذلك طبعاً دون أن ننسى المكانة الاجتماعية المرموقة والاحترام الذي تمتعوا به في المجتمع وعند أرباب الدولة.

إضافة إلى التدريس، فقد حقّ للمتعممين[3] أن يشغلوا مناصب الدولة الدينية والديوانية كالقضاء وأمانة السر والكتابة، ونظر الأحباس وغيرها. وكثير ما كان كبار العلماء يجمعون بيدهم وظائف عدة إلى جانب التدريس، كقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الذي جمع في يده سبعة عشر منصباً في وقت واحد، منها قضاء الديار المصرية، وتدريس المدرسة الصالحية النجمية، وتدريس مدرسة الإمام الشافعي والمشهد الحسيني، والنظر العام والإشراف على الأوقاف والأحباس للمدرسة والمشهد المذكورين، إضافة إلى الخوانق والمشاهد بالباب الشريف والديار المصرية، والنظر في جميع أوقاف وأموال الأيتام في مصر. وقد استمر القاضي ابن بنت الأعز في هذه المناصب إلى أن توفي، فتوزعت على أشخاص عدة من بعده [4]. وكذلك الشيخ السراج عمر بن رسلان البلقيني الذي درّس، في الوقت نفسه، بالمدرسة الخشابية، والبديرية، والحجازية، والخروبية، والبدرية، والملكية، والبرقوقية، وبجامع عمرو، وجامع ابن طولون، كما ولّي إفتاء دار العدل مع البهاء السبكي، ثم قضاء الشام عوضاً عن التاج السبكي[5].

---

[1]- هو محمد بن ابراهيم بن عبدالله.قرأ القرآن على أبيه، وأخذ الطب عن العماد الطرابلسي وابن النفيس،كما سمع الحديث من الدمياطي وابن القيّم. مهر في الكحل والطب كما له مشاركة في الحكمة والنجوم والكيمياء.أخذ المعقولات عن شمس الدين الأصفهاني والعربية عن ابن النحاس. العسقلاني: المصدر نفسه،ج3، رقم765، ص288.

[2]- هو الحكيم العالم أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي النباتي المعروف بابن البيطار.أوحد زمانه وعلامة وقته بمعرفة النبات وتحقيقه واختياره وموضع نباته،وأسمائه على اختلافها وتنوّعها. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص556.

[3]- المتعممين: لفظ يطلق على الطبقة المثقفة من الشعب في ذلك الوقت و المتخرجين من المدارس و الجوامع والنابغين في علم أو أدب وهؤلاء يختار السلاطين منهم القضاة و نوابهم و مساعدوهم وشيوخ المدارس والخوانق.

[4]- النويري: نهاية الأرب، ج30، ص93؛ المقريزي: السلوك، ج2، ص229؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص349؛ الذهبي: العبر، ج3،ص 313.

[5]- السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص79.

أما المراكز السياسية العليا في الدولة فقد تم إقصاء العلماء عنها، ولم يسمح لهم بتبوّئها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجيش الذي بقي حكراً على طائفة المماليك، وإن كان لكبار العلماء أحياناً رأي في تعيين أصحاب هذه المراكز، ومنها تعيين السلطان نفسه[1].

أ- دور المرأة في الحركة العلمية

لم تكن المرأة في العصر المملوكي تعيش على هامش الحياة الفكرية والعلمية، كما قد يظن البعض، بل عاشت في صميم هذه الحياة، جنباً إلى جنب مع الرجل، تشاركه في التعلّم والتعليم، وإن لم تكن هذه المشاركة في الحجم عينه، إلا أن التاريخ قد سجّل أسماء كثيرة لسيدات عرفن الشهرة من باب العلم والأدب[2]. فقد ذكر الكثير من كبار الفقهاء أنهم تتلمذوا على أيدي الشهيرات من العالمات المسلمات، وسمعوا من المسندات الراسخات في العلم اللاتي أجزن لهم، وذكروا أسماءهن بفخر في تراجمهم[3]؛ وفي ذلك ما يدل على أن المرأة انتظمت إلى جانب الرجل بحلقات العلم فكانت إما مستمعة[4]، وإما قارئة، وإما مدرّسة. وقد وردت في أمهات الكتب أسماء عدد لا يحصى من العالمات اللاتي نظمن الشعر أو اشتغلن في النحو[5]، أو برعن في الحديث وكنّ ممن يحدِّث[6]، حتى أن بعضهن انفردن برواية الحديث وكنّ أسناداً فيه[7]، أو تمرّسن في الفقه والتفسير فكنّ ممن يفقّه ويجيز[8]. وفي الواقع أن هذه العلوم، كانت العلوم الأكثر تدريساً بواسطة النساء في العصر المملوكي[9]، فسعت كالرجل تماماً وراء العلم و تنقّلت من بلد لآخر[10].

1- السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص77.

2- حطيط، أحمد: قضايا من تارخ المماليك، ص243؛ عاشور، سعيد: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص451.

3- يذكر السخاوي أن آمنة بنت محمد الرشيدي، أجازت له كما أجازت له آمنة بنت موسى بن أحمد. الضوء اللامع، ج12، ص5. ويذكر القلقشندي أن قطلومك بنت ناصر الدين محمد أجازت له، كما أجازت له عائشة بنت عبد الهادي.

4- السخاوي: المصدر السابق، ج12، ص69. ترجمة عائشة بنت الصارم. ذكر السخاوي عن لسان شيخه ابن حجر أنها سمعت مهعم على بعض المشايخ، وأنه سمع منها بدمشق مع أخيها.

5- العسقلاني: الدرر الكامنة، ج4، ص395، ترجمة نضار بنت محمد أبي حيان، المتوفاة سنة 730هـ.

6- السخاوي: المصدر السابق، ج12، ص11، 12، 15.

7- السخاوي: المصدر نفسه، ص116. ترجمة مريم بنت أحمد بن القاضي شمس الدين محمد.

8- يذكر السخاوي أسماء كثيرات أجزن لطلبة العلم، وكان هو واحداً منهم مثل:آمنة ابنة الشمس، وأمة الخالق ابنة الزين عبد اللطيف، ورجب ابنة الشهاب أحمد، وأم هانئ ابنة التقي محمد، وبركة بنت سعد بن أحمد؛ وتتر بنت العز التي أجازت لابن حجر العسقلاني.

9- حطيط، أحمد: قضايا من تارخ المماليك، ص243.

10- المصدر السابق، ص12.ترجمة باي خاتون بنت علي التي حدثت بمصر و بالشام؛ عاشور، سعيد: بحوث ودراسات، ص451.

وبالرغم من قلة المعلومات عن حضور الفتيات الصغيرات دروس الكتاتيب مع الصبيان[1]، إلا أن روايات كثيرة تفيد عن تعلمهن الكتابة[2]، وحضورهن حلقات السماع بسن مبكرة[3] تماماً كالصبية، وكنّ يُجَزْنَ بعمر صغير جداً[4].

والجدير ذكره أن المرأة المملوكية، وإن مارست مهنة التدريس، وقامت أحياناً بإدارة المؤسسة التعليمية، فعيّنت فيها الدروس و المدرسين والطلبة، وتابعت أمور الوقف[5]، إلا أنها لم تتسلم وظيفة التعليم رسمياً في أي من دور التعليم[6]، ولعلها قامت بالتدريس، إما في الجوامع في مقصورات خاصة بالنساء[7]، أو في منازلهن كما جرت العادة.

ولم يعق الزواج والعائلة المرأة المملوكية عن تلقي العلم وتعليمه، بل كان زوجها سنداً ومشجعاً لها، شاركها في السماع وفي حضور الحلقات، حتى أنها حدَّثت وتصدِّرت المجالس بحضوره[8]. ومن السيدات اللاتي اشتهرن في التعليم و وردت أسماؤهن في المصادر :

- آمنة بنت محمد بن عبد الله الرشيدي المحدثة، أخذ عنها كثير من الطلبة وأجازت لهم[9].
- أسماء بنت عبد الله بن أبي بكر الكاتبة، أسمعت على الكمال محمد بن محمد بن النحاس، والشهاب أحمد بن عبد الغالب الماكسيني رواية الآباء عن الأبناء للخطيب بفوت، وأجاز لها في استدعاء ستة و عشرون شيخاً، منهم رسلان الذهبي وأبو بكر بن محمد المزي وغيرهم[10].

[1]- أورد ابن الحاج في مدخله أنه لا يجب على مدرس الكتاب أن يسمح لصبي في المكتب أن يحمل زميلاً له أصغر منه في السن صبياً كان أم فتاة، وشدد كثيراً على منعه في حال كان الصغير فتاتاً. ابن الحاج: المدخل، ج2، ص463.

[2]- السخاوي : الضوء اللامع، ج12، ص3.

[3]- السخاوي: المصدر نفسه، ج12، ص9، ترجمة أمة الخالق بنت الزين عبد اللطيف، وقد أحضرت في الرابعة على الجمال الحنبلي قطعة من سيرة ابن هشام ومسند أحمد بن حنبل وأجازتها عائشة بنت عبد الهادي وآخرون. و زينب بنت أحمد الشهاب، المولودة سنة 799هـ، أحضرت في الخامسة على مجموعة من العلماء، وأجيزت سنة 805هـ بعمر ست سنوات. السخاوي: المصدر نفسه، ص37

[4]- أنظر ترجمة زينب بنت أحمد الشهاب. السخاوي: المصدر نفسه ج12، ص37.

[5]- السخاوي: المصدر نفسه،ج12، ص8، ترجمة ألف بنت القاضي علم الدين.

[6]- حطيط، أحمد: قضايا من تارخ المماليك، ص244.

[7]- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص399-400.

[8]- السخاوي: المصدر السابق، ج12، ص11.

[9]- السخاوي: المصدر نفسه، ج12، ص5.

[10]- السخاوي: الضوء اللامع، ج12، ص7.

- أنس بنت عبد الكريم اللخمي، زوجة ابن حجر العسقلاني صاحب الدرر. أسمعها زوجها من شيخه العراقي، ومن الشرف ابن الكويك، وأجاز لها كثيرون حتى أصبحت تحدِّث بحضور زوجها ومن بعد وفاته[1].

- مريم بنت أحمد بن محمد الأذرعية، التي انفردت برواية حديث الحافظ السلفي[2] بالسماع المتصل، وكانت آخر من حدث عن الواني و الدَّبوسي بالسماع[3].

2- مكانة العلماء في الفكر الإسلامي

قامت الدعوة الإسلامية على حقيقة أساسية واحدة هي التوحيد، ودعت الإنسان إلى معرفة هذه الحقيقة والإقرار بها من خلال التفكير والتأمّل بما في الكون من براهين وأدلّة تثبت وجود الخالق وعظمته، بقوله تعالى:"**قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**"[4]، وبقوله أيضاً:"**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ**"[5]. فالعالمون وحدهم يستطيعون فهم الحقائق وتعليل الأمور واستنباط الأحكام من خلال العلم الذي هو أداة المعرفة[6]، وعنصر من عناصر تكوين الإنسان الذي جعله الله خليفته على الأرض، وبدونه يتجرّد من انسانيته ويبقى كغيره من المخلوقات التي تشاركه الكثير من الخصائص والصفات الأخرى. ولذلك، بدأ الله تعالى خطابه للنبي(ص) من خلال الوحي أن:"**إِقْرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ، إقْرَأْ ورَبُّكَ الأَكرَمُ، اَلّذِي عَلّمَ بالقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعلَمَ**"[7].

ولما كان لابد للعلم من معلّم، بعث الله الأنبياء والرسل ليعلِّموا الناس، ولينشروا رسائله وتشريعاته بينهم، فقال تعالى:"**وإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الذِينَ أُوتُوْا الكِتَابَ لتُبَيّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ**"[8]. ولذلك، اختار الرسول(ص) لنفسه صفة المعلم، فقال(ص):" إنّما بعثت معلِّماً" [9]، وفي حديث آخر قال:" إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً وإنما بعثني معلماً ميسراً"[10].

---

[1]- السخاوي: المصدر نفسه، ج12، ص11.

[2]- هو أبو طاهر بن أبي أحمد السلفي الأصبهاني الجرواني، وكان من كبار علماء الشافعية، فقيهاً لغوياً ومحدثاً مسنداً، وقارئ بالروايات. ولد بأصبهان سنة 472هـ، وقيل 475هـ، وتوفي سنة 576هـ. السبكي: طبقات الشافعية، ج4، ص ص 43-48.

[3]- السخاوي: المصدر السابق، ج12، ص116.

[4]- القرآن الكريم: سورة يونس، آية 101.

[5]- القرآن الكريم: سورة العنكبوت، آية43.

[6]- وأهمها معرفة الله تعالى والتيقن من وجوده. ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص30.

[7]- القرآن الكريم: سورة العلق، الآيات 1-5

[8]- القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآية 187

[9]- حديث ضعيف، رواه ابن ماجة.

[10]- حديث صحيح، رواه مسلم.

ولما كانت البشرية بحاجة دائمة إلى التذكير والتوعية، خصَّ الله تعالى بعضاً من عباده لأن يقوموا بهذه المهمّة الجليلة، وعرَّفهم بأولي العلم، وقرن اسمه باسمهم وبالملائكة تأكيداً على مكانتهم وأهميتهم ونبل رسالتهم، فقال تعالى:"**شَهِدَ اللهُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا هوَ والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط**"[1]، وجعلهم ورثة الأنبياء ودرجتهم تلي درجة النبوة مباشرة[2] وهي خير منزلة.

وتقديراً لهم فقد كافأ الله تعالى العلماء المخلصين الذين يحملون أعباء مهمتهم بأمانة ويصدقون في دعوتهم لله ورسوله، فميّزهم من غيرهم، ورفعهم درجات عن بقية عباده، فقال:"**يَرْفَعُ اللهُ الّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والّذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**"[3]، في حين قال الرسول (ص):" إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في حجرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير"[4].

وفي المقابل، لعن الله العلماء المتلكئين عن الدعوة إليه، والمتقاعسين عن نشر علمهم بين الناس، بقوله:"**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** "[5].

ومن خلال بعض الأحاديث النبوية والآيات القرآنية التي تشير إلى العلوم العقلية وتتحدث عنها إما صراحة كقصص الأنبياء وتاريخ الأمم، وإما تلميحاً كعلوم الفلك[6]، والطب[7]، والهندسة[8]، والجيولوجيا[9]، والتجارة[10] وعلم النفس[11]، وغيرها، نستطيع أن نستدلّ بأن مفهوم العلم في الفكر الإسلامي، لم يقتصر فقط على العلوم الدينية، بل أضاف إليها العلوم الدنيوية بجميع أنواعها، وبالتالي فإن مفهوم كلمة "علماء" في القرآن الكريم توسّع ليشمل أصحاب العلوم الدينية والدنيوية معاً، وإلا فما الجدوى من قوله (ص):" أطلبوا

---

[1]- القرآن الكريم: سورة آل عمران، آية 18.

[2]-" العلماء ورثة الأنبياء". حديث صحيح رواه الترمذي، وأبو داوود، وابن ماجة.

[3]- القرآن الكريم: سورة المجادلة، آية 11.

[4]- رواه الترمذي وأبو داوود وابن ماجة.

[5]- القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 159.

[6]- "**لا الشَّمسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارَ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون**". سورة يس، الآية39.

[7]- "**وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفين**". سورة الشعراء،الآية 80.

[8]- "**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِجَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**". سورة التوبة الآية 109

[9]- "**إذا زُلْزِلَتِ الأَرضُ زِلْزَالَها**". سورة الزلزلة، الآية 1.

[10]- "**فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُم**". القران الكريم: سورة البقرة،الآية16.

[11]- "**إِنَّ اللهَ لا يُحِبُ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورْ**". القرآن الكريم: سورة لقمان، الآية18.

العلم ولو في الصين"؟ فهل كان في الصين علماء دين مسلمين في عهد النبوة؟ وهل كان الرسول (ص) ليطلب من المسلمين أن يتعلموا دينهم من غيره؟ إذن، فالعلم في الفكر الإسلامي في أساسه ديني، لكنه متعدد الفنون بتعدد أنواع علوم العقل التي لابد منها لتطور المجتمعات.

ولكي يقوم العلماء بمهامهم التعليمية على أكمل وجه، وليحصلوا على احترام المسلمين وثقتهم، كان لابد لهم من أن يتخلّقوا بمكارم الأخلاق ويتحلوا بأدب الأنبياء[1]. ولذلك، فقد اهتم الفلاسفة والأدباء المسلمون بالبحث بموضوع آداب العلماء المسلمين، وتوسّعوا فيه في مؤلفاتهم ورسائلهم. وكان من أهم من كتب في هذا الموضوع: الجاحظ (ت202هـ/817م)، الخطيب البغدادي (ت463هـ/1071م)، أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م)، برهان الدين الزرنوجي (ت591هـ/ 1195م)، بدر الدين بن جماعة (ت733هـ /1333م)، وغيرهم.

3-دور العلماء في المجتمع المصري:

الحقيقة أن إبعاد العلماء المصريين عن مراكز الدولة العليا، لم يحفّزهم — وهم أبناء الشعب وأبناء البلد الحقيقيين، وهم الأَوْلى بمناصب الجيش والوزارة والسلطنة- إلى الاعتراض على ذلك لأنهم انشغلوا إلى جانب الشعب بالأعباء الكبيرة والمسؤوليات الجمّة الداخلية والخارجية الملقاة على عاتقهم، والتي كان لها الأولوية المطلقة بالنسبة إليهم على الأمور الأخرى.

فمن جهة، وعلى الصعيد الداخلي، فقد تحمّل علماء مدينة القاهرة مسؤولياتهم تجاه مجتمعهم وكانوا بمثابة قادة شعبيين، اتخذوا لأنفسهم مهمة الدفاع عن مصالح الشعب عند الطبقة الحاكمة وعلى رأسها السلاطين، الذين باتوا يحذرونهم ويحسبون لرأيهم ألف حساب، خاصة وأنهم عرفوا بالصلابة وشدة البأس والثبات على الحق[2].

وأما على الصعيد الاجتماعي الرسمي، كان العلماء يشاركون في كل احتفالات السلطنة الرسمية الدينية، والاجتماعية، والسياسية وغيرها، كالمشاركة في احتفال المحمل[3] (توصيل كسوة الكعبة المشرّفة)، وفي حفلات تتويج السلاطين[4] وجميع مناسباتهم الأخرى السعيدة والحزينة[5].

---

[1]- قال الرسول (ص):" أدبني ربي فأحسن تأديبي ". عن السمعاني في أدب الإملاء والإستملاء، ص1.

[2]- المقريزي: السلوك، ج2، ص292-293.

[3]- المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ص562؛ الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون، ص58-60؛ ماجد، عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك و رسومهم في مصر،ص ص143-149.

[4]- المقريزي: المصدر نفسه، ج2، ص108.

[5]- المقريزي : المصدر نفسه، ج2، ص126.

ومن جهة أخرى، وعلى الصعيد الخارجي، أولى العلماء محاربة الفرنج والمغول الاهتمام الأكبر، وكان لهم الفضل في تحقيق الانتصارات، فكانوا طيلة فترة الحروب الإسلامية-الصليبية والإسلامية- المغولية يشجعون الناس على الجهاد في سبيل الله، يشحذون الهمم ويتقدمون صفوف المجاهدين[1]، ويفكرون في كيفية الدفاع عن الوطن، وكيفية تمويل الجيش المملوكي[2]. وقد وردت في المصادر التاريخية الكثير من الوقائع والقصص التي تبيّن وقوف العلماء إلى جانب السلاطين، يشاركونهم الرأي في سياسة الدولة واستراتيجيتها[3].

4- صفات المدرّسين:

لم يخضع المدرسون المسلمون لنظام أو قوانين تربوية، أو ديوان محاسبة أو تفتيش يحاسبهم على أخطائهم، إذ لم يكن هناك أنظمة تربوية رسمية في الأصل. ولما كان العصر اسلامياً بامتياز، فقدكانت المراقبة والسلطة من التشريع الإسلامي نفسه، الذي اجتهد في تطبيقه أصحاب المدارس والناظرين في أمورها، من خلال كتب الوقف التي كانت بمثابة دفاتر الشروط المطلوب توافرها في العاملين في المدرسة وعلى رأسهم المدرسين. وقد تضمنت هذه الكتب معايير دقيقة وتفصيلية أخلاقية وجسدية وأكاديمية، يتمّ من خلالها اختيار المدرّسين .

(**1**) **الصفات الجسدية**: عرف المسلمون علم السيمياء، وطبقوه في المعايير الشكلية التي قاموا على أساسها باختيار المدرسين، وخاصة مدرسي الكتاتيب. فاعتبروا أنه من المهم أن يكون المدرس حسن الهيئة والقد، لما للشكل من تأثير، يعبر عن انعكاس الروح والقلب، كما لوضوح الجبين وسعة الجبهة وانحسار الشعر عنها[4].

(**2**)**الصفات العقلية**: إن عمق المسؤولية التي تقع على عاتق المدرّسين وحجمها، تستوجب أن يكون هؤلاء راجحي العقل كثيري الوعي والإدراك ليستطيعوا القيام بأعباء مهنة التعليم. فعلى المدرّس أن يكون متمكناً من مادته، عارفاً بأصولها وطرق أعمالها، يعتمد في حلقته على بصيرته وإدراكه، لا على الصحف أو الكتب[5]. ولذلك، من الأجدر به أن يستمر بالمذاكرة والاطّلاع في وقت فراغه، ويحفظ المعلومات ويرسّخها في ذهنه

---

[1]- كالمؤرخ أبو الفدا ووالده اللذين تقدما الجيش المملوكي بقيادة المنصور قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل في محاربة الفرنج والمغول. Maalouf, Amin : Les Croisades Vues Par Les Arabes, P272-277.

[2]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص72-73؛ المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص506-507.

[3]- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص ص104-109.

[4] -حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك،ص240.

[5]- السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص216، ترجمة علي عبد القادر الشريف نور الدين.

فلا يحتاج إلى مدوناته وكراريسه[1]. ولذلك فقد أنكر السلف أن يتصدى للتدريس من لم يأنس في نفسه القدرة على ذلك ولم يكن مستعداً لهذه المهمة وأهلاً لها[2]، إذ كان من أقبح المنكرات أن ينظر المدرس في كراسه ليقرأ على تلامذته، ففي ذلك ما يشجع الجهلة وأنصاف المتعلمين أن يتطلعوا إلى مناصب التدريس[3]، ولهذا قالوا نعوذ بالله من نصف فقيه ونصف طبيب، فإن الأول يفسد الدين والثاني يفسد البدن[4].

وبشكل عام كان يجب أن يكون المدرس على نفس مذهب المدرسة الديني الذي هو مذهب صاحبها، وأن يكون من أهل العلم والصلاح، ضليعاً في علمه متمكناً من مادته، قادراً على تدريسها وشرحها للطلاب، سنيّ الاعتقاد، حافظاً لنقول الفقهاء وأقاويل العلماء واختلاف المذاهب[5].

(**3**) **الصفات الخلقية**: قال رسول الله (ص):"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وفي هذا الحديث توصيف حقيقي لشخصية المدرّس. فالمدرّس ليس من يكتفي بنقل العلم فحسب، بل هو القدوة الحسنة التي يتبعها الطلاب، والشخصية الأكثر تأثيراً عليهم. لذلك، وجب على المعلم أن يكون خلوقاً متطبعاً بالأخلاق الحميدة الإسلامية سواء أكان مؤدب أطفال في مكتب أو مدرساً في مدرسة.

وليستطيع أن يكسب المعلم الآداب الإسلامية، عليه في البداية أن ينوي الخير فالنية أصل الأعمال وقد قال (ص):" إنما الأعمال بالنّيات ولكل امرىء ما نوى"، فإن حسنت النية حسنت الأعمال وإذا ساءت وقع الإنسان في المحظور[6].

وبعد النية، يجب على العالم العمل بعلمه فلا يخالف عمله قوله فيكون كما وصفه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عليم اللسان جاهل القلب، فيقع في النفاق[7]، وقد قال الله تعالى:"**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**"[8].

---

[1]- يقول ابن حزم الأندلسي، لا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به، والكتب نعم الخازن له إذا طلب ولولا الكتب لضاعت العلوم. ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ج2، ص77.

[2]- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم،ص39؛ ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص80؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman,P39

[3]-كان السراج البلقيني أشهر من حفظ الفقه سرداً من أول أبوابه إلى آخرها لاتخفى عليه منه كبيرة أو صغيرة، ومع ذلك كان لا يحب إلقاء درسه إلا بعد المطالعة. السخاوي: المصدر السابق، ج6، ص80.

[4]- طاش كبر زادة: مفتاح السعادة،ج1،ص48-49، ج3،ص21.

[5]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج11، ص89.

[6]- ابن الحاج: المدخل،ج1، ص49؛ ابن جماعة: تذكرة السامع، ص54 ؛ البغدادي: الجامع، ص ص 18-21.

[7]- ابن الحاج: المصدر نفسه، ج1، ص50؛ الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1، ص60،58؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة،ج1، ص ص44-46؛ البغدادي: المصدر نفسه، ص ص 15-17؛ ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص100.

[8]- القرآن الكريم: سورة النساء، الآية145.

ولعلّ من أهم صفات العالم الحق أن لا ينطق إلا بالحق، وأن يبتعد عن الشبهات وأن يأخذ نفسه بالحلم والوقار، وأن يتواضع لمن هم دونه فلا يتكبر ولا يتعجرف كما لا يتذلل أو يتزلف لمن هم أعلى منه بالمقام والعلم. ومن الجيد له أن يبتعد عن الجدال ويكون ممن يؤمن شره ويرجى خيره، وأن يصدق القول ويعامل الناس بالحسنى، وأن يبتعد عن رذائل الأخلاق ويطهر نفسه من عيوب النفس وقد قيل في السلف : احذروا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاسق[1].

5- تعيين المدرِّسين

لقد هيأت المدارس فرصاً كبيرة وقدّمت تسهيلات كثيرة للمعلّمين والمتعلّمين على السواء، فانجذب إليها العدد الأكبر من المدرسين والطلبة مما قللّ الإقبال على الدور التعليمية الأخرى، وإن استمرت هذه الدور محتفظة بطابعها العلمي وتقوم بواجبها التقليدي في التعليم[2].

وكان السلطان يعيّن كبار المدرّسين في عامّة العلوم بالدور العلمية المهمّة مثل المدرسة الصلاحية بالقرافة، والزاوية الخشابية بالجامع العتيق بمصر، والمدرسة المنصورية، والقبة البيبرسية وغيرها[3]. وكان هذا التعيين يتم في حفل افتتاح المدرسة، فيسميهم السلطان من ضمن الحضور، بموجب كتاب تعيين يصفهم بسعة العلم، والاضطلاع بالعلوم والحذق فيها، وطول الباع في البحث والمناظرة والوقوف مع الحق[4]. كما يتضمن هذا الكتاب توصية تدعو المدرّس إلى الترفق بالطلاب وتأديبهم، وتفسير المسائل الصعبة لهم وعدم الترفع عليهم، وأن يستقبلهم بطلاقة وجه وأن يستميلهم إليه استمالة الوالد لولده، ويشجعهم على العلم وينزل كل واحد منهم في منزلته[5].

وعادة ما كان فحوى الوصية يختلف باختلاف موضوعاتها من تدريس التفسير، أو الحديث، أو الفقه، أو غير ذلك[6]، كما يختلف أسلوب التكليف وتعابيره بحسب رتبة العالم المكلَّف سواء أكان صدراً[7] أو

---

[1]- الغزالي: المصدر السابق،ج1،ص45- 48؛ ابن الحاج: المصدر السابق، ج3، ص34-59. ابن جماعة: المصدر السابق، ص92-35؛ طاش كبرى زادة: المصدر السابق، ج1،ص58-65.

[2]- شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص43. Berkey, Jonathan: Modes De Transmission de La Culture Religieuse En Islam, P95

[3]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج9، ص258-259.

[4]- القلقشندي: صبح الأعشى،ج11، ص89.

[5]- القلقشندي: المصدر نفسه، ج11،ص97؛ ص243؛ النويري: نهاية الأرب، ج32، ص46.

[6]- القلقشندي: المصدرنفسه، ج11،ص243.

[7]- القلقشندي: المصدرنفسه، ج11، ص247.

عالماً[1] في مدرسة كبرى أو مدرّساً عادياً في مدرسة صغيرة أو مكتب[2]. وفيما يلي، نسخة تفويض بتدريس المدرسة الصلاحية لقاضي القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز، كتبه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، جاء فيه بعد الحمد لله والشهادتين والثناء والصلاة على الرسول وعلى الإمام الشافعي، ومدح القاضي المكلّف بما هو أهل له:"...فرسم بالآمر الشريف العالي المولوي، السلطاني،...أن يفوّض إليه تدريس المدرسة الصلاحية الناصرية المجاورة للإمام الشافعي بالقرافة، فليذكر من الدروس ما يبهج الأسماع، ويرضي الانتجاع، ويجاد له الانتفاع، ويحتلبه من أخلاف الفوائد ارتضاء الارتضاع، ويتناقل الرواة فوائده إلى علماء كل أفق من البقاع، وليقل فإن الأسماع لفوائده منصتة، والأصوات لمباحثه خاشعة، والقلوب لمهابته مخبتة، ولينهض قوي المسائل بما يحصل لها أعظم انتعاش وليمت ما أماته إمامه من البدع...وليسمع بعلومه من به من الجهل صمم..."[3].

وفي العادة كان صاحب الوقف يعيّن المدرسين في مدرسته، فيسمي لكل مادة مدرّساً واحداً أو أكثر[4]، وإذا كان المدرّس يجمع بيده عدة مناصب، حق له أن يتشارك منصبه مع مدرّس آخر يثق به ويكون على قدر المسؤولية، يتقاسم معه الراتب الشهري[5]. وكان المدرّس يستمر في التدريس حتى وفاته[6]، فيتم تعيين مدرّساً آخر أو مدرّسين آخرين مكانه[7]، بموجب كتاب من السلطان يدعوه إلى "...التدريس في المدرسة الفلانية على عادة من تقدمه وقاعدته..."[8]. وفي بعض الأحيان، إذا كبر الشيخ وشعر بدنو أجله[9]، قد يتنازل بمحض إرادته عن منصبه لشيخ آخر[10] ممن يجد فيه الكفاءة[11]، خاصة إذا كان ولده، شرط موافقة

1- القلقشندي: المصدرنفسه، ج11، ص227-231.

2- القلقشندي: المصدر نفسه، ج11، ص124.

3- القلقشندي: المصدرنفسه، ج11، ص ص227-231.

4- قد يصل عدد المدرسين للمادة الواحدة إلى الخمسة، يتناوبون على تدريسها وفق برنامج معين فيكون لكل واحد منهم يوم تدريس.
Pederson, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1129

5- Pederson, J : Ibid, P1127

6- كالمدرسة الصاحبية البهائية حيث تولى التدريس فيها الصاحب فخر الدين حتى توفي، ثم استلم التدريس فيها ولده محي الدين، وبعد وفاته درس بها ولده الصاحب شرف الدين. ابن دقماق: الانتصار، ص95؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص212.

7- المقريزي: السلوك، ج4، ص249؛ ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص204.

8- القلقشندي: صبح الأعشى، ج11، ص124.

9- استمر كثير من كبار العلماء في التدريس حتى بلغوا سناً كبيرة مثل ابن حجر العسقلاني، والبدر العيني، والسراج البلقيني الذي عمر حتى انفرد ولم يبق من يزاحمه. السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص80.

10- خاصة إذا كان درسه درس حديث، فقد جرت العادة عند الكبر في السن أن لا يحدث الرجل مخافة الوقوع في النسيان أو الخطأ. البغدادي: الجامع لآداب الراوي، ص434.

11- عندما مرض الشيخ عز الدين ابن عبد السلام، أرسل إليه السلطان بأن يعيّن مناصبه لمن يريد من أولاده، فرفض الشيخ وقال بأنه ليس فيهم من يصلح لها، وفوّض التدريس بالمدرسة الصالحية للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز. الكتبي:فوات الوفيات،ج2، ص351.

قاضي قضاة المذهب المختص[1]. فعلى سبيل المثال، تنازل قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة عن منصبه في التدريس في زاويته بجامع مصر، لولده القاضي عز الدين، في جمادى الآخرة من سنة 730هـ/1330م. ومما جاء في كتاب التعيين، بعد الحمد والصلاة على سيّد المرسلين (ص)، وفيض الأوصاف الجليلة والصفات المحمودة التي تمتع بها القاضي عز الدين، "...فآثَرَ النزول له عما باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصر المحروسة ليقوم مقامه، ويقرر فوائده وينشر أعلامه ... فلذلك، رسم بالآمر الشريف ... أن يرتّب في هذا التدريس عوضاً عن والده ... ونحن نوصيك أيها العالم — وفقك الله- بالمذاكرة للعلم فإنك لا تكاثر العلماء إلا بمدده، والعمل بتقوى الله تعالى ..فاعمل في إفادة الطلبة ..."[2]. وفي حالات أخرى، كان الشيخ يتنازل عن منصبه التعليمي لصالح مدرس آخر مقابل المال. وقد وردت في هذا المعنى أمثلة عديدة في أمهات الكتب[3].

وكان في بعض الأحيان، يختار الشيخ رفيقاً له يشاركه في إلقاء الدرس في الحلقة عن طيب خاطر منه، فيذكر السخاوي مثلاً أن الشيخ أبو الحسن الهيثمي[4]، قلّ أن يحدث بشيء إلا ورفيقه الزين العراقي معه[5]. كما في أحيان أخرى، قد يغتنم أحد المشايخ فرصة وجود أحد الشايخ المعروفين في زيارة للقاهرة فيقوم باستضافته في حلقته[6].

6- أعمار المدرّسين

لم تكن السن مرعيّة في إطار تعيين المدرّسين، بقدر ما كانت تراعى الكفاءة العلمية والأخلاق والسمعة الحسنة. والواقع أننا إذا تتبعنا أعمار الطلاب في كل مرحلة تعليمية، نجد أن الطالب كان ينهي مرحلة الكتّاب وهو في سن الاحتلام، أي بسن الخمس عشرة سنة. وبعد ذلك، يلتحق بالجامع أو المدرسة، حيث يبدأ بمرحلة التعليم العالي التي تمتد على حوالى أربع أو خمس سنوات متواصلة في الحالة الطبيعية[7]، فيكون الطالب قد بلغ العشرين سنة. ولما كان على المتخرج حديثاً أن يلازم أستاذه بصفة معيد مدة طويلة قد تبلغ العشرين سنة، فإنه يكون في سن الأربعين حين يصبح بدوره مدرّساً[8]. ومما يؤكد أن الطالب يبقى

---

[1]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص239.

[2]- القلقشندي: المصدر السابق، ج11، ص223-225.

[3]- السخاوي: المصدر السابق، ج5، ص205.

[4]- هو نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صلح.

[5]- السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص180.

[6]- السخاوي: المصدر نفسه، ج3، ص243.

[7]- تنقسم هذه المرحلة إلى قسمين، القسم الأول يوازي الأول مرحلة التعليم الثانوي، والقسم الثاني يوازي مرحلة التعليم الجامعي. راجع مراحل التعليم في العصر المملوكي في الفصل الأول.

[8]- Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P 1120

طالباً حتى سن الأربعين تقريباً، وصف السخاوي لحسن بن محمد العيثاوي، بأنه أحد مشاهير الطلبة وقد جاوز الثلاثين من عمره[1]. ولكن تبقى بعض الحالات الاستثنائية حيث نجد الكثير من العلماء الأفذاذ الذين بدأوا بالتعليم في عمر مبكر جداً مثل، أبا أمامة عبد الرحمن بن محمد الذي ولّي دروس أبيه وهو ما زال صغيرا، بحسب قول السخاوي، إضافة إلى خطابة جامع ابن طولون[2]، والسراج البلقيني الذي أجاز له أكابر العلماء بالتدريس وهو يناهز سن الاحتلام[3]، في حين أنه أجاز تلميذه القلقشندي بالفتيا والتدريس وكان عمره كما يذكر القلقشندي نفسه إحدى وعشرين سنة[4]. أما الحافظ السلفي، فيقول إنه حدّث وهو ابن سبع عشرة سنة ولم يكن في وجهه شعرة[5]، كما بدأ العلامة ابن الوكيل بالتدريس والإفتاء في مدينة القاهرة وكان عمره اثنتان وعشرين سنة، وكان يدرّس الفقه والتفسير والنحو والطب[6].

7- رواتب المدرسين

لم يكن التعليم في بداية العصر الإسلامي عملاً مأجوراً يقصد منه الربح، بل كان عملاً يقصد منه وجه الله تعالى ومحبة فيه وقربة إليه، من خلال نشر تعاليمه وشريعته بين الناس[7]. فمن واجب المدرّس أن لا يمنّن أحداً ولا يطلب مالاً أو شكراً مقابل تعليمه، لأن أجره وثوابه على الله تعالى بحسب الآية الكريمة:" **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**"[8]، ولكن قد يقبل المدرّس المال و الأعطيات من الكرماء والأثرياء من المسلمين. ولما أصبح التعليم مهنة تتطلب التفرغ، ولما كان لابد للمتفرغ لتعليم الناس أمور دينهم من مدخول يصرف منه على نفسه وعلى عائلته ويحفظ به ماء وجهه، حق له أن يأخذ نصيبه من بيت المال، شرط أن يأخذ قدر حاجته وحاجة أهله[9].

---

[1]- السخاوي: المصدر السابق، ج3، ص116.

[2]- السخاوي: المصدر نفسه،ج4، ص126.

[3]- السخاوي: المصدر نفسه، ج4 ص278؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص344.

[4]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص365.

[5]- السبكي: طبقات، ج4، ص43.

[6]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص166.

[7]- الغزالي:إحياء علوم الدين،ج1،ص 56؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة،ج1،ص 35-37؛ البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي، ص ص195-198؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامي، ص233.

[8]- القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآية 109

[9]- طاش كبرى زادة: المصدر السابق،ج1،ص 56؛ البغدادي: المصدر السابق، ص ص 192-201؛ Pedersen, J : Article Madrassa, EI2 ,T5, P1128

ولما انتشر التعليم في الدولة الإسلامية، وأصبح حجم الصرف عليه أكبر من قدرة بيت المال على تغطيته، خاصة في فترات الحروب الصليبية التي استوجبت الالتفات إلى تسليح الجيش الإسلامي وجعله من أولى أولويات الدولة الإسلامية، كان لابد للحركة العلمية الناضجة حينذاك، أن تجد معيلاً يكفل لها نموّها وتطوّرها المستمر، ويحفظ لها انجازاتها. وبما أن نشر العلم يعتبر من أعمال الخير والبر، أخذ أثرياء المسلمين وأصحاب المناصب والسلطة على عاتقهم كفالة هذه الحركة، معتبرين أن الله لا يضيع مثقال ذرة خير.

(**1**) **معلمو الكتَّاب**: انشغل معلمو الكتاّب بتحفيظ الأولاد القرآن الكريم والحديث النبوي، بهدف كسب الثواب والرضى من الله تعالى بالدرجة الأولى. أما رواتبهم المالية، فكانت تتأثر بشكل كبير بنوع الكتّاب، وحجم ريع الوقف المخصص له. فإن كان الكتّاب خاصاً، وواقفه ثرياً (سلطان أو ما شابه) وخصص له وقفاً كبيراً، كان المعلم يحصل على راتب جيد عدا عن المأكل والملبس والتقديمات العينية الأخرى. فمثلاً في مكتب الأيتام التابع للمدرسة المنصورية، عيّن السلطان المنصور قلاوون الألفي فقيهان يعلّمان أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وخصّص لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهماً، إضافة إلى ثلاثة أرطال من الخبز يومياً، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف[1]، كما عيّن الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير في الجامع الحاكم ملقنين لتلقين القرآن للأيتام لكل منهما ثلاثين درهماً[2].

أما إذا كان الكتّاب عاماً وريعه متواضعاً، فإن وضع المدرّسين فيه يميل نحو الفقر إجمالاً، ومعظم مؤدبيه يعلمون الأولاد احتساباً[3]، من هؤلاء المدرسين على سبيل المثال سلامة بن محمد الأدكاوي الصوفي المالكي الذي أقرأ الأولاد لوجه الله[4]، أو يعتمدون على ما يجود به أهل الطلبة من المال وغيره[5]. وكان الأهل يدفعون للمعلمين أجورهم على مرحلتين؛ في المرحلة الأولى، كان ولي أمر التلميذ يدفع للمدرِّس أسبوعياً أو شهرياً، مبلغاً صغيراً من المال. أما المرحلة الثانية فتبدأ عندما يحفظ الصبي كلاً من سورة البقرة وسورة يونس، عندها يدفع الأب للمدرس مبلغاً من المال عند الانتهاء من كل سورة، وكذلك عند حفظ سورة الملك من

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج2، ص177؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص75.

[2]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص58-60.

[3]- السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص122؛ ج3، ص229.

[4]- السخاوي: المصدر نفسه، ج3، ص228.

[5]- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص241.

جزء "تبارك". وعند انتهاء الصبي من حفظ القرآن كاملاً، يدفع الأهل للمعلم مبلغاً آخركعربون شكر وتقدير للانجاز المهم الذي حققه الصبي[1].

(2) **مدرسو الجوامع**: تفاوتت حال المدرِّسين في الجوامع بحسب ما إذا كانت الدروس تعطى فيها بتكليف من الدولة أو من أحد الأمراء أو الأغنياء، أم تعطى احتساباً لوجه الله. وفي الحالة الأولى، كان صاحب التكليف يعطي المدرّس أجره ، وفي حين أن دروس الجامع العتيق كانت تعطى لوجه الله، كانت دروس الجامع الأزهر تصرف فيها الرواتب والأرزاق من الوقف المخصص له وبالتالي، نستطيع أن نستنتج أن حالة مدرسي الجوامع الاجتماعية شابهت كثيراً حالة معلمي الكتاتيب[2].

وعندما جدد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمي، أطلق فيه دروساً في الفقه على المذاهب الأربعة، يتقاضى عنها كل فقيه مئة وثلاثين درهماً، وعيّن لكل فقيه معيدين يساعدانه، براتب شهري لكل منهما خمسين درهماً. كما أطلق فيه درس حديث، عيّن له مدرساً ومعيدين لكل منهم ما يتقاضاه نظيره في دروس الفقه، وميعاداً للعامة، يتقاضى شيخه مئة وثلاثين درهماً، ومتصدّريْن يقرآن القرآن الكريم، لكل منهما ستون درهماً. أما درس العلوم العقلية، فكان يقوم به مدرِّسان، لكل منهما ستون درهماً، وثلاثين درهماً لمدرّسيْن يقومان بتدريس علوم اللغة والنحو[3].

وفي جامع ابن طولون سنة 767هـ/ 1366م، عيّن الأمير يلبغا العمري سبعة مدرّسين للفقه الحنفي، وخصص لكل واحد منهم أربعين درهماً في الشهر[4]. أما جامع المشهد النفيسي الذي أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 714هـ/1314م، فقد كان مصروفه من حاصل المشهد ومن النذور والأعطيات[5]. وكان بعض المشايخ يدرِّسون مجاناً لوجه الله تعالى، كالشيخ الزاهد علي بن أحمد بن أبي بكر الذي كان يدرّس الفقه في الجامع الأزهر احتساباً[6]. أما جامع الطباخ، فلم يكن له وقف ككثير من الجوامع،

---

[1]- ابن الحاج: المدخل، ج2، ص471؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص340-341.

[2]- حوري، حسين: المسجد ودوره في الإسلام، ص116.

[3]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص58-60.

[4]- المقريزي: الخطط، ج4، ص44.

[5]- المقريزي: المصدر نفسه، ج4، ص106.

[6]- السخاوي: الضوء اللامع، ج5، ص147.

ولذلك لم يكن فيه دروس[1]، في حين أن جامع شيخون قد شهد درساً للفقه الحنفي وآخر للفقه المالكي، وكان كل مدرِّس يتقاضى ثلاثمائة درهم شهرياً[2].

(3) **مدرّسو المدارس**: كانت رواتب المدرّسين في المدارس المملوكية تحدد في كتاب الوقف، وتدفع شهرياً[3]سلفاً ومشاهرة، عيناً وغلّةً معاً. فمعظم المدارس كانت تمنح مدرّسيها إضافة إلى رواتبهم الشهرية، مواد غذائية كالسكر والزيت والطعام المطبوخ وراويات المياه، ومقادير اللحم، والتوابل، والخبز، والشمع وكسوات الشتاء والصيف والعيدين وأشياء أخرى كثيرة[4]. وكانت هذه الأعطيات تُقَرّ لكل مدرّس بحسب طبقته ومستواه العلمي، وبحسب مدخول المدرسة من الوقف. فعلى سبيل المثال، فقد ذكر ابن دقماق أن وقف المدرسة المرزوقية كان يسيراً و"...كان الفقيه علم الدين السّمنودي يحضرها بطلبته المشتغلين عليه ويأخذ لهم فيها الدرس احتساباً..."[5]، أما مدرّسي المدرسة الطيبرسية فكان كل واحد منهم يتقاضى ستين درهماً، والمعيد أربعين درهماً[6]، في حين أطلق المنصور قلاوون، في المدرسة المنصورية دروساً فقهية للمذاهب الأربعة، وعيّن لكل مذهب مدرّساً له في الشهر مائتي درهم، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة وسبعين درهماً[7].

وفي حال كان العالم يتولى عدة مسؤوليات بالإضافة إلى التعليم، فقد كان أمر تحديد راتبه يعود إلى السلطان الذي قد يرى أن يكون له معلوماً عن كل مسؤولية يتحملها، أو أن يلزمه بتحمل مسؤولياته الإضافية مجاناً، ويكتفي بالراتب الذي يتقاضاه عن التعليم فقط[8]. وفي سنة 682هـ/1283-1284م، أسند المنصور قلاوون النظر والتدريس في المدرسة الناصرية الصلاحية المجاورة لقبة الإمام الشافعي، إلى الصاحب برهان الدين السنجاري بالجامكية (المرتب الشهري) والجراية والرسم (المستحقات العينية) الشاهد به كتاب الوقف، وهو عن التدريس في كل شهر أربعون ديناراً معاملة صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث الدرهم، وعن النظر عشرة دنانير والجراية في كل يوم من الخبز ستون رطلاً بالرطل المصري وراويتان من الماء[9].

---

[1]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص121.

[2]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج10، ص209.

[3]- السخاوي : المصدر السابق، ج3، ص10.

[4]- انظر المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص ص 200- 265؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية،ص ص 243- 253.

- ابن دقماق: الإنتصار، ج4،ص94.[5]

[6]- المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص209؛ ابن دقماق: المصدر نفسه،ج2، ص96.

[7]- المقريزي: السلوك، ج2، ص177؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص74.

[8]- في سنة 680هـ، أصدر السلطان مرسوماً بتعيين القاضي تقي الدين ابن بنت الأعزبالمدرسة الصالحية والتربة الصالحية عوضاً عن أخيه مضافاً لما بيده من نظر الخزائن، ويكتفي براتب المدرسة والتربة، من دون بدل النظر في الخزائن. المقريزي: المصدر نفسه، ص141.

[9]- المقريزي: الخطط، ج4، ص259؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص225؛ النويري: المصدر السابق،ج32، ص63.

ويبدو أن بعض أصحاب المدارس تركوا لناظر الوقف فيها حرية تحديد رواتب المعيدين والطلبة والموظفين من ضمن ميزانية محددة، كلٌ حسب موقعه وأهميته. فالناصر محمد بن قلاوون، ترك للناظر الطواشي شجاع الدين عنبر اللالا، ناظر المدرسة الناصرية الجديدة، أن يصرف "... لكل واحد من المدرسين ولمعيديه وطلبته، والداعي عنده والنقيب، في كل شهر من شهور الأهلة ألف درهم نقرة، من ذلك ما يختص به المدرس عن التدريس مائتا درهم، والمعيدين والطلبة والداعي والنقيب ما يراه من التسوية والفضيل[1]، فجعل للمعيد في كل شهر ثلاثين درهماً، وترك للطلبة والداعي والنقيب ما مجموعه مائتان وسبعون درهما[2].

(4) **مدرسو الخوانق والقبب**:لم تختلف أوضاع الخوانق والقبب، عن غيرها من دور العلم الأخرى، فهي أيضاً كانت مرهونة لمردود الوقف المخصص لها، والذي كان يصرف منه على المدرسين وغيرهم. فعلى سبيل المثال، كان مرتب القاضي علاء الدين علي مدرس الخانقاه العلائية ما مجموعه مئة درهم، ستون منها عن المشيخة والتدريس، وأربعون ثمن لحم وخبز[3]، كما كان شيخ خانقاه الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، يتقاضى شهرياً مئة درهم عن المشيخة وخمسين عن الإمامة [4]. أما في قبة المدرسة الناصرية الجديدة، فكان مدرّس الحديث يتقاضى ثلاثين درهماً[5]. في حين أن المرتّب الشهري لمدرّسي القبة المنصورية كان وافراً وفيه غنية لهم[6]، فقد شهدت هذه القبة درس تفسير لكتاب الله، يقوم به مدرّس ومعيد، يتقاضى المدرّس مئة وثلاثة وثلاثين درهماً، ويتقاضى المعيد أربعين درهماً. كما شهدت درس حديث، يتقاضى مدرّسه ما يتقاضاه زميله في درس التفسير، يساعده قارئ يقرأ الحديث بين يديه في أوقات الدرس، ويقرأ ميعاداً للعوام صبيحة كل أربعاء، يتقاضى ثلاثين درهماً. أما المعيد في هذا الدرس فكان يتقاضى ما يتقاضاه زميله في درس التفسير[7].

يتبيّن مما سبق، أن رواتب المدرّسين من مشايخ وفقهاء، كانت تختلف باختلاف المواد التي يدرّسونها، على أن أعلى مرتّب كان يتقاضاه مدرّس الفقه، الذي عادة ما كانت تسند إليه نظارة الوقف، براتب مستقل عن راتب التدريس، يليه راتب المعيد، يليه راتب مدرس الحديث الشريف. أما راتب الإمام

[1]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص47.
[2]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص51.
[3]- النويري: نهاية الأرب، ج33، ص230:
[4]- النويري: المصدر نفسه، ج32،ص154.
[5]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص44.
[6]- المقريزي: الخطط، ج4،ص 227.
[7]- النويري: المصدر السابق،ج31، ص73.

فقد بلغ في ذلك الوقت ثمانين درهماً، في حين أن راتب مقرئ القرآن الكريم بلغ الأربعين درهماً، وأقلّ راتب شهري كان يتقاضاه مؤدّب الأيتام.

هذا في كتب الأوقاف، ولكن في الواقع نجد أن هذه الرواتب غالباً ما كانت تتعرض مع الوقت للإنقاص والتلاعب فلا تعطى كما حددها الواقف في كتاب الوقف، بل يعود ذلك إلى ضمير المسؤول عن الوقف والناظر فيه. فمنذ قيامها، كان راتب المدرّس في "المدرسة الناصرية الصلاحية"[1] حسب كتاب الوقف أربعين ديناراً معاملة صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم، وعن النظر عشرة دنانير، واستمر الحال على ذلك إلى سنة 678هـ/1279م، حين استلم التدريس فيها قاضي القضاة تقي الدين بن رزين بعد عزله من القضاء بنصف المعلوم، ثم انتقل بعد وفاته إلى قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم، وبقي الأمر على ذلك إلى أن تعيّن للتدريس فيها الصاحب برهان الدين السنجاري بالراتب المعيّن في كتاب الوقف[2].

وفي ملاحظة أخرى، نجد أن رواتب المدرسين، كان يقتطع منها سنوياً رواتب أشهر العطلة، وهي غالباً كانت ثلاثة شهور وهي رجب، وشعبان، ورمضان، إضافة إلى عشرة أيام من شهر ذي الحجة. وهذا التدبير اتخذه الطواشي شجاع الدين عنبر اللالا في المدرسة الناصرية الجديدة[3].

8- واجبات المدرّس تجاه المتعلم وتجاه نفسه

كان المدرّس يرتبط مع طلابه بعلاقة روحية متينة جداً تكاد تكون مثل علاقة الأب بابنه أو أكثر[4]، عملاً بقول الرسول (ص):"إنما أنا لكم مثل الوالد لولده". ولذلك، كان على المدرّس المسلم واجبات كثيرة تجاه طلابه، كما كانت له عليهم حقوق مفروضة. وقد فصّل المفكرون المسلمون هذه الحقوق والواجبات التي اتخذت طابعاً أخلاقياً ودينياً، وحرص الجميع على التقيّد بها واعتبروها من صلب العملية التربوية، بل أساسها.

(1) واجبات العالم تجاه المتعلم: ومن أهمها:

1- بناها الناصر صلاح الدين الأيوبي في القرافة بجوار مقام الإمام الشافعي المقريزي: المصدر السابق، ج4،ص259؛ السيوطي:حسن المحاضرة، ج2، ص224 -225.

2- المقريزي: الخطط، ج4، ص260؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص225؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص63.

3- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص51.

4- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص137؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman, P29- 30 ; Pedersen, J : Article Madrassa, EI2 ,T5, P1129

– تعليم من يطلب العلم من الناس والطلبة فلا يبخل به على أحد، خاصة لمن يطلبه لوجه الله تعالى وللإفادة، وليس للمباهاة أو سعياً وراء الشهرة والسلطة[1].

– أن يرغّب طلبته بتحصيل العلم، لاسيّما الصغار منهم، وأن يذكّرهم بفوائده وفضائله ومكانة أهله، ويزيل عنهم اليأس الذي قد يتملكهم ويصرف عنهم الهموم التي قد تشغلهم عن التركيز[2]، فذلك ينير قلبهم ويشد عزمهم ويهديهم سواء السبيل[3].

– أن يكظم غيظه عند التعليم فلا يقسو ويشتد فيموت قلبه، ولا يضحك أو يمزح فتسقط هيبته، ولا يحمله طلابه على محمل الجد. بل عليه أن يكون حليماً وقوراً متواضعاً، صائناً نفسه من الأخطاء[4].

– أن يحسن تأديبهم بلطف فلا يعنفهم ولا يجرّحهم، فذلك قد ينفّرهم من المعلم ومن العلم[5]، عملاً بقول الله تعالى:"**لَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**"[6].

– أن يتودد لهم ويقرّبهم منه ويظهر لهم محبته واعتناءه بالجميع على نفس القدر ويتابع أخبارهم وأمورهم[7]، وإذا غاب أحدهم، فمن واجب المدرس أن يسأل عنه ويطمئن لصحته وصحة أهله ويساعده عند الحاجة[8].

– أن يتواضع أمام طلابه ويسعى في أمورهم ويخاطبهم بوجه بشوش كما أوصى الرسول (ص) حين قال:" إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون على الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً "[9].

– أن يعطي طلابه على قدر استيعابهم، فلا يطرح عليهم المسائل الصعبة، خاصة إذا كانوا من المبتدئين، بل عليه أن يبسّط لهم المعلومات على قدر عقولهم، خاصة إذا كانوا حريصين على التعلم والاستفادة[10]. كما

---

[1]– ابن مسكويه: المصدر نفسه، ص149؛ ابن جماعة: تذكرة السامع،ص54؛ الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1،ص56-57؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ،ج1، ص38؛ البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي ص 197-201؛ Chamberlain, Michael: Ibid, PP51-54

[2]– عن تميم الداري قال:" قال رسول الله (ص)" إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال:" لله وكتابه ورسوله وأئمة المؤمنين وعامتهم ".رواه أبو داوود.

[3]– القلقشندي: صبح الأعشى،ج1،ص248-249؛ ابن جماعة: المصدر السابق،ص55، 149؛ النويري: المصدر السابق،ج1،ص 41.

[4]– القلقشندي: صبح الأعشى ج1،ص41؛ ابن جماعة: آداب العالم، ص48؛ البغدادي: الجامع، ص222.

[5]– ابن جماعة: المصدر نفسه، ص56؛ القلقشندي: المصدر نفسه، ج1،ص39؛ الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1،ص57.

[6]– القرآن الكريم: سورة آل عمران، الاية159.

[7]– ابن جماعة: المصدر السابق،ص64؛ البغدادي: المصدر السابق، ص ص 186-191.

[8]–كان بعض المدرسين يساعدون طلابهم الفقراء فيمدونهم بالمال مقابل أن يتفرغوا للعلم. السخاوي: الضوء اللامع، ج3،ص16.

[9]– ابن جماعة: المصدر السابق،ص65-70.

[10]– ابن جماعة: المصدر نفسه،ص57؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة،ج1،ص39؛. الغزالي: المصدر السابق، ج1،ص57.

عليه التدرج في الدروس من الأسهل إلى الأصعب، ومن الواضح إلى الخفي، دون أن يسمح لهم بالتصدي لعلوم ليست على قدر مداركهم، أو أن ينصرفوا لعلم قبل أن يتموا ما هم بصدده، والعكس صحيح إذا كان الطلاب من المتعمقين فلا يطرح عليهم الواضحات، بل يخوض معهم أعماق الفقه[1]. وإذا ما أحس أن التعب والملل قد بدأ يتسرب إليهم، عليه أن يترفق بهم وأن يأمرهم بالراحة وتخفيف الأشغال والترويح عن النفس[2].

(2) **واجبات العالم تجاه نفسه:** بالإضافة إلى واجبات المدرّس تجاه طلابه، فقد وضع العلماء نقاطاً أساسية تحت بند واجبات المعلم تجاه نفسه، أختصرها بالنقاط التالية:

– إظهار الخشية والوقار والخضوع لله تعالى والزهد بالدنيا وتفادي فتنتها ومرارتها، والانشغال عنها بما هو أجدر به وأنفع له ألا وهو الآخرة ونعيمها[3].

– أن يقصد وجه الله تعالى في تعليم الطلاب وتهذيبهم، وإرشادهم إلى الحق، ونشر العلم ومحاربة الفساد، لا أن يكون قصده الشهرة بين الناس[4].

– أن يقتصر على ما يتقنه من العلوم فلا يخوض فيما لا يعرف فيقع في مسائل غريبة من الفتاوى والمعاني[5]، أما إذا سئل عن مسألة يشك فيها أولا يستطيع شرحها أو الفتيا فيها فالواجب عليه أن لا يجاوب أو أن يقول لا أعلمه أو لا أدري وقد قيل لا أدري نصف العلم[6]. فبرأي العلماء المسلمين كلمة "لا أدري" لا تحط من مقدار العالم ولا تعيبه، بل على العكس هي تصنفه عن الجهلة، لأن الجهلة وحدهم الذين يأنفون عن قول كلمة "لا أدري" وهم وحدهم الذين لا يعترفون بجهلهم[7].

– أن يبتعد عن محدثات الأمور وإن أتفق عليها الجمهور، وأن يترك البدع والابتعاد عنها، وترك أعمال الأوقاف وأموال الأيتام ومخالطة السلاطين وأصحاب المال والمناصب[8]، وتولي أعمال التصنيف والمناظرة والتدريس والولاية والقضاء فذلك خير له.

---

[1]– ابن جماعة: المصدر نفسه، ص58؛ طاش كبرى زادة: المصدر نفسه، ج1،ص48؛ الغزالي المصدر نفسه، ج1، ص58.

[2]– ابن جماعة: المصدرنفسه، ص 60-61.

[3]– الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1،ص60؛ ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص75؛ ابن جماعة: تذكرة السامع،ص25-26؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman ,P P 46-47

[4]– ابن جماعة المصدر نفسه،ص56؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ،ج1،ص35-36؛ الغزالي: المصدر نفسه،ج1، ص55-56.

[5]– طاش كبرى زادة: المصدر نفسه، ص63.

[6]– ابن جماعة: المصدر السابق، ص49-50؛ الغزالي: المصدر السابق، ج1،ص69؛ طاش كبرى زادة: المصدر نفسه،ج3 ،ص 19؛ ابن الحاج: المدخل، ج1، ص 57، ص90.

[7]– وقد أثر عن السلف، إنما يأنف عن كلمة "لا أدري" من ضعفت ديانته وقلت معرفته.

[8]– ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص303.

– أن لا يقبّح علوم غيره ويحطّ من مقدارها ومقدار علمائها وطلابها. وكان من عادة علماء اللغة يقبحون علم الفقه، وعلماء الفقه يقبحون علم الحديث والتفسير[1].

9– ألقاب العلماء ورتبهم

تعددت الألقاب والمصطلحات العلمية التي أطلقت على المدرّسين المسلمين، وذلك إما زيادة في المعنى وتخصّصاً في الوظيفة، أو للدلالة على المستوى العلمي الذي وصل إليه المدرّس، والمهمة العلمية التي يشغلها، إذ كما في كل عصر، كان لكل مرحلة علمية مدرّسوها، كما كان لكل دار علم هيئة تدريس تتألف بشكل أساسي من ثلاث فئات تعليمية هي، الشيخ، والمدرس، والمعيد، يعلّم كل منهم حسب اختصاصه وموقعه[2]:

(**1**) **الصدر**: لفظ مشتق من التصدير، وصدر كل شيء في اللغة أوله، والمراد به من يكون صدراً في المجالس، يعني الجلوس بصدر المجلس بجامع أو نحوه[3]. وهو من ألقاب أرباب الأقلام وأكابر العلماء، وهذه أعلى مراتب المعلمين. فالصدر هو شيخ المادة الأعلى وأستاذها الأكبر والمرجع الأول فيها، والمعتمد عليه في أمورها ومسائلها، ولذلك قالوا له شيخ الشيوخ، أو شيخ المحدثين وشيخ المقرئين، وشيخ النحاة...[4]. وفي العادة كان يجلس متكلم أمام المتصدر، يفتتح الحلقة بآية كريمة، أو بحديث، أو موعظة، فإذا انتهى، أخذ المتصدر بالكلام والتفسير للآية أو الفكرة التي وقع عليها الكلام[5].

(**2**) **الشيخ**: من ألقاب العلماء، وأصله في اللغة الطّاعن في السن. لقّب به أهل الصلاح والعلم توقيراً لهم. ولذلك هو لا يرتبط بسن العالم، إنما يراد به هنا الذين تعمقوا في تحصيل العلم وبلغوا أعلى مراتبه[6].

---

[1]– الغزالي: المصدر السابق،ج1،ص57؛ ابن جماعة: المصدر السابق، ص63؛ ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباسن ص ص 81-90.

[2]– حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك، ص239؛ مراد، يحيى: آداب العالم والمتعلم، ص11.

[3]– القلقشندي: صبح الأعشى، ج6، ص18؛ ج11، ص247؛ سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، ص559.

[4]– مراد، يحيى: المرجع السابق، ص 14؛ Pederson, J : Article Madrassa, EI2,T5, P1127

[5]– القلقشندي: المصدر السابق، ج11، ص247؛ ابن الحاج:المدخل،ج1، ص86؛ البغدادي: الجامع ، ص142؛ كان في القبة المنصورية قارئ يقرأ الحديث بين يدي المدرس في أوقات الدرس، ويقرأ درس ميعاد للناس العوام كل أربعاء. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص74؛ وكذلك كان السراج البلقيني في حلقته بحيث يقرأ عليه شخص الحديث فيتكلم هو على هذا الحديث من الصبح وحتى الظهر، وربما يؤذن الظهر ولم يفرغ بعد. السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص79.

[6]– القلقشندي: المصدر نفسه، ج6، ص17.

(3) **المدرِّس**: هو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية، وتحديداً علم الفقه[1]، وهو مأخوذ من دَرَستُ الكتاب دِراسةً إذا كررته للحفظ[2]. والمدرس أقل رتبة من الشيخ أو الصدر، وأعلى من المعيد. وقد يكون للمدرّس معيد أو اثنين، وقد يكون هو نفسه معيداً في مدرسة أخرى. وكان لكل مادة مقرّرة مدرّس، ليتعدد المدرّسون بتعدد المواد في المدرسة الواحدة[3].

(4) **المعيد**: هو المعيد في دروس الفقه والمستملي في الحديث، وهو مساعد المدرّس وذراعه الأيمن، يتبعه في المذهب ومادة التخصص. وقد شرح النويري دور المعيد بقوله:"...وينتصب كل معيد ممن عُيّن في جهته لأهل مذهبه لاستعراض طلبته، ويشرح لمن احتاج الشرح درسه ويصحح له مستقبله، ويرغّب الطلبة في الاشتغال، ولا يمنع فقيهاً أو مستفيداً ما يطلب من زيادة تكرار وتفهم معنى، ولا يقدم أحداً من الطلبة في غير نوبته إلا لمصلحة ظاهرة..."[4]. فمن واجب المعيد أن يلازم المدرّس، ويحضر الدروس التي يكلفه بها ليعيد شرحها لمن لم يحضر شرح الشيخ أو لم يفهمه من الطلاب[5]، ويعين الطلبة في إعادة المحفوظات ومراجعة المذكرات. من الضروري أن يكون المعيد فطناً، مؤدباً، قادراً على ترتيب الطلبة ومن يدخل عليهم فيجلسهم على قدر منازلهم. ومن مهامه أيضاً أن يوقظ النائم ويسكت المتحدث بغير إذن فلا يسمح بالتشويش على الحلقة، ويأمر الطلاب بالاستماع للدرس والإنصات وترك ما يشغلهم عن التركيز[6].

وغالباً ما يكون عدد المعيدين في المدرسة أكثر من عدد المدرّسين. فالمعيد طالب علم متقدم عن الحلقة التي يعيد فيها، ويمتلك صفات ومقومات المدرسين ولذلك، هو ثاني رتبة بعد المدرس، ويحل محله عند الضرورة[7]، (في حال غيابه أو عدم تعيينه)كما حصل في المدرسة الناصرية الصلاحية التي خلت منالمدرّسين ثلاثين سنة واكتفى فيها بعشرة معيدين[8]. وقد يكون المعيد نفسه مدرساً في مكان آخر[9].

---

[1]- Pederson, J : Ibid, P1127

[2]- القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص436.

[3]- Pederson, J : Ibid, P1127

[4]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص46.

[5]- الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص410؛ شلبي، أحمد: التربية الإسلامية،ص ص 255-257. Hitti, Philip: History Of Arabs, P 410 ; Pedersen, J : Article Madrassa, EI2 T5, P1129

[6]- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص48.

[7]- Pedersen, J : Ibid, P1127؛ القلقشندي: صبح الأعشى،ج5،ص436.

[8]- النويري: المصدر السابق، ج31، ص63-64؛ المقريزي: الخطط، ج4، ص259؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص 225.

[9]- مثلاً: حرمي بن سليمان الذي كان مدرساً بالمدرسة الشريفية ومعيداً بالمنصورية.السخاوي: الضوء اللامع، ج3،ص81؛ والشيخ بهاء الدين علي بن هبة الله وكان معيداً لشهاب الدين الطوسي بمنازل العز ومدرساً بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج5، ص287.

(5) **المفيد**: هو مساعد آخر لمدرّس الفقه والحديث، أقل رتبة من المعيد. يقيم في المدرسة، ومهمته نقل المعلومات المفيدة للطلبة المبتدئين، ومساعدتهم على الدرس والحفظ والفهم[1].

(6) **النّحوي**: أو مدرّس القواعد واللغة، وهو من المدرسين المهمين في المدرسة، لما لمادة النحو من أهمية في دروس الفقه والدين[2].

ثانياً: الطّلاب

أبدى الطالب المسلم حماسة واندفاعاً كبيرين للتعلم، رافقتهما إرادة قوية وعزم شديد للتغلب على الصعوبات التي تواجه طلاب العلم في العادة. وكان وراء هذا الدفع نحو العلم، أقوال ومأثورات دينية وتراثية، أجمعت على أهمية العلم وتقدم أهله على العالمين. بالإضافة إلى ذلك، نجد أن علماء ذلك العصر بما اتصفوا به من علم ومعرفة في الدين وزهد وتقوى وثبات على الحق، كانوا مثالاً يحتذى به جعل الشباب يتوقون إلى العلم والتعلم للتشبه بهم[3]، ساعدهم على ذلك الامتيازات المهمة والأساسية التي امتاز بها نظام التعليم الإسلامي وجعلته يضاهي النظم التعليمية المتبعة في المدارس الحديثة.

1-انتساب الطلاب إلى المدرسة

شكّلت الإغراءات المادية والتسهيلات الكثيرة التي كانت تقدم لطلبة العلم ولمدرّسيهم من خلال نظام الوقف، العامل الرئيسي لازدهار المدارس وتوسّعها، واستقطابها لأعداد كبيرة من الطلاب من مختلف حواضر الدولة الإسلامية.

فمدارس القاهرة لم تفرض على طلابها من أبناء البلد أو من الوافدين إليها من كل حدب وصوب، أية رسوم مالية، أو ثمن كتب وكراريس، أو غير ذلك، بل على العكس، فقد وفّرت لهم جميع متطلبات التفرغ التام للتعلم، من خلال تأمين كل ما يمكن أن يحتاجوا إليه من مسكن وملبس ومأكل، كما تكفّلت بمصاريفهم

---

[1]- Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1129

[2]- Pedersen, J : Ibid, P1129

[3]- الغزالي: المنقذ من الضلال، ص22؛ Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman ,P P 42-44,P50

الخاصة والمدرسية[1]، وليس ذلك فقط بل قدمت لهم رواتب شهرية من ريع الوقف[2]. وبذلك تذللت كل العوائق التي قد تمنع الطالب من التعلم حتى لو كان فقيراً وتكون المدارس الإسلامية في العصر الوسيط قد سبقت الأنظمة التعليمية الحديثة في تطبيق التعليم المجاني والداخلي.

وعلى الرغم من أن المدارس الإسلامية كانت أشبه بجامعات العصر الحديث سواء من حيث تنوع الدراسات والمستوى العلمي، إلا أنها كانت أكثر ليونة في نظمها الداخلية والإدارية. فهي لم تتبع نظام الفصول الدراسية المتتالية، فكان الطالب حراً في الالتحاق بالحلقة العلمية التي يريدها واختيار الشيخ أو المدرس الذي يريد أن يدرس عنده الأمر الذي أدى إلى وجود طلاب من مستويات علمية مختلفة في الحلقة التعليمية الواحدة في الوقت عينه[3].

وعلى الرغم من كل ما سبق، لم يكن الانتساب إلى المدرسة المملوكية بالسهولة نفسها التي يستطيع بها الطالب أن يلتحق بحلقات المسجد. فأبواب المسجد مفتوحة للجميع، ينضم إلى حلقاته كل من أحب الاستفادة والتعلم. أما المدارس، وخاصة المرموقة منها، فكانت بأغلبها حكراً على الطلبة المحظوظين الذين يتم تعيينهم فيها من قبل صاحب الوقف الذي غالباً ما كان يعيّن بواباً يمنع الغرباء من الدخول إليها[4].

2- الشروط الواجب توافرها في الطالب:

بشكل عام، كان الطالب يخضع لمراقبة أستاذه قبل وبعد أن يحصل على موافقته في الالتحاق بحلقته التعليمية. وكانت هذه المراقبة تتم من خلال معايير أساسية وضعها المسلمون الأوائل كشروط وجب على الطالب المسلم أن يتصف بها ليكون أهلاً للعلم الذي يتعلمه، ومنها:

(1) **الشروط الأخلاقية**: من أهم ما شدد عليه المسلمون في المتعلم، أن يبتعد عن رذائل الأخلاق ويطهر قلبه من كل غش وسوء خلق[5]، وأن يخلص في نية طلب العلم لوجه الله تعالى وإحياءً لشريعته وليس طلباً للمال والجاه والرياسة وتصدّر المجالس ومباهاة الأقران[6].

1- شلبي، أحمد: التربية الإسلامية، ص297؛ الربيع، محمد : النفقات المالية في دولة المماليك الجراكسة، ص175.

2- أنظر في خطط المقريزي، والنويري: نهاية الأرب، ج32، ص50.

3- مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك، ص110.

4- Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1128

5- طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ج1،ص13؛ ابن جماعة: تذكرة السامع،ص71؛ الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1، ص48.

6- طاش كبرى زادة: المصدر نفسه،ج1، ص14؛ ابن جماعة: المصدر نفسه، ص72؛ الغزالي: المصدر نفسه،ج1 ص5؛ Chamberlain, Michael: LaTransmission Du savoir Dans Le Monde Musulman ,P49-50

(2) **الشروط الجسدية**: لحظ العلماء المسلمون في مؤلفاتهم بعض المعايير والصفات الجسدية التي اعتبروهاً دليلاً مادياً على قدرة الطالب على التعلم والاستيعاب. ومن أهم هذه المعايير، ما وضعه ابن الجوزي، من ملاحظات تناولت شكل الرأس، والرقبة، وملامح الوجه والبنية[1].

(3) **الشروط النفسية**: اهتم العلماء المسلمون بطبع الطالب وحالته المزاجية التي تتحكم به واعتبروها أيضاً دليلاً على ذكائه وعلى قدرته على الحفظ والفهم [2].

3- واجبات الطالب في درسه

بالرغم من أن مجانية التعليم التي اتبعتها مدارس العصر المملوكي قد فرضت نوعاً من التراخي في بعض النواحي، إلا أن ذلك لم يعن فلتاناً عاماً فيما يتعلق بالطالب ودرسه، بل كانت هناك معايير وأخلاقيات عامة، تشكل نوعاً من الضوابط تقوم مقام القوانين المرعية في أيامنا الحديثة، وجب على الطالب اتباعها في درسه، ومن أهمها:

(1) **داخل حلقة الدرس**: على الطالب أن يدرك أولاً حقيقة العلم الذي يتعلمه وأهميته، والذي من خلاله سيتوصل إلى معرفة الله تعالى، وأن يثابر في السعي بطلبه من مشايخه وليس فقط من الكتب[3]. و برأي ابن حزم، لا يكون العلم إلا بسماع وقراءة وكتاب، ولا سبيل دونها إلى شيء من العلوم[4].

و عليه أن يتعلمها جميعها دون أن يستهين بشيء من العلوم، و دون أن ينتقل من علم إلى آخر قبل أن يتقنه تماماً، على أن يبدأ علمه بالعلم الأهم والأنفع ولا يتوصل إلى أرفع العلوم إلا به[5].

– أن ينتظر حتى يفسح المدرس المجال للأسئلة فيسأل عما لم يفهمه من شرح الدرس بلباقة ودون إلحاح أو حرج[6].

---

[1]- ابن الجوزي: الحث على حفظ العلم، ص 15-16.

[2]- ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص 15-16.

[3]- Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman,P40

[4]- ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ج2، ص ص 62-64، 77-90.

[5]- طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة، ج1،ص33؛ الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1، ص53؛ ابن جماعة: تذكرة السامع، ص111، 125؛ ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص75.

[6]- ابن جماعة: المصدر نفسه، ص100-105؛ الغزالي: المصدر نفسه، ج1، ص 51.

– أن يلزم حلقة شيخه في الدرجة الأولى وإذا استطاع حضور مجالس أخرى فلا بأس لأنها تزيده خيراً وتحصيلاً ، مع ضرورة أن يقرأ على كل شيخ كتبه التي وضعها[1].

– أن يأخذ معه إلى الحلقة الأدوات التي يحتاجها كالدواة والقلم والسكين ليستطيع التصحيح والضبط. والأهم أن يحمل معه كتابه ليقرأ فيه عندما يطلب منه شيخه [2].

(2) **خارج حلقة الدرس**: إذا انتهى وقت الحلقة، يجب على الطالب أن يصحح ما كتبه في كراسه تصحيحاً متقناً مع شيخه أو مع المعيد، كي لا يقع في التحريف والتصحيف قبل حفظه [3].

– وفي العادة، كان الطلاب قبل مغادرتهم، يتذاكرون مع بعضهم أهم ما ورد في الحلقة من الفوائد والمسائل، ويتناظرون فيها بهدف استخراج الصواب وتثبيت الأفكار والمعلومات وحفظها [4]. وفي المساء يعود الطالب فيذاكر مرة أخرى إما منفرداً أو مع أحد زملائه [5].

– وليستطيع الطالب أن ينجح في علمه، لابد له من أن يقسِّم أوقاته ليشغل كل وقت بما يناسبه درساً ونسخاً ومذاكرة. وقد قيل في السلف:" يجب اغتنام من أزمان العمر أيام الحداثة، ومن الأوقات بين العشاءين وأوقات السحر وأصل الكل ملازمة السهر". وعليه، فقد خصص الطلاب المسلمون وقت السحر للحفظ، والإبكار للبحث، في حين تركوا وسط النهار للكتابة والليل للمطالعة[6]، وهكذا، يكون تقسيم ساعات اليوم (الليل والنهار) مقتصراً على التعلم مع ترك المشاغل اليومية والعادات التي تعيق الطالب عن التعلم[7].

4– أعداد الطلاب

اختلفت أعداد الطلاب اختلافاً بيّناً بين المسجد والمدرسة. فالمسجد اعتاد أن يفتح بابه للناس في كل وقت، لبيؤمه عدد كبير غير محصور من الطلبة قد يصل إلى المئات من الراغبين بالتعلم الذين يتجمعون

---

[1]- Chamberlain, Michael:Ibid,P36 ; Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1128

[2]- ابن حزم: المصدر السابق، مج2، ج2، ص77؛ ابن جماعة: المصدر السابق، ص147-148.

[3]- ابن جماعة: المصدر نفسه، ص 116.

[4]- اعتبر المسلمون أن المناظرة تساعد على الحفظ أكثر من تكرار شهر. ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، مج2، ج2، ص 77؛ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ،ص31 ؛Pedersen, J : Article Madrassa, EI2, T5, P1126

[5]- ابن جماعة: تذكرة السامع، ص133؛ طاش كبرى زادة: المصدر نفسه، ج1، ص31؛ البغدادي: الجامع، ص ص 410-412.

[6]- القزويني: آثار البلاد، ص227؛ طاش كبرى زادة: المصدر نفسه،ج1،ص19؛ ابن الجوزي،: الحث على حفظ العلم، ص22.

[7]- ابن جماعة: المصدر السابق، ص76؛ طاش كبرى زادة: المصدر نفسه،ج3، ص175؛ Chamberlain, Michael : La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman

حول مشايخ العلم كل بحسب شهرته العلمية وتعمقه في مادته[1]. وفي العادة كان عدد طلاب حلقات المساجد، يعرف من إحصاء محابرهم التي يضعونها أمامهم والتي كانت من أهم عتاد الطلاب بالإضافة إلى القارورة الذين كانوا يحضرون كتبهم فيها[2].

أما في المدارس ودور العلم الأخرى، فإن أعداد الطلاب فيها كانت تتحدد بحسب ما يحتمله الوقف المخصص لها، وبحسب حجمها وسعة بنيانها. فبالنسبة إلى المدارس مثلاً، نجد أن مدرسة السلطان حسن قد بلغ عدد تلامذتها– ما عدا طلاب الحديث والتفسير– الأربعمئة تلميذ فقه على المذاهب الأربعة[3]، في حين أن عدد الطلاب في المدارس الأخرى لم يزد فيها بشكل عام على الخمسين أو الستين طالباً كما في المدرسة المنصورية[4]، ولم يقل عن العشرين طالباً كما في المدرسة الطيبرسية[5]، والمدرسة المجدية الخليلية[6]. اما الخانقاه العلائية فقد ضمت إحدى عشر طالبا فقط وعشرين متصوفاً[7].

وكذلك الأمر بالنسبة إلى مكاتب السبيل، فإن عدد طلابها يتحدد بحسب قدرة الواقف المالية ومكانته. فبينما وصل عدد طلاب الكتّاب التابع لمدرسة السلطان حسن إلى ثلاثمائة طالب أو أقل، نجد أن عدد طلاب الكتّاب المنصوري التابع للمدرسة المنصورية، قد بلغ الستين يتيماً[8]، في حين أن الكتّاب التابع للخانقاه العلائية قد ضم عشرين يتيما فقط. أما القبة المنصورية فقد بلغ عدد طلابها ستين طالباً توزعوا مناصفة بين دروس الحديث والتفسير[9].

5– أعمار الطلاب

روي عن الرسول (ص) أنه قال:" أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد". وتطبيقاً لهذا الحديث الشريف، لم تكن هناك سن معينة لتحصيل العلم عند المسلمين، بل كان كل مسلم يبتغي العلم، يسعى إلى طلبه مهما

---

[1]– فالغزالي مثلاً كان مدرساً لثلاثمائة طالب. المنقذ من الضلال، ص18.وكانت حلقة الشيخ أبو الليث السمرقندي تضم سبعين نفراً من الطلبة، منهم البدر العيني. عقد الجمان، تحقيق إيمان شكري،ص357.

[2]– متز،آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري،ج1،ص316.

[3]– ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 56

[4]– النويري: نهاية الأرب، ج31، ص73.

[5]– ابن دقماق: الانتصار، ص97.

[6]– ابن دقماق: المصدر نفسه، ص96؛ المقريزي: الخطط،ج4، ص259.

[7]– النويري: المصدر السابق،ج 33، ص 230.

[8]– النويري: المصدر نفسه، ج31، ص73؛ حدد المقريزي عدد طلاب درس التفسير في هذه القبة بثلاثين طالباً، لكنه لم يحدد عدد طلاب درس الحديث والإقراء والفقه ومكتب السبيل. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص269.

[9]– النويري: المصدر نفسه، ج33، ص230.

بلغ سنه. وبالرغم من أن كثيراً من الشيوخ والأعلام قد تفرغوا للعلم ونالوا قسطهم منه في عمر الكهولة، إلا أن الشائع كان أن يبادر طالب العلم إلى التعلم في عمر الشباب[1]، مغتنماً شبابه في التحصيل، فكل ساعة تمضي من العمر لا عوض عنها[2]، وهو في هذه المرحلة أقدر ما يكون على السفر والترحال في سبيل العلم، خاصة قبل أن يتزوج ويؤسس عائلة فينشغل بها[3].

وأما فيما يتعلق بطلاب الكتاتيب، فكانت أعمارهم تتراوح بين الخمس سنوات والخمس عشرة سنة. وكانت نتيجة إقبال الطلاب على التعلم بعمر مبكر أن بذلوا جهداً يدعو إلى الإعجاب حقاً. فعلى سبيل المثال، حفظ إبراهيم بن محمد بن رضوان المقدسي القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين[4]، أما ابن حجر العسقلاني فقد حفظه وهو ابن تسع، ثم حفظ العمدة وألفية الحديث للعراقي، والحاوي الصغير ومختصر ابن الحاجب في الأصول[5].

ثالثاً: إدارة المدرسة وموظّفيها

1- إدارة المدرسة

تتألف الهيئة الإدارية للمدرسة المملوكية من صاحب المدرسة وواقفها الذي يتابع أعمالها أولاً بأول، أو يكلِّف من ينوب عنه من المقربين الموثوقين[6]، ومن ناظر الوقف وهو المسؤول المباشر عن المدرسة، يدير كافة أمورها الإدارية والأكاديمية، و بيده ماليّتها يقرر فيها ما يراه مناسباً، ، يساعده مباشرون خاصّون تكون مهمتهم تحصيل مستحقات الوقف من المستثمرين.

2- موظفو المدرسة

يتعدد موظفو المدرسة بحسب عدد المذاهب التي تدرّس فيها، وبحسب حجمها وحجم وقفها. فإذا كانت المدرسة عادية، مفردة المذهب، قليلة الوقف كالمدرسة المجدية الخليلية، يقتصر موظفوها في الأغلب

- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم،ص126-12؛ الغزالي: إحياء علوم الدين، ص50.[1]

[2]- أثر عن أحد اعلام المسلمين واسمه فخر الدين أنه قال:" والله إني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم وقت الأكل فإن الوقت والزمان عزيز". ابن جماعة: المصدر نفسه، ص75.

[3]- قال سفيان الثوري:" ترك التزويج لغير المحتاج إليه أو غير القادر عليه أولى، لاسيّما الطالب الذي رأس ماله جمع الخاطر وإجمام القلب واشتغال الفكر.

[4]- الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص22.

[5]- الشوكاني: المصدر نفسه، ج1، ص61.

[6]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص48.

على مدرّس الفقه فيها الذي يمسك بيده زمام أمورها، يساعده معيد أو اثنين على الأكثر، وفيها إمام ومؤذن، بالإضافة إلى عامل يقوم بأعمال النظافة والفرش والترتيب[1].

أما إذا كانت المدرسة متعددة المذاهب، موقوفة من قبل سلطان أو أمير خصّص لها وقفاً كبيراً، فإن الأمور تختلف اختلافاً بيّناً. ففي هذه الحالة، تتنوع الوظائف ويزداد عدد الموظفين في المدرسة بتنوّع وازدياد عدد المرافق والتوابع الملحقة بها. إذ إن أكثر المدارس المملوكية الكبيرة،كانت عبارة عن مجمعات علمية وثقافية مختلفة الاختصاصات والمستويات العلمية، فبعضها ضمّ إضافة إلى المدرسة مكتب سبيل، أو خانقاهاً، أو رباطاً، أو مكتبة عامرة، أو مطبخاً، مع العلم أن كثيراً منها ضمّ أكثر من ملحق، دون أن ننسى القبة التي كانت من الملحقات الأساسية والثابتة لأكثر المدارس، وأن لبعض المدارس الفقهية المملوكية تعليماً دنيوياً كما الحال في المدرسة المنصورية التي أتبعت بالمارستان المنصوري الكبير.

وعلى ذلك إذا أردنا أن نتعرّف إلى أنواع الوظائف في المدرسة وعدد موظفيها، لا بد لنا أن نأخذ بعين الاعتبار الملحقات التابعة لها في حال وجدت، والتي كل واحدة منها تحتاج إلى موظفيها الخاصين بها. وهنا سوف أستعرض مهام وموظفي المدرسة العادية التي تضم قبة ومكتبة، مع الإشارة إلى أنه من أهم ما اشترط على المتقدم إلى وظيفة في مدرسة ما أن يكون جيد السمعة والسيرة، كامل الأهلية، قادراً على القيام بالمهام التي تناط به، وأن يستنيب من يقوم بها في حال غيابه لسفر أو مرض[2]. وعدا عن المدرّسين والمعيدين، يتكوّن الطاقم الإداري للمدرسة من:

(1) **الناظر**: هو أهم موظف إداري في المدرسة، وغالباً ما يكون مدرّس فقه المذهب الأساسي فيها، يعيّنه الواقف بعد موافقة قاضي قضاة المذهب الذي يتبعه[3]، ويشترط فيه أن يكون حسن السيرة، جيد السمعة، مدركاً، فقيهاً وعارفاً بالشريعة الإسلامية، ضليعاً بالكتابة وبالحساب ليستطيع مباشرة أعمال الوقف[4]. وعلى عاتق الناظر تقع مسؤولية المؤسسة من ألفها إلى يائها، تبدأبوضع ميزانية المدرسة العامة وتأجير واستثمار الأوقاف التابعة لها، وتعيين جميع موظفيها ومدرّسيها وطلبتها وتحديد رواتبهم وتأمين كافة مستلزماتها وأدواتها، وشراء كافة احتياجاتها من زيت وفرش وبسط وقناديل والأطعمة وكل ما تحتاج إليه المدرسة وتؤمنه للقاطنين

[1]- بناها الشيخ الإمام مجد الدين عبد العزيز الخليلي الداري سنة 663هـ. المقريزي: الخطط، ج4، ص259.

[2]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص48.

[3]- النويري: المصدر نفسه، ج30، ص8.

[4]- المقريزي: السلوك، ج4، ص133-134.

فيها، بالإضافة إلى متابعة أعمال الصيانة والترميم عند الحاجة، وتنتهي بمتابعة أصغر تفصيل وعمل. ويتراوح راتب الناظر ما بين المئتين والثلاثمائة درهم نقرة[1].

(2) **الأئمة**: يعينهم الناظر براتب يتراوح بين الستين والثمانين درهماً في الشهر، ويشترط فيه أن يكون على مذهب المدرسة ليؤم المدرسين والطلبة والموظفين في الصلاة. وفي الغالب يكون في المدرسة الواحدة إمامين على الأقل، واحد يؤم في المدرسة، والثاني يؤم في القبة[2].

(3) **المؤذنون**: يعتبر وجود المؤذنين في المدارس المملوكية وقببها أمراً طبيعياً، خاصة إذا كان في المدرسة منبر وخطبة. وكان عدد المؤذنين يختلف بحسب حجم المدرسة وعدد مآذنها. وفي العادة كان هناك نوعان من المؤذنين: المؤذنون العاديون، والمؤذنون الرئيسيون. أما العاديون فيقومون بالتسبيح والأذكار في السَّحر على ما يراه الناظر مجتمعين أو متناوبين، وأما الرئيسيون فيفترض بهم أن يكونوا عارفين بالأوقات، يعلنون بالأذان الشرعي في المئذنة أوقات الصلاة. وفي العادة، يكون راتب المؤذن الرئيس ثمانين درهماً، في حين يحصل المؤذن العادي على عشرين درهماً[3].

(4) **القرّاء**: الحافظون لكتاب الله الضالعون بأنواع القراءات، يقرأون على القبر في القبة، ما يتيسّر لهم ليلاً ونهاراً في الوقت الذي يعيّنه لهم الناظر، ويشترط بهم الحرص على الدعاء عند انتهائهم من القراءة للواقف ووالديه وذريّته بالرحمة والغفران. ويعود لناظر الوقف تحديد راتب المقرىء، إلا أنه لا يتجاوز بشكل عام الخمسة والعشرين درهماً[4].

(5) **النقباء**: جمع نقيب وهو طالب يختاره المعيد ليساعده في أمور الطلبة من حيث انضباطهم وجلوسهم في أماكنهم وإسكاتهم ومتابعة احتياجاتهم. وللنقيب راتب شهري يحدده ناظر الوقف[5].

(6) **المباشر أو المشرف**: يساعد ناظر الوقف في متابعة الأعمال المالية من حيث تحصيل الأموال وجمعها، واحتساب المداخيل والمصاريف، وتقييد أوجه صرفها وتفنيدها، وتسجيل ذلك كله على سجلات خاصة بها. وقد يكون في المدرسة أكثر من مباشر واحد[6].

---

[1]- النويري: المصدر السابق، ج32، ص ص 48-51؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص228.

[2]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص47؛ ابن شداد: المصدر نفسه، ص227.

[3]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص44.

[4]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص44.

[5]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص47.

[6]- النويري: المصدر نفسه، ج32،ص50.

(7) **الجابي**: مهمته تحصيل أموال الوقف من المستثمرين والمستأجرين للأملاك التابعة للمدرسة، وفي أوقاتها المحددة. وقد يكون هناك أكثر من جاب في المدرسة[1].

(8) **القومة**: وهم عمال التنظيفات، يقومون بخدمة المدرسة والقبة، يوقدون مصابيحها ويكنسون أرضها وينظفون ما يجب تنظيفه براتب يبدأ بخمسة وعشرين درهماً وقد وصل إلى الأربعين درهماً[2].

(9) **سوّاق الساقية**: ويقال له أيضاً شاوي الماء. مهمته إدارة الساقية وإجراء الماء من البئر إلى الصحن والفسقية والميضأة والمطبخ وباقي المنتفعات، يعاين ما فسد منها من الخشب أو الحديد أو الآلات، وأن يتعامل مع الثور الذي يديرها. لا يتجاوز راتب الشاوي الثلاثين درهماً[3].

(10) **الفراشون**: مهمتتهم فرش المدرسة بالبسط والدكك والجلود وما إلى ذلك من المفروشات المستعملة في القبة وفي المدرسة قبل بدء الدرس، ورفعها بعد انتهائه. يتراوح راتب الفراش بين العشرين والخمسين درهماً، وقد يصل في حالات خاصة إلى المئة درهم[4].

(11) **البواب**: مهمته أن يلازم باب المدرسة، يفتحه ويغلقه في الأوقات المحددة ليلاً ونهاراً، يراقب الداخلين والخارجين، ويمنع من يرتاب بأمره من الدخول، كما يمنع الناس من الدخول لغير هدف العلم. لا يترك مكانه إلا بعذر مشروع شرط أن يستخلف مكانه أحداً. وكان في كل مدرسة بوابان، واحد لبوابة المدرسة الأساسية، والآخر يقف على بوابة القبة لا يبارحها أبداً. وكان راتب البواب بين العشرين والثلاثين درهماً نقرة [5].

أما إذا كانت المدرسة تحتوي على مكتبة، فإن شريحة الموظفين[6]فيها تتسع لتضم:

(12) **خازن الكتب**: ويطلق عليه اليوم اسم(أمين المكتبة). وقدجرت العادة أن يكون في كل مدرسة مكتبة تضم المفيد من الكتب، وأن يكون لها خازن مثقف يستطيع أن يدير شؤونهاويتحمل مسؤولية جميع أمورها الإدارية والعلمية والعملية، كما يهتم بعملية إعارة الكتب للطلاب، براتب يصل إلى الثلاثين درهماً في الشهر. وإذا كانت المكتبة كبيرة، يتم تعيين مساعد أو أكثر[7].

---

[1]- النويري: المصدر نفسه، ج32،ص50؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص228.

[2]- النويري: المصدرنفسه، ج32، ص45؛ ابن شداد: المصدر نفسه، ص229.

[3]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص47؛ ابن شداد: المصدر نفسه، ص228.

[4]- النويري: نهاية الأرب، ج32، ص45؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص229.

[5]- النويري: المصدر نفسه، ج32، ص45، 47؛ ابن شداد: المصدر نفسه، ص228.

[6]- شلبي، أحمد: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج5، ص ص 158-162.

[7]- النويري: المصدر السابق، ج32، ص47؛ شلبي، أحمد: المرجع نفسه، ج5، ص180.

(13) **المترجمون**: عمّت المكتبات الإسلامية العامة بالمترجمين الذين اعتنوا بنقل المؤلفات والكتب من السريانية واليونانية والقبطية إلى اللغة العربية[1].

(14) **النساخ**: كان النسخ الطريقة الوحيدة والأساسية لاستنساخ الكتب والمخطوطات،فكان في كل مكتبة عامة اسلامية، ومنها مكتبات المدارس، نسّاخ ينسخون الكتب المهمة والنادرة الوجود التي يطلبها منهم الخازن[2].

---

[1]- شلبي، أحمد: المرجع نفسه،ج5، ص162-164.

[2]- Eche, Youssef: Les Bibliotheques Arabes,P251

خاتمة

امتاز عصر المماليك البحرية بمقوّمات سياسية وعسكرية خاصة به،لم تتوفر في غيره من العصور، حين قام على رأس السلطة السياسية في الدولة الإسلامية مجموعة من السلاطين الأرقّاء، استطاعوا أن ينتصروا على الفرنج والمغول، وأن يقصوهم ولو إلى حين عن المشرق العربي.

وقد تزامنت هذه الانتصارات مع تطور كبير في الناحية الثقافية والعلمية التي وإن بلغت في ذلك الوقت مبلغ الذروة، إلا أنهالم تكن من خصوصيات ذلك العصر ونتاجه الحصري. فالحقيقة **أن** موقع مصر الجغرافي سمح لها، منذ القدم، أن تكون حلقة وسط تجمع بين الحضارات القديمة وثقافاتها، لتعود فتصدّرها من جديد بقالب أكثر تطوراً وتميّزاً؛ وبالتالي، فإن الحياة الثقافية والعلمية في مصر بقيت مستمرة عبر العصور لا تتأثر بالأحداث ولا بتغيّر الدول، وما شهدته مدينة القاهرة في العصر المملوكي الأول، إنّما هو نتاج عصور من الحضارة التي عاشتها مصر عبر تاريخها الطويل.

وعلى ذلك، بلغت الحركة الثقافية والعلمية في مدينة القاهرة في عصر المماليك البحرية مبلغ الذروة، بفضل دعم السلاطين لها وتخصيصها بأوقاف وفيرة تضمن استمراريتها. ولعل السبب الرئيس في ذلك، يعود إلى رغبة السلاطين أن ينسى السكان المحليين حقيقة أنهم غرباء عن الدولة التي يحكمونها، وأنّهم أرقّاء انقلبوا على أسيادهم الأيوبيين واستولوا على الحكم. ولذلك سعى هؤلاء السلاطين إلى تحسين صورتهم، فعملوا على استمالة السكان والتقرب منهم باستعمال الدين وسيلة لتقوية نفوذهم وتثبيت دعائم دولتهم، من خلال إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وإكثارهم من بناء المؤسسات التعليمية التي أرادوا من خلالها استكمال ما بدأه الأيوبيون لنشر المذاهب السنية الأربعة وتثبيتها، وإعادة إحياء روح الجهاد لدى المسلمين، ما ساعدهم على تحقيق انتصاراتهم على الفرنج والمغول. وقد أقام السلاطين على رأس تلك المؤسسات علماء كبار أعدوهم لهذه المهمة، فجاءت النتيجة على قدر كبير من الأهمية، حيث شهدت مدينة القاهرة بشكل خاص، والدولة الإسلامية بشكل عام، حركة علمية لافتة، عززت من مكانة الحضارة الإسلامية.

وعلى الرغم من أهمية الأسباب التي دفعت سلاطين المماليك إلى تنشيط حركة التعليم، إلا أن الدولة المملوكية لم يكن لها استراتيجيه تعليمية أو سياسة تربوية كما كان عليه الحال في العهود السابقة. ففي عهد الفاطميين، كانت الدولة تقوم بتعيين المدرّسين وتقرر المناهج التربوية. وهذا ينطبق أيضاً على مدرّسي المدارس النظامية ومدارس العصر الأيوبي التي هدفت إلى التضييق على المذهب الشيعي، وإعادة نشر المذاهب الأربعة.

أما سلاطين المماليك، فلم يتدخلوا تدخلاً مباشراً في مناهج التعليم في مدارسهم، ولم يحددوا للمدرسين فيها أية مقررات تدريسية يدرّسونها لطلابهم. ولعل ذلك يعود إلى أن المذاهب الأربعة، وفي مقدمتها المذهبان الشافعي والمالكي، كانت قد استحكمت من جديد في المجتمع المصري، فلم تعد مشكلة الصراع المذهبي السني – الشيعي محتدمة كما كانت عليه الحال في العصر الأيوبي، فضلاً عن انشغال المماليك بمجاهدة الفرنج والمغول. وبالتالي، فإن مدرّسي العصر المملوكي كانوا أحراراً في تحديد مناهجهم التعليمية، وتعيين الكتب التي يدرّسونها لطلابهم شرط توافقها مع مذهب المدرسة واحترامها شروط الواقف فقط.

ومن ناحية أخرى، نجد أن انتشار المدارس في حواضر الدولة المملوكية، وبالأخص في مدينة القاهرة، بيد أن هذا الانتشار كانت له أسباب كثيرة، ليس أهمها تخريج العلماء وأصحاب الاختصاص، وإن كان ذلك من أهم نتائجها. فمعظم مدارس العصر المملوكي، وخاصة الكبرى منها، بنيت لأجل المدافن والقبب؛ إذ إن الهدف الأساسي من بناء المدرسة كان إتباعها بقبّة يُدفَنُ فيها صاحب المدرسة ليكون في مكان يكثر فيه ذكر اسم الله تعالى، وتقام فيه الصلاة والقراءات وتكون في الوقت نفسه نوعاً من الحسنة الجارية. من أهم المدارس التي احتوت على قبة: المدرسة المنصورية وفيها دفن الملك المنصور قلاوون وولديه الناصر محمد والصالح عماد الدين، والمدرسة الطيبرسية، ودفن في قبّتها صاحبها الأمير علاء الدين طيبرس بن عبدالله الخازنداري نقيب الجيوش[1]، والمدرسة الجاولية وفيها دفن صاحبها الأمير علم الدين سنجر الجاولي[2]، والمدرسة الحسامية، وفيها دفن صاحبها حسام الدين طرنطاي بعد مقتله[3].

ومن أسباب بناء المدارس أيضاً، أنها كانت وسيلة مضمونة اعتمدها أمراء المماليك "لتهريب" جزءٍ من أموالهم التي كانت دوماً عرضة للمصادرة من قبل السلطان[4] أو أحد الأمراء النافذين في الدولة، خاصة وأن تقلب السلطة الدائم كان من مميزات هذا العصر، مع الإشارة أن بناء المدارس كان عملاً مكلفاً جداً؛ فالمدرسة مؤسسة ضخمة تحتاج إلى نفقات كثيرة، لا يقدر على تحملها إلا كبار الأعيان والأثرياء، ما دفع بعض السلاطين والأمراء إلى اغتصاب مدارس أسلافهم وإجراء التعديلات عليها ثم نسبها لأنفسهم.

---

[1] – النويري: نهاية الأرب، ج32، ص232؛ ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة،ج9، ص246.

[2] – ابن تغري بردي: المصدر نفسه،ج10،ص98؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص745.

[3] – المقريزي: الخطط، ج4، ص236.

[4] – كان المماليك إذا انقلبوا على سلطانهم وعينوا سلطاناً جديداً غيره، يقوم الأخير بالاستيلاء على كافة أموال سلفه بعد قتله وحرمان أولاده من ميراثهم.

ولعل انتشار المدارس والجوامع في القاهرة، وتعيين مشاهير المدرسين والعلماء فيها، إضافة إلى اهتمام السلاطين والأمراء بتأمين احتياجاتها، أدى إلى جعلها مقصداً لطلبة العلم الذين ارتحلوا إليها من كل أنحاء الدولة الإسلامية، وكانوا موضع عناية ورعاية وحازوا على تقديمات كثيرة، شملت المأكل والملبس والمسكن، فضلاً عن تأمين احتياجاتهم الخاصة والكتب وأدوات الكتابة، كي يتفرغوا للدرس والتحصيل. مع الإشارة إلى أن شريحة الطلاب لم تقتصر فقط على الذكور، بل شملت أيضاً الإناث اللواتي شاركن الرجال الرغبة بالتعلم، وحصلت بعضهن على التعليم العالي، وبرعن في مهنة التعليم.

وعلى الرغم من عدم توفر إحصاءات لأعداد الطلاب في القاهرة المملوكية، والتي تأثرت إلى حد كبير بحجم الوقف، إلا أننا نستطيع أن نستشف من خلال بعض الإشارات أن دور العلم، وخاصة الجوامع، قد غصّت بأعداد كبيرة من طلاب العلم، حتى لو لم يستفد الجميع من مردود الوقف.

ولئن اعتمدت طرائق التدريس الإسلامي في المرحلتين الأولى والثانية، بشكل أساسي، على التكرار والحفظ، إلا أنها تصبح في مرحلة التعليم العالي معتمدة على طريقة المناظرة والمحاضرة التي كان لها دور كبير في صقل عقل الطالب وتنقية ذهنه وإيقاظ فكره حتى يدخل، فيما بعد، في مرحلة "المصاحبة "التي يكون فيها الطالب معيداً لشيخه مدة تصل إلى عشرين سنة، وهي مدة كافية، من حيث الوقت، لتخريج مدرّسين جديرين بمهنة التعليم وقادرين على القيام بواجبهم خير قيام.

وقد أسفرت الحركة العلمية عن كثرة في عدد فقهاء المذاهب الأربعة في الدولة الإسلامية، وفي مدينة القاهرة تحديداً، بلغ بعضهم مرتبة الاجتهاد[5]، ما أدى إلى كثرة الاجتهادات والفتاوى، ورواج الوعظ والتدريس، وحلقات الحوار والمناظرات في علوم الدين، واستحداث مناصب القضاء على المذاهب الأربعة. ويضاف إلى هؤلاء الفقهاء النحويون، وعلماء الأصول والكلام، وأهل الصوفية، والمنجّمون، والفلكيون، والأدباء، والقضاة، والمؤرخون، والأطباء الذين حملوا لواء النهضة مستفيدين من تقديمات السلاطين والأمراء واهتمامهم بنشر الثقافة الإسلامية.

---

[5] – منهم على سبيل المثال لا الحصر السراج البلقيني أبو حفص عمر، وهو من كبار فقهاء عصره، كان في علمه كالبحر الزاخر،حتى أنه بدأ الكثير من المصنفات لكنه لم يستطع إنهاء إلا القليل منها، إذ كان يطول عليه الأمر لسعة علمه. السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص79-80.

ومن نتائج الحركة العلمية أيضاً، ازدهار حركة التأليف والتصنيف[6] التي تعكس التطور الذي توصل إليه الفكر الإسلامي في واحدة من أهم مراحله، من خلال المؤلفات الفقهية والموسوعات العلمية والتاريخية والدواوين الأدبية والكتب الفقهية والدينية التي بلغت الآلاف عدداً. ومن أبرز مؤلفي ومصنفي العصر المملوكي الأول ابن حجر العسقلاني الذي وضع ما يزيد على مئة وخمسين مصنفاً، وكان يؤلف عن طريق الإملاء ثم يخط ما يمليه[7]، وشهاب الدين أحمد بن أحمد الأذرعي الذي كان يؤلف كراساً في الليل وآخر في النهار[8]، أما ابن الملقن[9] فقد عرف عنه أنه لم يكن ماهراً في الفتوى ولا بالتدريس، إلا أنه كان أعجوبة عصره في كثرة التصنيف، إذ بلغ عدد مصنفاته الثلاثمائة أكثرها في الحديث والتراجم وغيرهم كثيرون[10].

وعلى الرغم من طغيان الطابع الديني على ثقافة ذلك العصر، فقد شهد العصر المملوكي الأول تطوراً علمياً مميزاً، خاصة في مجال الطب، وإن لم تكن علوم العقل محور اهتمام الناس بشكل أساسي. فالدين الإسلامي لم يسقط علوم العقل من اهتمامه، بل إنه دعا إلى اكتشاف الخالق من خلال التفكر في آيات الوجود وتفسيرها واستلهام الحقيقة منها. ولذلك، دعا الرسول (ص) المسلمين إلى "طلب العلم ولو في الصين"، ومن البداهة ما قصده الرسول (ص) من كلمة "العلم"، علوم العقل والدنيا وليس علوم الدين فحسب.

إضافة إلى التعليم، اضطلعت المؤسسات التعليمية بدور رعائي اجتماعي على درجة عالية من الأهمية، خاصة الخوانق التي كانت بمثابة دور رعاية من الدرجة الأولى. وكان السلاطين والأمراء يتنافسون على بناء الخوانق وتأثيثها بأفخم الأثاث، لتكون مأوى للفقراء والمعدمين الذين لا أهل لهم، حيث كانوا ينعمون بحياة رغدة تؤمن لهم احتياجاتهم الأساسية الصحية والمعيشية، عدا عن الرواتب الشهرية التي كانوا يتقاضونها في مقابل الانصراف إلى التعبد وطلب العلم.

---

[6] Chamberlain, Michael: La Transmission Du savoir Dans Le Monde Musulman,P P 32-- 34

[7] Chamberlain, Michael: Ibid,P62-

[8] – الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص28.

[9] – هو أبو حفص عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله السراج

[10] – السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص ص 91-96.

الفهارس

- فهرس الأعلام والجماعات
- فهرس الأماكن
- قائمة المصادر والمراجع
- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام والجماعات

فهرس الأماكن

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم (ت668هـ/1269م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/ 1998م.

- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت630هـ/1233م): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965م/1384هـ.

- ابن أياس، محمد بن أحمد الحنفي(ت930هـ/1523م): بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1383هـ/1963م.

- ابن بطوطة، شمس الدين محمد بن إبراهيم (ت779هـ/1377م): رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت،[د.ت].

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج3، ج4، ج5، ج6، ج7، ج8، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الإرشاد القومي والمؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة، [د.ت]،ج9، ج10، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م/1413هـ.

- ابن جبير، محمد بن أحمد (ت1379هـ/1959م): رحلة ابن جبير، المكتبة العربية، بغداد، 1937م/ 1355هـ.

- ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم (ت733هـ/1332م): تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، حققه وعلّق عليه محمد بن هاشم الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت،2005م/ 1426هـ .

- ابن الجوزي، السبط (ت654هـ/1256م): مرآة الزمان، للسنوات 395-411هـ/ 1004- 1021م، تحقيق جوليت الراسي، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2005م/1425هـ.

- ابن الجوزي، عبد الرحمن جمال الدين (ت592هـ/1195م):

  - الحث على حفظ العلم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406هـ/1986م.
  - صيد الخاطر،تحقيق نواف الجراح،دار صادر، بيروت،1429هـ/2008م.

- ابن الحاج، محمد بن محمد العبدري (ت737هـ/1336م): المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، ضبطه وصححه توفيق حمدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م.

- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي(ت852هـ/1448م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، [د.ت].

- ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد (ت456هـ/1064م) : رسائل ابن حزم الأندلسي، رسالة مراتب العلوم، تحقيق إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت،1428هـ/ 2007م.

- ابن حوقل، محمد بن علي (ت367هـ/977م) : صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت،[د.ت].

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م):

- رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلّق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ت].
- المقدمة، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، [د.ت].

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت[د.ت].

- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت809هـ/1406م):

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، تحقيق لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، [د.ت].
- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، عالم الكتب، بيروت، 1428هـ / 2007م.

- ابن شاكر الكتبي، محمد (ت764هـ/1362م): فوات الوفيات والذّيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، [د.ت].

- ابن شاهين الظاهري، خليل(ت873هـ/1468م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، 1892م /1309هـ.

- ابن الشحنة، محب الدين محمد بن محمد(ت815هـ/1412م): روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، ط1، تحقيق سيّد محمد مهنى، دار الكتب العلمية، بيروت،1417هـ/1997م.

- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي: تاريخ الملك الظاهر(ت684هـ/ 1285م)، باعتناء أحمد حطيط، بيروت، دار فرانز شتاينر، فيسبادن،1403هـ/1983م، (سلسلة النشرات الإسلامية؛31) الصادرة عن جمعية المستشرقين الألمانية.

- ابن العبري، غريغوريوس الملطي(ت684هـ/1286م): تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه و وضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، ط2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1958م/1377هـ.

- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت660هـ/1261م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1954م/1373هـ.

- ابن العماد، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد (ت1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج6، ج7، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ /1998م.

- ابن القفطي، جمال الدين علي(ت646هـ/1248م): أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الاثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، [د.ت].

- ابن مسكويه، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت421هـ/1031م): تهذيب الأخلاق، مكتبة الحياة، بيروت، [د.ت].

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1374هـ/1955م.

- ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت380هـ/990م): الفهرست، ضبطه وعلق عليه يوسف علي الطويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2002 م.

- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/1267م):

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م/1422هـ.
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ج3، ج5

- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ت732هـ/1331م): المختصر في أخبار البشر، [د.ن: د.م، د.ت].

- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت429هـ/1037م): الفرق بين الفرق،[د.ن]، القاهرة، 1328هـ/1910م.

- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت279هـ/892م): فتوح البلدان، عنى بمراجعه والتعليق عليه رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1959م/1378هـ.

– الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ/868م): الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1323-1325.
– الحسيني، أبو بكر بن هداية الله (ت1014هـ/1605م): طبقات الشافعية، حققه وعلّق عليه عادل نويهض، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت،1402هـ /1982م.
– الحنبلي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت927هـ/1521م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط1، منشورات الشريف الرضى، النجف، 1386هـ /1966م.
– الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت463هـ/1070م) :الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م/1424هـ.
– الدوادار، بيبرس المنصوري (ت725هـ/1325م): التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق محمد إسماعيل الخطيب، إشراف محمد عيسى حمادة، رسالة ماجستير في التاريخ نوقشت في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، بيروت: 1986م/1406هـ.
– الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م): العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ/ 1985م.
– السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت771هـ/1369م): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ط1، [د.ن، د.م، د.ت]، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
– السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م /1424هـ.
– السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة، من خلال عقد الجمان للبدر العيني، تحقيق إيمان عمر شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002م/1422هـ.
– السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت562هـ/ 1166م): أدب الإملاء و الإستملاء دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ت].
– السهروردي، شهاب الدين أبو حفص عمر (ت539هـ/ 632م): عوارف المعارف، تحقيق عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف،ج1، دار المعارف، القاهرة، [د.ت] ، سلسلة ذخائر العرب.
– السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت911هـ/1505م): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م.

- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت548هـ/1153م): الملل والنحل، حققه محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، القاهرة،1961م/1381هـ.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت1250هـ/1834م): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جمعه محمد بن محمد بن يحيى اليمني الصنعاني، وضع حواشيه محمد أحمد سالم، دار الكتب العلمية، بيروت،2007م/1428هـ.
- طاش كبرى زادة (ت968هـ/1560م): مفتاح السعادة ومصباح السيادة، تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1968م/1387هـ.
- الغزالي، محمد بن محمد (ت505هـ/1111م):
- إحياء علوم الدين، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، [د.ت].
- المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، ترجمة فريد جبر، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، 1959م/1378هـ.

- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت682هـ/1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1380هـ/1960م.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن (ت465هـ/1072م): الرسالة القشيرية، حققه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م/1425هـ.
- القلقشندي، أحمد بن علي(821هـ/1418م):
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ت].
- مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فريج، عالم الكتب، بيروت،[د.ت].

- مارسيه، جورج: مقالة الرباط، ترجمة أحمد الشنتناوي، دائرة المعارف الإسلامية، ج2، انتشارات جهان: طهران، د.ت.
- المقدسي: محمد بن أحمد (ت380هـ/990م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م/1424هـ.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م):

- اتعاظ الحنفا بذكر الفاطميين الخلفا، الهيئة العامة للثقافة، القاهرة، 1999م/1419هـ.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م/1417هـ.
- المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1998م.

- ناصري خسرو (ت480هـ/1088م): سفرنامة

- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت927هـ/1521م): الدارس في تاريخ المدارس، أعدّ فهارسه ابراهيم شمس الدين،دار الكتب العلمية، بيروت،1410 هـ/ 1990م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/ 2004 م.

- هوارت، كلود: مقالة الإسماعيلية، دائرة المعارف الإسلامية، ج2، انتشارات جهان: طهران، د.ت.

- ياقوت، بن عبد الله الحموي (ت622هـ/1225م): معجم الأدباء، راجعته وزارة المعارف، الطبعة الأخيرة منقحة ومضبوطة دار المأمون، القاهرة، [د.ت]،(سلسلة الموسوعات العربية).

- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت759هـ/1358م): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة أحمد حطيط، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ /1986م.

ثانياً: المراجع العربية

- بدوي، أحمد: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط2، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، [1979]

- تدمري، عمر: الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، ط1، دار فلسطين للتأليف والترجمة، بيروت، 1972م.

- الجزائري، أبو بكر جابر: العلم والعلماء، دار الكتب السلفية، القاهرة، [د.ت].

- الحاج حسن، حسين: النظم الإسلامية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،1987م.

- الحداد، محمد: السلطان المنصور قلاوون: (تاريخ- أحوال مصر في عهده- منشآته المعمارية)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1993م.

- حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط6، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م.

- حسن، علي إبراهيم:

- التاريخ الإسلامي العام، الجاهلية_ الدولة العربية_ الدولة العباسية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963م.
- دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الملك الناصر بشكل خاص، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م.

- حطيط، أحمد: قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، دار الفرات، بيروت،2003 م .

- حلاق، حسان: معجم الجامع في المصطلحات الأيوبية و المملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م.

- حمزة، عبد اللطيف: الحركة العلمية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة.[د.ت]

- حوري، حسين: المسجد ورسالته في الإسلام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1428هـ /2007م.

- الخطيب، حنيفة: الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1986.

- الخوند، مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية، الشركة العالمية للموسوعات، بيروت، 2004م.

- رزق، عاصم محمد: أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة: آثار عصر دولة المماليك البحرية (648هـ-784هـ/ 1250م – 1382 م)، ج2، ق2، مكتبة مدبولي، القاهرة.

- رزق، علاء طه: دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، ط1، العين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1429هـ/2008م.

- زقلمة، أنور: المماليك في مصر،ط1، مكتبة مدبولي،القاهرة،1415هـ /1995م

- سرور، محمد جمال الدين:

- دولة الظاهر بيبرس في مصر، [القاهرة]: دار الفكر العربي، القاهرة، 1960.
- الدولة الفاطمية في مصر، [القاهرة]: دار الفكر العربي، 1979.

- سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، الإسكندرية، [د.ت]

- سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي والعلمي، المجلد الثالث وهو القسم الأول من الجزء الثاني في الحركة العلمية، القاهرة: مكتبة الآداب.

- سيد، أيمن: الدولة الفاطمية في مصر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة،2000 م.

- الشطي، شوكت: تاريخ الطب، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، 1957م.

- شلبي، أحمد:

- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية،ج2، ج3، ج5، ج6، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1982.
- موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج2، ج3، ج4، ج5، ج6 التربية الإسلامية، نظمها، فلسفتها، تاريخها، ط7، مكتبة النهضة، القاهرة، 1978.

- شمس الدين، عبد الكريم: الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق، ط2، دار إقرأ، بيروت، 1406هـ/ 1986م

- ضومط، أنطوان: الدولة المملوكية:التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، ط1، دار الحداثة، بيروت، 1980.

- طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، بيروت، 1420هـ/1999م.

- عاشور، سعيد عبد الفتاح:

- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة،[د.ت].
- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، منشورات جامعة بيروت العربية، بيروت، 1977.

- العريني، السيد الباز: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت،[د.ت].

- عز الدين، محمد كمال الدين: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة، عالم الكتب، بيروت، 1990

- عكاشة، ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1994م.

- عنان، محمد عبد الله: تاريخ الجامع الأزهر، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

- فكري، أحمد: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1965م.

- كاشف، سيدة اسماعيل: مصر في عهد الإخشيديين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،[د.ت].

- لمعي، مصطفى صالح: التراث المعماري الإسلامي في مصر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/1984م.

- ماجد، عبد المنعم:

- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967م.
- التاريخ السياسي للدولة العربية، عصور الجاهلية، والنبوة، والخلفاء الراشدين، ج1، ط7، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1982.
- نظم الفاطميين، ط2، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1973.

- مجمع الفقه الإسلامي(الهند): دور الوقف في التنمية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1428هـ/2007م.

- محمد، محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر،648هـ_923هـ / 1250م-1517م، دراسة تاريخية وثائقية، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980 .

- محمود، حسن أحمد: مصر في عهد الطولونيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

- مراد، يحيى حسن: آداب العالم والمتعلم عند المفكرين المسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م.

- المنجد في اللغة والأعلام، ط41، دار المشرق، بيروت، 2005.

- النباهين، علي: نظام التربية الإسلامية في عهد المماليك في مصر

- وجدي، محمد: دائرة معارف القرن العشرين، ط3، دار المعرفة، بيروت، 1971م.

- ويكيبيديا: شبكة الأنترنت، الموسوعة الحرة، فلسفة إسلامية.

ثالثاً: رسائل جامعية

- شعبان، منى: تدريب أطباء بغداد في العصر العباسي، إشراف الدكتورة نشأت الخطيب، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في التاريخ نوقشت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، بيروت، 1407هـ/1987م.

- ضناوي، مأمون مصطفى: الناصر محمد بن قلاوون: عصره، دولته ومجتمعه ،639هـ/741هـ، 1293م/1340م، إشراف الدكتور عبد المجيد نعنعي، رسالة ماجستير في التاريخ نوقشت في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية، بيروت، 1987.

- مغربي، محمود: مدارس القاهرة في العصر المملوكي الأول، دراسة في نشأتها وتطورها، إشراف الدكتور سامي مكارم، رسالة ماجستير في التاريخ نوقشت في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية، بيروت، 1978م.

- مهدي، إبراهيم: المدارس في بيت المقدس في عهد المماليك 648هـ_ 922ه/ 1250م_ 1516م، إشراف الأستاذ الدكتور منير إسماعيل، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة اللبنانية في التاريخ، بيروت، 1991م

رابعاً: المراجع المعربة

- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب العربية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1965.

- روزنتال، فرانتز: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمه أنيس فريحة، راجعه وليد عرفات، دار الثقافة، بيروت، 1961.

- سيديو: خلاصة تاريخ العرب، دار اثار، بيروت، 1309ه.

- سورديل، دومينيك: معجم التاريخ الإسلامي، تأليف جورج و دومينيك سورديل، ترجمة أنطوان الحكيّم، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت، 2009م.

- غودفروا، موريس: النظم الإسلامية، نقله إلى العربية فيصل السامر وصالح الشماع، دار النشر للجامعيين، سلسلة الثقافة الإسلامية،1961م.

- لابدوس، آيرا: مدن اسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987.

- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري؛ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة،ج2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 136ه/1941م.

- موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1415ه/1995م.

- ووكر، بول: الفكر الاسماعيلي في عصر الحاكم بأمر الله، ترجمه سيف الدين القصير، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1980.

خامساً: المراجع بالفرنسية والإنكليزية

- Arnold, Thomas: the Legacy Of Islam, Thomas Arnold & Alfred Guillaume, London: Oxford University Press, 1931.

-Berkey, Jonathan: Modes de transmission de La Culture religieuse en Islam, Travaux Publiés sous la direction de Hassan Elboudrari, Institut Francais d'Archeologie Orientale du Caire, Le Caire: 1993.

- Cahen, Claude:

- Les peuples musulmans dans L'histoire médiévale, Institut Francais de Damas, Damas,1977.
- Orient et Occident au temps des Croisades, Aubier Montaigne, Paris,1983.

- Chabbi, J: article "Khankah", Encyclopedie De L'Islam: (EI2), Tome 4, Paris: G.P Maisonneuve & Larousse S.A, 1978.

- Clifford. Edmund Bosworth: The Islamic Dynasties, University Press, Edinburgh,1967 .

-Eche,Youssef: Les Bibliothèques Arabes publiques et Semi-publi ques En Mesopotamie, en Syrie et en Egypt au Moyen Age, Institut Français de Damas, Damas , 1967.

- Glanville, S.R.K: The Legacy Of Islam, Oxford, Clarendon Press,1942.

- Hitti, Philip.K: History Of Arabs, London: Macmillan & co,1951.

- Holt, P. M: article "Mamluk", Encyclopedie De L'Islam, (EI2),Tome 6, Paris: G.P Maisonneuve & Larousse S.A, 1991.

- Jomier, J: article "Al- Kahira" , Encyclopedie De L'Islam, (EI2), T4, Paris: G.P Maisonneuve & Larousse S.A, 1978.

- La Transmission Du Savoir Dans Le Monde Musulman: sous la direction de Nicole Grandin et Marc Gabourieau, edition Arguments, Paris,1997.

- Maalouf, Amin: Les Croisades vues par les Arabes, J.C. Lattes, Paris,1983.

- Madelung, W: article "Isma'iliyya", Encyclopedie De L'Islam, (EI2), T4, Paris: G.P Maisonneuve & Larousse S.A, 1978.

- Pederson, Josh:
  - article "Madrassa", Encyclopedie De L'Islam, (EI2), Tome 5, Paris: G.P Maisonneuve & Larousse S.A, 1989.
  - article "Masdjid", Encyclopedie De L'Islam , (EI2), Tome 6, Paris: G.P Maisonneuve & Larousse S.A, 1991.

- Sauvaget, Jean: Historiens arabes, Librairie D'Amerique et d'Orient, Paris, 1946.

- Sezgin, F: article "Dar Al- Hadith", Encyclopedie De L'Islam, (EI2), Tome Livraison (C-G), Paris: G.P Maisonneuve , [S . D].

- Sourdel, Dominique: L'Islam médiéval, Presses Universitaires de France, Paris, 1979.

فهرس المحتويات